

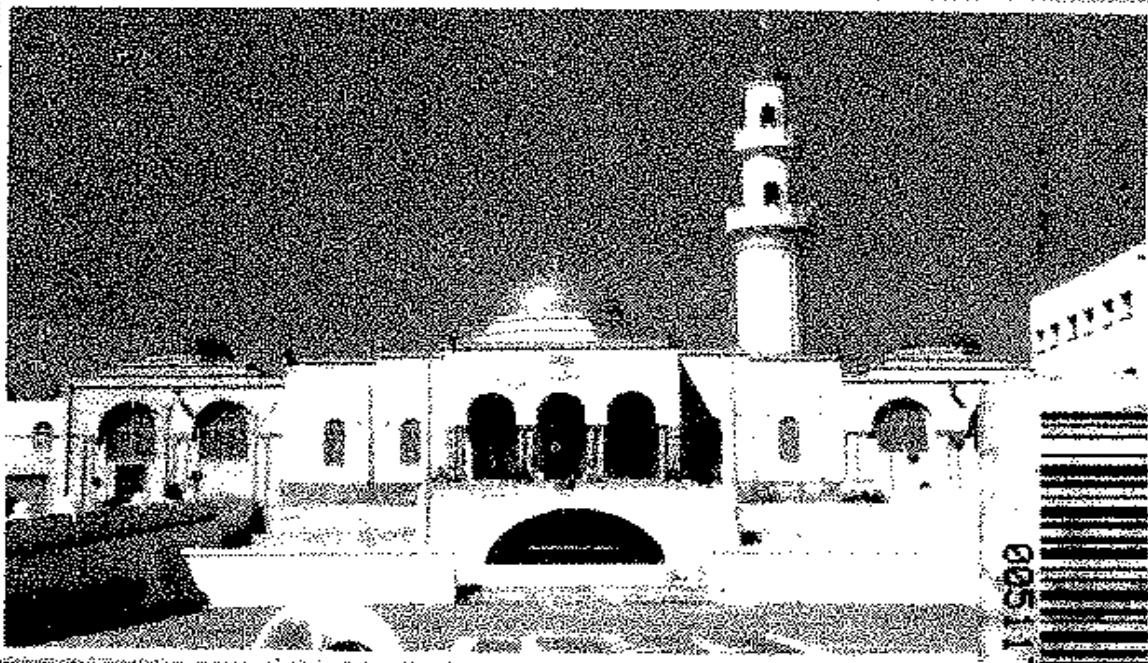
كتاب المقاومة

العمل الحسي

مكتبة  
الأسرة  
1999

# الإسلام دعوة عالمية

عباس محمود العقاد



الهيئة المصرية العامة للكتاب









**الإسلام دعوة عالمية**

طبعة خاصة نصحتها

دارنهضنة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

عن مشروع مكتبة الأسرة

جميع حقوق المطبع والنشر محفوظة



الكتاب المقدس في الأدب المركبة

٢٠٢  
٢٨٣  
٣٥٩١١

# الإسلام دعوة عالمية

عباس محمود العقاد





# مهرجان الفراخة للجميع ٩٩

## مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الدينية)

الناشر  
دار نهضة مصر  
للمطباعة والنشر والتوزيع

الإسلام دعوة عالمية  
عباس محمود العقاد

الجهات المشاركة:  
جمعية الرعاية التكاملية المركزية  
وزارة الثقافة  
وزارة الإعلام  
وزارة التعليم  
وزارة التنمية الريفية  
المجلس الأعلى للشباب والرياضة  
التنفيذ، هيئة الكتاب

الغلاف  
الإشراف الفنى:  
للفنان / محمود الهندي

الشرف العام  
د. سمير سرحان

## على سبييل التقديم

وتمضى قافلة « مكتبة الأسرة » طموحة متتصرة كل عام،  
وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة  
من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يشرى الفكر  
والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار  
روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع  
سلالسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة  
بالشباب . تطبع فى ملايين النسخ التى يتلهفها شبابنا  
صباح كل يوم ... ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة  
سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل  
والأروع والأعظم .

د . سمير سرحان

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)

## تقديم

بقلم / محمود أحمد العقاد

أشهم العقاد في ميدان الإيمان والدين في القرن العشرين بتصنيف عظيم ، بما تضمنته كتبه عن العبريات فأعطت مثلاً عالياً من الأنبياء ورجال الإسلام ، فاظهرت فضلهم ، وأرست أسس اليقين في نفوس الباحثين عن الإيمان ، والفضلين في متألهات الحيرة والشك من أبناء الجيل الحديث .

وقد كانت فترة «الحرب العالمية الثانية» وما تلاها مصدر هذه الحيرة والشكوك ، كما كانت مصدر خير كبير لهؤلاء التائبين ، فقد أصدر العقاد فيها - بجانب كتبه عن الإسلام والمسلمين - كتابه عن «الله» الذي صور نشأة العقيدة الإلهية منذ اتخاذ الإنسان ربياً إلى أن عرف الله الأحد واهتدى إلى نزاهة التوحيد . وكانت مصدر خير كبير أيضاً بما صدر فيها عن «الفلسفة القرآنية» و«البحث في عقائد المفكرين في القرن العشرين» وإثبات أن الفكر لا ينافق العقيدة ، ولكنها يرسوها ويشبّتها في نفس الإنسان فيهديه إلى الحقيقة التي هي بنت البحث . «فالتفكير فريضة إسلامية» كما قرر العقاد ودلل عليه في كتاباته .

وكان العقاد في هذه الفترة يبني بكتبه ومقالاته بناءً متكملاً الأساس ، ثابث الأركان يوضح فيه «الديمقراطية في الإسلام» ويعلى فيه من شأن «الإسلام في القرن العشرين» ويدافع عن الإسلام وبين مؤامرات الاستعمار وكيله للمسلمين . ثم يثبت حقائق الإسلام ويزهق أباطيل خصومه ، ويفرد للمرأة كتاباً هو «المرأة في القرآن الكريم» وللإنسان آخر هو «الإنسان في القرآن الكريم» .

كل هذا بجانب دفاعه عن الثقافة العربية واللغة العربية ، وفلسفة العرب والإسلام والfilosofie والمصلحين والأدباء وإظهار فضلهم ونبيوغرافهم ومناسبي عظمتهم ، في ميادين الحياة المختلفة والحضارة الإنسانية في الماضي والحاضر ، وما يمكن أن يفيده المستقبل منهم .

وبهذا البناء المتكامل هدى العقاد الجيل العربي المعاصر وشفاه من قلقه ، وأعاد  
إليه ثقته بنفسه ويدينه وبقوميته .

\*\*\*

ولقد أجاب العقاد مرة على سؤال من شبابنا الذين تراودهم الشكوك ، فكان ما  
قاله إن وجود الله لازم ... والمطلوب من الإنسان أن يؤمن بالله ، فالإيمان صلة  
نفسية قوية بينه وبين ربه ... وعلى الإنسان أن يطلب المعرفة الإلهية والشعور بالله  
دائماً ... إن المطلوب الآن هو شجاعة الإيمان .

وكان ما أجاب به أيضاً عن أهمية الدين في المجتمع قوله : إن للدين أهمية كبيرة  
في المجتمع ، ولا يوجد مجتمع بغير دين ... وأهمية الدين مقتضنة في الواقع بوجود  
المجتمع نفسه ... وإنما بعض أصحاب المذاهب يذهبون - وهو يظنون أنهم حاربوا  
الإيمان - إنما هو من ألوان الشعور الديني ... ولو لا حماسة هذا الشعور لما ثبتوا عليه  
وما تعلموا الصحايا في سبيل نشره .

لذلك اهتم العقاد في كتاباته بشرعية الإسلام ، وبين موقفها من المذاهب  
المتباعدة والدعوات المختلفة والأقوال المتصاربة ، قبلو معهن هذه الشريعة وجلاها  
للقراء ، وكانت كتاباته في «مجلة الأزهر» في آخريات عمره ذليلًا واضحًا على  
حقيقة دوره ، وضرورة قلمه وعلمه ، وحاجة الناس جمیعاً إلى هذه الكتابات  
العميقة الواضحة ، التي جمع بعضها كتابه «ما يقال عن الإسلام» .

\*\*\*

وهذا الكتاب «الإسلام دعوة عالمية» والذي قمنا بجمعه لهو مجموعة طيبة من  
الفصول تتفق مع ما نشر من كتبه مما سبقت الإشارة إليه في صدر هذا التقدم .

وفي هذه الفصول لمجد العقاد - كعهدنا به دائمًا - يناقش الشبهات التي أثيرت  
حول الدين والعقيدة ، ويتعقبها وينقضها ، ويدافع عن الإسلام بالحججة الدامنة .

وهذه المجموعة تبدأ بمقالات عن النبي ﷺ ، وبآخرى عن رمضان المبارك  
وفريضة الصوم ، وعن العبيد والهجرة .

أما بقية المجموعة فهي عن الإسلام وما يتصل به في القديم والحديث ، وما يقال

عنه في الغرب والشرق . ويمكن أن تكون هذه البقية جزءاً مكملاً لكتاب العقاد «ما يقال عن الإسلام» الذي صدر في حياته رحمة الله ، والذي تصدى فيه للرد على ما يكتبه الغربيون عن الإسلام جهلاً أو قصداً ، عاتبين ومهاجمين لتأريخه وأحكامه وتشريعه ، وصوب بذلك مفاهيم هؤلاء وغيرهم عن الإسلام .

وهذا الكتاب يضم إلى بناء العقاد الفكري الشامخ الذي يتناول الدين والعقيدة والإيمان والإسلام ، والذي يلأ القلوب طمأنينة والنفوس ثقة ويقيناً .

ثم نترك القارئ لهذا الكتاب يخلو إليه في روحانية يستجلّى معانى الدين والعقيدة ويرحى في صوفية دينية مباركة ، فيزيد إيمانه وقلبه يقيناً ، فيسعد في هذا العالم المصطرب المائج ، ويرضى بإيمانه وعقيدته ، فيزداد سعادة كلما أزداد إيماناً .

محمود أحمد العقاد



الفصل الأول  
نبی‌الاسلام

## **محمد العربي الإنسان<sup>(١)</sup>**

شعور القومية بالنسبة إلى الأم ، نوع من الشعور بالكرامة الشخصية بالنسبة إلى الإنسان الفرد ، وأعرف الناس بالكرامة أشدهم حرضاً على كرامة سواه ، ولا تعز الكرامة في نفس أحد يهون عليه أن يهينها في نفوس الآخرين .

والأم تصون حقوقها الوطنية على قدر شعورها بحقوق الأوطان ، فليست رعاية الأم لحقها مبيحة لها أن تبغى على حقوق غيرها . إلا أن يكون مال الأمر عندها قوة كقوة السبع ، وأثرة كأثرة الطفل المدلل ، لم تبلغ في معارج الإنسانية مبلغ الرشد والاعتدال .

قبل ألف وأربعين سنة ، وجد في العالم الأرضي رجل كان إماماً للقومية في مثلها الأعلى ، ورسولاً لإنسانية في قدوتها الحسنى .

ذلك هو محمد بن عبد الله ، النبي العربي ، رسول رب العالمين ، إلى جميع خلقه ، من عرب وعجم ، ومن بيض وسود ، ومن سادة ومستعبدين ،  
نبي عربي مبين ..

ولكنه رسول رب العالمين إلى جميع بني الإنسان ، وذلك هو مثال القومية الفاضلة ، وقوام الإنسانية ، كما يتمثل فيها جميع بني الإنسان .

كان محمد بن عبد الله - عليه السلام - راضى النفس بعروبيته ، يحمد الله لأنّه ولد يوم أعز الله العرب ، ونصرهم على دولة الأكاسرة التي طفت على حوزتهم واستباحت ما ملكت من جوارهم ، وكان يحب قومه ولا يحب من يبغضهم ، فلا يكره العرب إلا منافق ، ولا يخلص في عقيداته من لا يخلص في رعايتهم وعرفان حقهم ، قال لصفيه ومشيره سلمان الفارسي : «يا سلمان! لا تبغضنني فتفارق دينك». قال سلمان رضي الله عنه : «كيف أبغضك وبك هدانا الله؟». قال

---

(١) الهلال مارس ١٩٥٩ .

صلوات الله عليه : «تبغض العرب فتبغضنـى» وفى حديث عثمان ذى التورين : «من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تزله مودتى» .

يحب قومه ، ويحب أن يحبهم الناس ، وهذا قصارى النفس من القومية فى شعورها وعاطفتها ، ولكنه الحب الذى يعمل ولا يقنع بأن يشعر وينطوى على شعوره . فهذا الحب هو الذى جمع شمل العرب ، وألف بين قلوبهم ، . وأخرج من أشتات قبائلهم أمة واحدة تهابها الأمم ، وتلقى عنها رسالة الهدایة باسم الله . باسم رب العرب والمعجم ، باسم رب العالمين ، باسم رب الإنسان فى المغارب والشام .

ولا فضل لعربى على أعمى ، ولا لقرشى على حبشي . . . إلا بالتقوى ، ولا عصبية كعصبية الجاهلية .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُورًا وَقَبَائِلَ لِتَعْارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ ﴾ .

ومعجزة العجزات فى هذه الرسالة الإلهية أن يتعلم الناس ضلال العصبية بالنسب والحسب ، وجهالة الفخر بالأباء والأجداد فى غير فضل ولا عمل ، من صاحب العصبية التى لا يعلى عليها بين قومه ، ومن رسول القوم الذين بلغوا بالعصبية خايتها ، من الأئفة لها والاعتزاد بها والغيرة عليها ، ولو كان هذا النبي محروماً من العصبية فى أمته ، أو فى عشيرته أو فى أسرته ، أو فى بيته ، لما كان فى إنكاره للعصبية من عجب الأعزاء المتكبرين باللغة ، وبالسلف ، وبالمنعة فى مكانهم وفى تاريخ أيامهم ولكن رسالته بالمساواة بين بني آدم وحواء رسالة من معدنها لا تستغرب من صاحبها ولا من قومه ، لكن محمداً عليه السلام كان فى النزوة من فخار النسب والعصبية ، وكان نسبة العريق ملتقي الأنساب من أقوى الأقواء وأغلب الغلاب .

يجتمع معه فى مصر قبائل قيس كلها ، وسائر بنى ذبيان وغطفان ، ويجتمع معه فى نزار قبائل بكر وتغلب وعنز من بني وائل ويجتمع معه فى معد وعدنان من لم يجتمع من هؤلاء ، وهم فى الصفة من ذوى العصبية الأعزاء ..

فإذا كان في بلده فهو في بلد الكعبة ، وفي أعز قبائل قريش ..  
وإذا كان في قريش فهو في بني عبد مناف ، وإذا كان في بني عبد مناف فهو  
في بني هاشم ، لا يناظرهم فخارهم أحد إلا أمسكته غيرهم قبل أن يمسكتوه ..  
ونسابة العرب «تفيل» جد عمر بن الخطاب هو الذي قال .. فيما روى الرواة - يؤتى به  
حربياً حين نافر عبد المطلب «أتناقر رجلاً هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ،  
وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفداً ،  
وأطول منك مذوداً؟» .

خلاصة من خلاصة ، يعرفها أهلها ولا يدعى المتركون فيهم شرفاً  
أجدر بالفخار من شرفه . ثم هو سليل عبد المطلب بعد ذلك سيد بيته ، نبي  
آمنته ، أشرف من يتغصب له من شاء أن يتغصب ، وأن ينتسب إليه من اعتز  
بنسب .

ومن هذا النبي نحي دعوة الأم إلى المساواة ، وإلى فضل العمل ، وإلى كرامة  
القومية دون مساواة إلى قوم ، وإلى رب العالمين ، رب الخلق أجمعين .

هذه هي العجزة الإلهية ، هذه هي الآية لن لا يهتدى إلى الهدى بغير آية ، وهذا  
هو البرهان على إيمان لا تنهض به طاقة إنسان لم تنهض به مشيئته الله ، وأية  
الأيات أن تتقدّم هذه الرسالة قبل ألف وأربعين سنة . وقبل أربعين سنة ، لا  
أكثر ، سمعنا من ينادي بسيادة العالم كله فخاراً ينتصره وسلطاته وقبلهم سمعنا  
من ينادي برسالة «الرجل الأبيض» ويؤكد أن يخرج الأسرّ والأسود والأصفر من  
زمرة الأدمين .

ولا يزال في العالم حتى اليوم من يدين بالله يعز قبيلًا واحدًا ليظل من بعده كل  
قبيل ، ومن يدين بالله يتقبل من أنس و لا يتقبل من آخرين ، ومن يسمع الدعوة  
إلى الله واحد وعلم واحد وحق واحد فيستغربها بطبيعته قبل أن يستغربها بعقله ،  
ويتظر إلى العالم قد توحد على اختيار منه وعلى غير اختيار . اتصل ما بين شعابه  
ومغربيه ، وتجاوزت أصداوه في كل بقعة من بقاعه وبين كل شعبه من شعابه  
وشعوبه ، وكاد أن يقترب ما بين أرضه وسمائه ، ثم هو يسمع عن رب العالمين كأنه  
يسمع عن رب جديد ، أو رب طارئ من بعيداً

ولم يكن هذا الرب بعيداً قبل مئات السنين ، ولا هو بجدد عند عربي يؤمن بالقومية ، ويؤمن بالأخوة الإنسانية كما أمن بها الرسول .

وبحسب العربي أن يؤمن برسالته قبل ألف وأربعين سنة ليعلمها الأم في هذا العصر ، جديدة كان لم تسمع بالأسن ، غريبة كان لم يرددها الأذان على مدى الأسماع في أجوز الفضاء : حسبة أن يعلموا هذه الرسالة وأن تعلم منها بعد ذلك كل رسالة .

حسبه أن يكون عربياً يحب قومه ويحب من يحبون قومه ؛ ولا يحب لهؤلاء القوم أن يتميزوا بغير مزية وأن يتفضلوا بغير فضل ، وأن يتعالوا بغير عمل ، وأن يطلبوا القوة بغير تقوى .

حسبه أن يكون عربياً على هذه الشريعة ، عربياً على سنة نبيه ، ليكون «الإنسان» نعم الإنسان ، وليفخر ببنبه وحسبة ولا يزري على أحد بفخره وشرفه ، لأنه العربي الإنسان .

## رأى في نبي الإسلام بين الأنبياء<sup>(١)</sup>

من أشهر المطبوعات المتداولة عند الغربيين سلسلة الترجم و السير التي ينفرد كل كتاب منها بالترجمة لكتبة من قادة الإنسانية في ميادين الدين والحكمة ، أو ميادين العلم والفن ، أو ميادين الحرب والسياسة ، مشتملاً على عظماء كل ميدان في الشرق والمغرب وفي الزمنين القديم والحديث .

و هذه الترجم تنتشر وتتعدد وتعاد طبعتها من حين إلى حين ، وأخر ما أعيد منها في العام الماضي كتاب القادة الدينيين Religious Leaders مؤلفيه هنري توماس و دانالى توماس Henry Thomas and Dana Lee Thomas .

وفيه ترجم ثلاثة من الأنبياء الكبار وثلاثة من أئمة الديانات الكبرى في الهند والصين والشرق ، و نحو عشرة من المصلحين الدينيين في المذاهب المسيحية أو البرهامية ، آخرهم «المهاتما غاندى» زعيم الهند السياسي المعروف .

أما كبار الأنبياء فهم موسى ، و عيسى ، و محمد عليهم السلام .

و أما أئمة الديانات الشرقية ، فهم زرادشت ، و بودا ، و كنفسيوس .

و أما المصلحون في مذاهبهم فمنهم بولس ، و لوثر ، و ليولا ، زعيم الطائفة اليسوعية .

ويظهر من آراء المؤلفين وتعليقاتهما أنهم يكتبان عن الأديان جمعياً بقلم المؤرخ الذي يحترم العقيدة الدينية ولا يتبع عقيدة خاصة منها ، لأننا إذا قابلنا بين كتاباتهم عن محمد و كتاباتهم عن موسى أو عيسى عليهم السلام ، كدنا نفهم منها أنهم أقرب إلى الإعجاب ببني الإسلام وإن كانوا قد ولدوا و تربوا على مطالعة التوراة والإنجيل ، ولكنه إعجاب تقدير واستحسان يتساوى فيه الإعجاب بالعظمة حيث كانت في مقامها الرفيع من قيادة بنى الإنسان .

تبتدىء ترجمة النبيين العرب بالأسطر التالية : «في القرن السابع ، حين بدأ على الدنيا أنها قد أصبحت بالجحاف ، و حين فقدت اليهودية مولدها و اختلطت المسيحية

(١) الأزهر بولية ١٩٦١ م .

يموروثات الأم الرومانية والبربرية ، نبع في الشرق - فجأة - يتبع صاف من الإيمان ارتوى منه نصف العالم ... وإن حكمة الله لعجبية ذات قوة في قبضاتها العجيب ، فإن هذا الينبوع الصافي قد انبع من أجدب بقعة بين بقاع الأرض قاطبة : صحراء الجزيرة العربية» .

قال المؤلفان : «وتروى الأخبار المأثورة كثيراً من العجزات والخوارق التي صحيت مولد محمد وطفولته ... ولكن محمدأ لم يذكر هذه العجزات ولم يذكر قط معجزة تتصل بشخصه أو برسالته ، لأنه لم يأت كما قال بغير معجزة واحدة هي معجزة القرآن الذي تلقاه من وحي الله ... وقد جاء بالدين ليدعوا إلى ملة إبراهيم ، وموسى ، والمسيح ، على هدى جديد» .

وقالا : «وقد كان محمد محبأ لأخوته من بني الإنسان ، بسيطاً في معيشته يأكل خبز الشعير ويستخدم نفسه وإن اجتمعت له أسباب الشراء ، ويتوزع أن يضرب أحذاً أو يسوّده بكلمة تفريع ... ولم يغتفر لنفسه أنه أغرض ذات مرة عن سائل ضرير ... وقد حاول أن يقابل كراهة أعدائه بالحب لأنه يعلم الناس أن أحب المخلق إلى الله أحبيهم إلى خلق الله ، ولكن عباد الأوثان ينكرون ذلك لم يستمعوا الدعوة الحكمة والحبة ونظروا إليه فلم يفهموا من قوله ولا عمله إلا أنه ثائر عليهم يسفه أحلامهم ويحطم أصنامهم ، فصادروه وتوعدوه واعتذروا على حرريته وأوشكوا أن يعتذروا على حياته» .

ويتأدب المؤلفان في وصف الهجرة إلى المدينة ، فيختاران لها اسمأ باللغة الإنجليزية غير الاسم الذي اصطلح عليه البشر و المترجمون للسيرة النبوية في لغات الغرب وهو اسم الفرار أو الهرب Flight ... فقد سميها الهجرة باسم المفارقة أو الابتعاد Departure وذكرا الكلمة المصطلح عليها قدیماً لاشتهرها .

ويقول المؤلفان : «إن صاحب الدعوة الإسلامية لم يبدأ المخالفين له بالحرب ، بل هم الذين بدأوه بها وأضطروه إليها ، وكان من خلائقه المعروفة أن يرحم الضعيف ، ويأمر بالرحمة ، ويرفق بالحيوان ، وينهى عن التحرش بين البيهائم ، ويدعو أتباعه إلى إدخال السرور على قلوب المهزوزين ، وهو القائل : «أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً أو تقضي عنه ديناً أو تطعمه خبزاً». وهو القائل : «فلكوا العانى ، وأجيروا الداعى ، وأطعموا الجائع وعودوا المريض» .

وأشار المؤلفان إلى الخبر الذي ورد عن وقوف النبي جنازة اليهود ، والى الأخبار الكثيرة التي وردت عن أدبه عليه السلام في معاملة الفضعاء والاتباع ، ومعاملة اليتامى والأيتام فقاً : «إن هذا الأدب هو أدب النبوة الإسلامية في لبابها ، وليس أدب القتال عنواناً لها كما حسب بعض الناقدين للإسلام على السجع» .

أما الجihad ، فهو فريضة يأمر بها المسلم ويتعلم منها من نبيه أن «أفضل الجihad أن يجاهد الرجل نفسه وهوه» .

ويشير المؤلفان في هذا السياق إلى كلام كارليل عن استخدام السيف لنشر الدين فيعيidan قوله :

«إن شريلان لم ينشر الدين بين قبائل السكسون بالدعوة والوعظة ، وإن العبريين لم ينشروا بهما الدعوة بين قبائل كنعان ، وإن من السخف أن يقال عن محمد أنه نشر دينه بالسيف ، لأن الذين يقولون ذلك يصوروون لنا رجلاً واحداً قائماً وحده يحمل السيف ويشهره على أمم كاملة تعاديه وتتكر دعوه ، وهي صورة غير معقوله يرفضها خيال التخييل قبل أن يرفضها إدراك التأمل ، ولا بد له من النظر قبل ذلك إلى الدعوة المقنعة التي أمن بها عدد من الناس كافٌ لحمل السيف والجهاد به للدفاع أو الإقناع» . وعبارة كارليل في هذا السياق أن «محمدًا دافع عن نفسه دفاع الرجل ودفع العرب ودفع الرسول المستجيب للدعوة السماء» .

ويلتفت الكتابان التفاتاً حسنة إلى المثل الأعلى في الحياة الباقيه كما وصفها القرآن الكريم ، فيذكران أنها هي الحياة التي تصفو فيها القلوب : ﴿وَتَرْزَعُنَا مَا في صُدُورِهِمْ مِنْ غُلَّٰٰ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ وانها هي الحياة التي يتساوى فيها الناس ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ومثل هذه القدرة السماوية لا توجد في عقيدة تقوم على البغضاء وسفك الدماء ، ولكنها هي الصورة المنشودة لكل حياة يتحررها المسلم في ذريته ، ويدركها كلما ذكر الإله المعبد : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

فالا : «إن من الحق أن يلاحظ أن صدق محمد لا يتجل في كتاب مقدس فحسب ، بل هو متجل «كنلىك في حياة مقدسة ، لأنه كان بأصدق معانى الكلمة

نعم المثال للمسلم الفاضل الذى أسلم نفسه إلى الله إسلام السمع والطاعة ، ولم يدع قط لنفسه صفة من الصفات الإلهية ، بل كل ما ادعاه وكرره أنه بشر يعلم الناس ما يستطيع كل إنسان أن يتعلمه لو ألقى السمع إليه ، ولا يصعب تلخيص تعليمه ببضعة سطور ، فإن المسلم لا يحتاج إلى الخوض في النظريات الکھنوتیة ولا يجهل أن دينه دین عمل لتحقيق الحياة الصالحة وليس بمجرد نظريات وأقوال يطول فيها الجدل والخ حال» .

وبعد تلخيص الفرائض الإسلامية حتما خلاصة الفرائض والعبادات بخلاصة السلوك العملى الذى يوجبه القرآن على المسلم فقا لا : «إن القرآن واضح فى منهج السلوك الذى يتطلبه من المسلم ... فإن واجبه الأول أن يرتفع غایة الارتفاع الذى يعلو به إلى الاقتراب من صفات الله ، وقد عمل على إدماج النزاع بين الأفراد والقبائل فى أخوة إسلامية وتوسل إلى تحقيق هذه الأخوة بتعليم كل رجل ، وكل امرأة ، وكل طفل ، منهجه الكامل من السلوك المستقيم ، فجاء بشحيم السُّكُر والقمار ، والخداع ، والأثرة ، والقصوة على أي وجه من الوجه ، وألهم المسلمين أن يفرقوا بين حدود العبادة وحدود الأخلاق والنبيات ، فليس البر أن يولوا وجوههم قبل المشرق والمغارب ، وإنما البر فى الإيمان والإحسان ... وعلى المسلم أن يدفع عن نفسه ، وأن يقاتل من يقاتله ، ولكنه لا يعتدى لأن الله لا يحب المعذبين» .

وقالا فى ختام السيرة الحمدية : «فالإسلام لا يختلف الديانات الأخرى ، بل هو دين يجمع ويؤلف ، ولا يطرد أو يستثنى ، ومن أدب المسلم أن يحترم عقائد غيره ، وأن يؤمن بأن العالم أمة واحدة تدين لإله واحد : هو رب العالمين» .

هذه هي زيادة الفصل الذى جاء فى كتاب القادة الدينيين عن محمد - عليه السلام - ، ولا إدخال أن القارئ المسلم يطلع فى كتابات الغربيين المعاصرین على كلام عن نبيه ورسالته هو أدعى إلى ارتياحه ، وحسن ظنه من كلام المؤلفين أو المؤلف والمترجم لهذا الكتاب .

فإن كتاب الغرب على درجات فى حسن الفهم وحسن النية ، وعلى درجات فى التعمصب الدينى والشعور الإنساني الذى يشعرون به نحو أبناء الديانات الأخرى ، ولاسيما الديانة الإسلامية وأتباعها من الأمم العربية .

فمنهم من يطمس الحقائق ويأى أن ينظر إلى خبر من أخبار التاريخ يستدعي الثناء على صاحب الرسالة الحمدية ، وينفى عنه زعماً من المزاعم التي أشاعها الجهلاء المتعصبون في ظلمات القرون الوسطى .

ومنهم من ينظر إلى حقائق التاريخ ويشن حيث يلزم الثناء كأنه ينصف في الشهادة على كره منه .

ومنهم من يتقبل أخبار السوء بأضعف سند يلقاه بين يديه ، ولا يتقبل أخبار الحمد والخير إلا أن تفهمه بالأدلة والأسناد التي يحار فيها الإنكار والارتياح .

أما القليل النادر جداً بين هؤلاء الكتاب فهو الذي يبحث ويطيل البحث بين المصادر المجهولة ليستخرج منها شواهد الحمد والإنصاف ، وهذه مصادر الأحاديث وأخبار السيرة المتفرقة التي عن الكاتبان باستقصائهما كما نرى من مواضع الاستشهاد بها في الصفحات الموجزة التي خصصها لسيرة نبي الإسلام بين قادة الأديان ، وهي لا تزيد على عشرين .

\*\*\*

إن رد التحية بمنتها ، أو بحسن منها أدب من أداب الإسلام التي نوه بها الكاتبان ، ولكنها تحية - مع هذا - تتبثنا عن شيء نحسبه في عداد الأخبار التي لم تتكلف لها مؤونة التزويد ، فإن سلسلة هذه الترجم من مطالعات الجمهور القارئ على أوسع نطاق ، ووجود هذا الاستعداد في طائفة متعلمة من ذلك الجمهور علامة لا يغفلها المسلم الذي يعنيه على الدوام أن يقيس موقف الإسلام من العالم ، وموقف العالم من الإسلام .

## حُكْمَةُ النَّبِيِّ وَخَلْفَانَهُ<sup>(١)</sup>

يقول الدكتور طه حسين في كتابه «عثمان» : إن حكومة الرسول والخلفاء الراشدين من بعده كانت وضيعة وليس للمدين الإسلامي يد فيها ، ويستنتج من هذا أنه لا فرق بين المسيحية والإسلام من هذه الوجهة وأعني نظام الحكم والمجتمع ، ويأتى بذلك قوله تعالى : ﴿وَشَارِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ ، ويقصد الأمور الدنيوية بأسرها .

ولكن ألم يقرأ قوله تعالى عز من قائل : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

هل كانت حكومة المسلمين من وضع محمد عليه الصلاة والسلام دون إيحاء من رب السماء ؟ وهل كان أبو بكر وعمر يؤمنان بأعمالهما من تلقاء نفسيهما وليس هي من جوهر الإسلام في شيء ؟ وهل كان عمر رضي الله عنه يقصد من قوله : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأنحدت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء» ... أقول هل كان يقصد الأموال بأنواعها كما يعتقد الدكتور ، أو يقصد الزكاة والصدقات ؟

أرجو أيضاً أن ذلك على صفحات الرسالة الغرام ... بالغ .

الأعظمية - عبد الكريم الوهاب

جاءنا هذا الكتاب فحذفنا منه بعض العبارات التي لا تدخل في السؤال ، واكتفينا منه بما نشرناه .

والذى نراه أن الأديب صاحب السؤال قد ظلم الفكرة التى نقلها عن كتاب «عثمان» ، لأن الدكتور طه حسين لم يقل شيئاً مما فهمه فى سؤاله ، وكل ما يفهم

(١) الرسالة ١٢ مارس ١٩٤٨ م .

من كلام الدكتور طه أن حكومة النبي عليه السلام لم تكن حكومة «شيقراتية» أى حكومة تستأثر بها طائفة من الكهان والأخبار ولا تشرك فيها الأمة برأى فى اختيار الحاكم وتقرير الأحكام .  
وهذا فى رأينا صحيح .

فمسألة الحكم فى الإسلام حق جمیع المسلمين يتولاه من يصلح له وتنفق جمیرة المسلمين على صلاحته ، وليس العالم بالفقہ فيه إلا كالعالم بأصول الحكم في هذه الأيام ، يختار حاجة المجتمع إلى هذه الأصول ، ولا يختار لأن علمه يجعل الولاية حکراً له أو حقاً ممحصراً فيه وفي طائفة من أمثاله .

وليس رأى المسلمين في صلاح الحاكم يمنع أن تكون أصول الشريعة التي يحكم بها من عند الله ، وكل ما يمنعه أن يعتبر «الحق الإلهي» الذي ادعاه بعض ملوك أوروبا وسيلة إلى إنكار حق الرعية في الشورى والرقابة على الحكومة . وقد أبى الإسلام هذه الدعوى فكانت سنته هذه مزية له بين الأديان .

وقد أوضح الدكتور طه حسين هذا المعنى فقال يرد على القائلين بالشيقراتية في الإسلام : إنهم قد يرون : فإن الحكومة التي كانت تحكم المسلمين في هذا العهد إنما كانت تستمد سلطانها من الله ، ومن الله وحده ، ولا ترى أن للناس شأنًا في هذا السلطان ولا ترى أن من حقهم أن يشاركون فيه أو يعترضوا عليه أو ينكروا منه قليلاً أو كثيراً .

فالواقع أن الإسلام لا يعترض للمحاكم بحق إلهي يمنع الناس من حسابه والتعقيب على حكمه ، وهذا الذي فهمناه من كتاب «عثمان» حين رجعنا إليه ، فلا غبار في رأينا عليه .

أما كلمة عمر عن الأموال فقد عقينا عليها في كتابنا عن «عقبة عمر» فقلنا : «إنه لم يرد في كلامه تفصيل لهذه النية ، ولكن الذي نعلمه من آرائه في هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه ، فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبداً بين المساواة في الآداب النفسية والمساواة في السن الاجتماعية .. ولم تكن المساواة في أدب النفس عند عمر مما ينفي التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطاء ، ويعرضوا عن العمل

واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم في خطبه : «يا معاشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضع الطريق ، فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عبلاً على المسلمين» ، وكان يوصي الفقراء والأغنياء معاً أن يتلذموا المهنة ، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء . . . فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه منأخذ فضول الغنى وتقسيمه بين ذوى الحاجة ، وهو تحصيل بعض الفرائض من الثروات الفاضلة وتقسيمها في وجه البر والإصلاح .

هذا مجمل رأينا في سؤال الأستاذ الوهاب .

وقد تلقينا كتبًا أخرى في هذا السياق يسأل كتابها عن مواطن في كتاب «عثمان» لا نرى حاجة إلى تفسيرها ، لأن إنعام النظر في الكتاب نفسه يعني عن ذلك التفسير .

على أتنا نعتقد أن الذين يستقبلون كتاب «عثمان» يمثل هذا النقد لم يظلموه كما ظلمه المقرظون له بلسان التزلف والدهان ، فإنهم يقولون فيه ما لا يقوله إلا عاجز عن التقدير الصحيح ، وهو كاف لإعطاء الكتاب حقه من الثناء .

فهؤلاء العجزة عن التقدير الصحيح يزعمون أن الفتنة الكبرى لم تبحث على قواعد التاريخ أو على قواعد السنن الطبيعية قبل كتاب «عثمان» .

ومن جرأة الجهل أن يصدر مثل هذا الادعاء في هذه السنوات على التخصصين ، لأن هذه السنوات قد ظهر فيها كتاب يسمى «عيقرية الإمام» ، طبعت منه طبعات قبل ظهور كتاب «عثمان» ، وترجم إلى اللغات الشرقية ، وانتشر في جميع الأقطار الإسلامية ، وقرأه عشرات الآلوف من أقصى المشرق الإسلامي في الهند إلى أقصى المغرب الإسلامي في مراكش وأفريقيا .

وفي هذا الكتاب كلام عن الفتنة الكبرى التي بزرت في أيام عثمان ودامت إلى قيام الدولة الإسلامية .

وقد وصف عصر عثمان فقال : «إنه هو العصر الذي تكون فيه المجتمع الإسلامي بعد نشأة الدولة الجديدة ، فيبرز فيه نظام جديد على أساس الشروء المجلوبة من الأقطار المفتوحة ، وعلى أساس الولايات التي تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها» .

وأخص الكتاب أسباب التذمر سبباً سبباً، فقال في مسألة الشروء: «كثيرون من جانب وكثير التذمرون من جانب آخر، وشاع بين البحانين ما يشيع دائماً في أمثال هذه الأحوال من الملاحة والبغضاء».

وقال عن قلق أبناء الولايات: «إن المتذمرين توافدوا من الولايات إلى المدينة مجندين وغير مجندين، وتولى زعامة المتذمرين في بعض الأحيان جماعة من أجيال الصحابة كتبوا صحيفة وقوعها وأشهدوا فيها المسلمين على مأخذ الخليفة».

وقال عن التنافس بين العواصم: «إن التنافس كان على أشدّه بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة، لا يرضى أهل المدينة بما يرضي أهل مكة، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى هؤلاء وهؤلاء».

وقال عن أثر قريش: «إن قبائل البدية كانت تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة وينظرون إليهم نظرتهم إلى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة».

وقال عن طبقات المشرين: «كان العبيد والموالي والأعراب المخربون حانقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الإنصاف».

وقال عن جمهورة القراء والحفاظ وأصحاب النسخ والفقه والشريعة، «وانهم خلق كثير يعدون بالألوف، ويتفرقون في الحواضر والبوادي ولا يزالون كأنبياء يبني إسرائيل منذرين متوعدين ماختطين على ترف المترفين».

وقال إن أبا بكر وعمر كانوا يسكن الصحابة بالحجاز ويحدزان منهم أن ينطلقوا في الأرض فيقبلوا على الدنيا، وإن عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره.

وقال غير ذلك مما لا يخرج عنه سبب واحد من أسباب الفتنة، وتحصها كلها في مرجع واحد وهو افتراق عهد الخلافة وعهد الملك، وأن الموقف كان في خلافة عثمان «ملتبساً، متشابكاً، لأنه كان نصف ملك ونصف خلافة، أو كان نصف زعامة دينية ونصف إمارة دنيوية، فوجب أولاً أن يتضاع الموقف بينهما وأن يزول الالتباس عن فلق صريح، ووجب - وقد زال الالتباس وتقابل الصدآن اللذان

لا يتلقى ، أن يبلغ الخلاف مده ، ولن يزال قائماً حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدئين وحكم من الحكمين» .

هذا بعض ما جاء في «عصرية الإمام» عن أسباب الفتنة الكبرى وبعض ما تردد في صفحات الكتاب كله في تفسير تلك العوارض الاجتماعية .

فمن الجرأة التي لا توصف إلا بأنها جرأة الجهل ، أن يحاول غمر من الأغمار ستر هذه الحقيقة عن الأعين ، وهي تعد ب什رات الآلوف .

ونحن لا يعنينا الأمر ، لأننا لا يضرر كتابنا عن «عصرية الإمام» ، فإن «عصرية الإمام» لا يحجبه كلام يلطف به غمر من الأغمار .

ولكتنا نبه إليه ، لأن سكوتنا عنه يعد عجيباً جداً في هذا الزمن وفيما بعد هذا الزمن ، ولأن قحة الجهل خلية أن تزجر ، ليتعلم الجهلاء كيف يكتبون حين يريدون الثناء على مؤلف من طراز كتاب «اعثمان» .

فهذا الكتاب من مؤلفات العصر التي يستطيع الناقد الخبرير أن يشن عليها ولا يقول فيها إلا حقاً ، فإذا بلغا إلى الباطل في الثناء عليه فليثأروا يسٌ إلى نفسه ويسٌ إلى الكتاب : يسٌ إلى نفسه ، لأنه يفضح عجزه ، ويسٌ إلى الكتاب ، لأنه يرى الناس أنه يحتاج إلى الباطل ليظفر ببعض الثناء .

## لو عَادَ مُحَمَّدٌ ﷺ

من الأمثليل التي تعداد ولا تمل أمثلة الكاتب الروسي «ديستيفسكي» عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش في قصة الأخوة كرامزوف.

وخلالص الأمثلة أن السيد المسيح عاد إلى الأرض وأنحد في وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له وأوشكوا أن ينفضوا عن وعاظهم ودعائهم المعهودين ، فأشفق هؤلاء على مكانتهم وأوزعوا إلى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح وقال له : إن هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم أول الناثرين عليك وأسبق المبادرين إلى تنفيذ القضاء فيك .

أمثلة تعداد ولا تمل لأن العبرة بها لاتنقضى في حقبة واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله في أحاديث المصلحين والمفسدين .

ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيله ، فلما يكون مبالغًا لو كان ما تخيله بعيداً أو غريباً في بابه ، ولكن في الواقع أقرب شيء إلى الاحتمال مع هذه البشرية التي تختلط فيها الشيطانية والخنزيرية والحمارية في وقت واحد ، فلا تزال حرباً على من ينفعها ولعوبة في أيدي العابثين بها ، وإن كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات .

لو عاد السيد المسيح لأنكره كثيرون من يعيشون باسمه ويتحلون هدايته .

ولو عاد محمد ﷺ لكان له نصيب كذلك النصيب من يرفعون العقيرة بهداية الإسلام والإسلام برىء منهم ، وكل ما هنالك من خلاف أن المسألة لا تم بتلك السهولة التي توهمنها رئيس محكمة التفتيش أو من يتتصدى في الإسلام مثل عمله ، وأنه سيندم على فعلته ندماً يكفر عن سيناته ، إن كانت سيناته مما يقبل التكفير .

\*\*\*

وأسأل نفس كيف ينتفع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعوده النبي ﷺ فترة قصيرة من الزمن؟ وما هي المسائل التي يرجعون بها إلى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها؟

أسأل نفس فتختطرلى مسائل خمس يرجع فيها كل إلى شخصه الكريم ويغنى جوابه فيها الغناء فلا حاجة ولا اختلاط ولا حاجة إلى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد في هذا الزمان

تلك المسائل الخمس هي : مسألة الأحاديث النبوية ، ومسألة الروايات في قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الإسلام عليها وقول نبي الإسلام فيها .

### مسألة الأحاديث النبوية

إن رجال الحديث قد بلغواغاية من الاجتهاد المشكور في جمع الأحاديث وتبويبها وتقسيم رواتها وأسانيدها ، وقد جعلوا من أقسامها الثابت والراجح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا الكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علمًا مستقلاً يتفرغ له علماء مستقلون .

وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تزيد الأحاديث الشابة على عشر الأحاديث المتداولة في الكتب وعلى الألسنة .

وكلمة واحدة من فمه الشريف ﷺ ترد الأمور جميعاً إلى نصابها : «لم أقل هذه الأحاديث» وينتهي القبيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معهما بلاء أولئك المحدثين الذين يستندون إلى الحديث الكاذب في التضليل وترويج الأباطيل .

### قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الأحاديث في أشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فإن الروايات التي لم يتفق عليها القراء لا تغير شيئاً من أحكام القرآن ، ويمكن الأخذ بها جميعاً ولا ضرر في ذلك ولا ضرار .

إلا أنها تحتمل أقل اختلاف مع وجود النبي الذي تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومنى استمع الناس إلى تلاوته - في عصر التسجيل - فتلت ذخيرة الأبد في ذاكرة الأجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن أول ما يسمعه السامعون في مجالس الذكر الحكيم .

### الخلافة والملك

وتاتي مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة .

تلك المعضلة التي سالت فيها بحور من الدماء وجداول من اللدّاد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره في الإسلام حين نذكر السنة والشيعة والإماميين والزيديين والإسماعيليين والزاريين ، وحين نذكر الهاشميين والأمويين والعباسيين والغاطسيين وغيرهم وغيرهم من المنقسمين وأقسام المنقسمين .

يم أوصيت يا رسول الله في أمر الخلافة؟ وهل أوصيت بها دينية أو دنيوية؟ وهل تريدها اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها وأحكامها؟

فإذا قال ﷺ أوصيت بكلّا ولم أوصي بكلّا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فإذا هي بيضاء من غير سوء ، وإذا هي بيضاء من يقايها الماضي تحال إلى دار المحفوظات للعبرة والخبر أو يلقى بها حيث لا حس ولا خبر .

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال .

### الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جداً في مسألة الرسالة والنبأ بعد خاتم المرسلين ، فإن الخالفين لاجماع في هذه المسألة واحد في كل خمسمائة مسلم ، وسينتهي خلافهم عما قريب .

ولكن إذا انتهت بكلمة من الرسول الذي يؤمن به المسلمون جمِيعاً فتلت هن النهاية الفاصلة ، وقد تمنع في المستقبل أضراراً لا يقاس عليها ضررها في الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة أن يشق الخمسمائة فلا يشق منهم واحد .

### **المذاهب الاجتماعية الحديثة**

وما قولك يا رسول الله في دعاء المذاهب العصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية؟ ..

لا حاجة إلى السؤال عن الديقراطية ، فإن سابقة الإسلام فيها أصلح من كل سابقة .

ولا حاجة إلى السؤال عن الفاشية فإن الإسلام يقتت الجبارين والمتجرمين .

ولا حاجة إلى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فإنها ملعونة في كل دين .

وإنما يُسأل النبي ﷺ في الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث نهى أن تكون الشروة («دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ») .. ثم يسأل عن شرحتها فبتلقاء منه المسلمين على أقوم المناهج وأسلم الحلول .

وتأتي على اليمامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين في الأحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشباه الصحفيين .

ويسمع من النبي ﷺ في أولئك كله جواب يغنى عن ألف جواب أو عن كل جواب .

\*\*\*

ونعود إلى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين .

إن كاتب هذه السطور آخر من يؤمن بإيقاع العقول أو بسلطان البرهان في الإقناع .

إن كاتب هذه السطور قد رأى بعينيه أناساً أغرب وأصفق من ينكرون الشمس في رائعة النهار .

وليس بالمستحيل عندي أن يعانيك المعاند ويكتبرك المكابر في «اثنين واثنين يساويان أربعة وفي واحد وواحد يساويان اثنين» .

بل ليس بالمستحيل عندي أن يكتبرك المكابر في معنى الواحد ومعنى الاثنين وأن هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الأرقام .

فإذا عاد النبى ﷺ وقضى قضائه فى أحكام الإسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك فى كلامه وبيانه وفي ملامح وجهه وعلامات جسمه ، ولا والله لن يسلس المقاد من يلتجئ فى العناد ويضيع عليه الجاء أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول .

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون فى الرياء منه حتى تشجعهم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد فى الأولين والآخرين ، فما هو إلا أن يعود فلا تزع عليه هداية المهدىين ورياضة الذين لا يهتدون ، فلا يصدون أحداً عن الدنيا ولا عن الدين .

**الفصل الثاني  
رمضان والصيام**

## الوان من الصيام

يلاحظ الصوم في الأديان الكتابية الثلاثة : الموسوية واليسوعية والمسيحية والإسلام . وليس في كتب العهد القديم نص على الصيام في وقت معين غير صيام الكفارة يوم عاشوراء ، وهو اليوم العاشر من شهر تשרين من السنة العبرية .

وقد استعان العلامة المصري - محمود باشا الفلكي - بذلك على تحقيق التاريخ الهجري بالحساب العلمي الدقيق ، فإن الروايات اتفقت على أن النبي ﷺ دخل المدينة واليهود فيها صائمون صيام عاشوراء ، فظن بعض المؤخرين أنه كان اليوم العاشر من المحرم ، ولكنه ظن ينفيه أن الهجرة كانت في شهر ربيع الأول ، وأن دخول المدينة كان يوم اثنين ، فلما رجع محمود باشا الفلكي إلى التاريخ العبري تبين له أن العاشر من شهر تשרين يوافق يوم اثنين ويقابل العشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية ، وأنه هو اليوم العاشر من شهر تשרين سنة ٤٣٨٣ عبرية .

أما أيام الصيام الأخرى عند اليهود فقد أضيفت مع الزمن ولوحظ فيها التكفار والاستغفار في أيام الحزن والشدائد ، ومنها يوم هدم الهيكل الأول وهدم الهيكل الثاني ، وغير ذلك أيام أخرى من أيام الهزيمة أو الخصار .

والصوم عندهم على درجات ثلاثة : يوم كامل ونهار كامل ، ونصف نهار . فيصومون يوم الكفارة ويوم ذكرى الهيكل من الغروب إلى الغروب ، ويصومون أيامًا غير هذين اليومين من شرق الشمس إلى مغربها ، ويصومون كثيراً من الشروق إلى الظهر ، وهو صوم نصف النهار ، وكل الصيام عندهم إمساك عن الطعام والشراب .

وقد ورد عن السيد المسيح أنه صام أربعين يوماً في البرية ، ولم يرد عنه أنه أمر بالصوم في وقت معين ، ولكن الكنائس المسيحية تلاحظ الصيام قبل عيد القيمة خاصة ، وينقسم الصيام إلى إمساك عن الطعام كله وإمساك عن ألوان معينة كالحوم الحيوانية ، ومن

الصيام ما يبدأ عند منتصف الليل ومنه ما يكتفى فيه بوجبة يومية ، ولا حرج من التدخين ، ويترك الخيار للصائم التابع للكنائس الغربية في كثير من الأحوال .

أما الصيام الإسلامي كما هو معلوم فهو الصيام من الفجر إلى مغرب الشمس في كل يوم من أيام شهر رمضان .

وهذه الفرضية هي الفريضة المثلث بين ألوان الصيام الدينية ، لأنها تحيى في شهر معلوم فيشمل العالم الإسلامي كله وتتصبّع هذه العبادة فيه عبادة فردية وعبادة إنسانية عامة في وقت واحد ، وهي تحيى في شهر قمري يختلف موقعه من فصول السنة ، فلا تقتصر الرياضة النفسية على موسم دون موسم ولا تختص بالصيف دون الشتاء ولا بالشتاء دون الصيف ، وما دام المعول في فرضية الصيام من أساسها أن تكون قدرة على ضبط النفس فالأوفق أن تقرر بموعد محدود وألا يملأ الصائم أرجاءها مع الكسل والتسويف ليشارأ لوقت على وقت أو لحالة على حالة ، فمن ثم يبدو أن صيام شهر رمضان فرضية مثالية بين ألوان الصيام التي أوججتها الأديان .

ولم تأت فرضية الصيام دفعة واحدة ، بل سار الإسلام فيها على سنته من التدرج والانتقال من طور إلى طور . فكان النبي صلوات الله عليه في رواية السيدة عائشة ، يصوم اليوم العاشر من المحرم ويذمّر المسلمين إلى صيامه منذ كان بمكة قبل الهجرة ، ثم فرض صيام شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة ، ووردت الإشارة إلى الصيام مرتين يعني السياحة حيث جاء في سورة التوبه : «**الثَّابُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّابِحُونَ الرَّأِيكُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ**» وحيث جاء في سورة التحرير : «**عَسَنَ رَبِّهِ إِنْ طَلَقْكُنْ أَنْ يُسْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَاتَنَاتٍ تَابِيَاتٍ عَابِدَاتٍ سَابِحَاتٍ تَبَيَّنَاتٍ وَأَبْكَارًا**» ورجح القول في التفاسير أن المقصود بالسياحة في الآيتين الصيام ، وهو يعني جميل يدل على حقيقة الصيام الجوهري وأنه سياحة من عالم الجسد إلى عالم الروح ، فلا يكون قصاراً الإمام عن شهوات الجسد ساعات من اليوم ، ولا يزال الغالب عليه أنه سمو عن تلك الشهوات كأنها رحلة إلى مكان قصى منه ، وانتقال من مجال إلى مجال .

تشتمل الكرة الأرضية على أكثر من ثلثمائة مليون مسلم ، إذا حسبنا المكلفين منهم بلغوا نحو ستين مليوناً من سن الصبا إلى سن الشيخوخة التي تطبق الصيام . لكننا لا نبالغ إذا قلنا إن الكرة الأرضية لا تخلو اليوم من خمسة أضعاف ذلك العدد يلتزمون الصيام طوال العام ، ولا يقتصرونه على شهر رمضان ولا على الصيام الإسلامي فيه .

لا نبالغ إذا قلنا إن العالم الإنساني يشتمل اليوم على ثلثمائة مليون رجل وامرأة وفتى وفتاة يصومون أوانياً من الصيام ويصيرون عليها شهوراً أو يصيرون عليها طوال العام ، على الدوام .

منهم من يصوم عن الطعام والأطعمة النشوية ، ومنهم من يصوم عن السوائل إلا بقدر ، ومنهم من يقرن الصيام بصلوات جسدية لاتقصد بها الصلاة ، ولكنها من باب الصلاة في التزام بعض الحركات بمقابلات .

ومنهم من يقنع بوجبتين ، ومن يقنع بوجبة واحدة ، ومن يقضى شهراً أو أكثر من شهر على فاكهة معلومة كالبرتقال أو العنبر أو الشمرات المنوعة أو عصير بعض هذه الشمرات .

يصومون ولا يقصدون العبادة والاستغفار ، ولكنهم يقصدون الجمال حيناً والصحة حيناً والذرية الرياضية حيناً آخر ، وأشدتهم عناء بصيامه وقيامه من « يتبعه » في محارب الجمال .

وكنا قدiciaً نعلم أن النساء يبدأن بفرضية الصيام بعد الأربعين وأنهن يحسبن الصيام والشباب موسمين لا يتلاقيان ، وربما تخرجت الحسناة أن تغادر بالصوم ثلاثة يقال إنها تاهرت الأربعين ، وإنها جاوزت السن التي تتقطع فيها للدنيا وأقبلت على السن التي تذكر فيها الدين ، وإن لم تتقطع له طوال السنين .

كانت الحسناة تحسب هذه المخالفة من الدلال الذي يسمح به للحسان ، وقد تحسبه دلالةً على الخالق الذي متعها بالنصرة والشباب وإن لم يكن من قبيل الدلال الذي تحمده منها مخلوقات الله ، أو تعتمله على كل حال ، وإن لم يكن هن الاحتمال .

كان هذا أيام زماناً

أما الزمان الحديث فقد عكس الآية وفرض على النساء صياماً لا تبالى به في غير زهرة الشباب .

فهذا الصنف من الطعام منوع وهذا الصنف من الشراب غير مأمون ، وهذه الوجبة توزن بقدر ، وتلك الوجبة لا تقبل بيزان كائناً ما كان .

وهكذا يوماً بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، وسنة بعد سنة ، فإذا حانت سن الأربعين فقد يخشى أن يقال إنها يشتت من إعجاب العيون وتحيات الألسن وقياس الهندام ، فتمضي الكهلة في صيامها كى تلزمها شبهة الشباب ، ولو لقيت في سبيل هذه الشبهة جهد طاقتها من العذاب .

.. كان رمضان واحداً بعد الأربعين فأصبح رمضان كل شهر ، قبل الأربعين وبعد الأربعين ، ومدى السنين .

وقد دان الرجال بهذه الفريضة كما دان بها النساء ، فمن كان يستقل الصبر عن وجبة أو وجبتين ، أصبح العام عنده محتملاً بغير مشات الوجبات ، من شتى المأكولات ، المطبوخات وغير المطبوخات ، وهان على ضخامة الجاه ما هان على ضخامة اللحم والشحم ، فصبر الضيغام على الجوع والظماء والسفر ، وصبروا على الاستشفاء لغير مرض ، والتجرع بلا دواء ، وظن أخصهم مكاناً وجثماناً أنه ظافر رايب بعد هذا الصبر الطويل ، إذا حسيوه من المهازيل وهبطوا به إلى وزن الريشة بعد الوزن الثقيل .

درس في الأدب .

نعم درس في الأدب لهذه القرون الحديثة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين .. وما سبليه ..

درس لهذه القرون التي بدأت بالسخرية من يصومون في سبيل الروح والضمير ، أيامًا قد تطول إلى شهر ولا تزيد عليه ، فإذا بهم يصومون في سبيل الجسد ، أو في سبيل المظاهر الذي فوق الجسد ، شهوراً وسنوات ولا يضمنون القبول ولا يأسون من الرحمة بعد ذلك ، رحمة الهزال والإعياء ، ورحمة الاستدواء والاستشفاء .

صيام في مستشفى العلاج طلباً للصحة ، وصيام في ملعب الرياضة طلباً

للرشاقة ، وصيام فى كل مكان وعلى كل مائدة طلبأ للنظرة المعجبة والعين  
المستحسنة ونزولاً على حكم الأزياء وهى تختلف مع الأذواق والأراء ، كل صيف  
وشتاء ، إن لم نقل كل صباح ومساء .  
بعض التواضع ليها القرن العشرون ..

كان كثيراً عليك أن تعرف بصيام واحد ، فها أنت اليوم تعرف باللون من  
الصيام وأنواع من العذاب ، تارة فى سبيل الأجسام ، وتارة فى سبيل الثياب .  
حرس فى الأدب وكذلك تكون الدروس والأداب .

## رمضان وليلة القدر<sup>(١)</sup>

شهر قديم الحمرة في الجاهلية.

وكان من عادتهم أن يصوموا أياماً منه يبدأونها أحياناً من منتصف شعبان، تيمناً بالصيف وتقرباً إلى أربابهم أن يجعله موسمًا من مواسم الخصب والرغد، وكانتوا يسمونه قدماً بالنافق أو الناطل ، من الناقة النافق أى كثيرة الولادة ، أو من الناطل وهو كيل السوائل . ولا تزال كلمة الناطل تفيد معنى قريباً من هذا المعنى ، سواء باللغة العربية الفصحى أو بالعامية التي تجري على السنة السوداء .

وما زعمه بعضهم أنه اسم من أسماء الله ، وعللوا بذلك أنه كلما ذكر قبل شهر رمضان ، ولم يذكره فرداً بغير إضافة كما يقولون مثلاً «شعبان وصفر والمحرم» وسائر الشهور الأخرى . ويروى صاحب لسان العرب عن مجاهد أنه كان يكره أن يجمع رمضان إذ يجمع على وزن المؤنة السالم وعلى أوزان جموع التكسير ، فيقال رمضانات ورمضان وأرمضان وأرمضاً إلى آخره ثم روى صاحب اللسان عن مجاهد أنه قال : «بلغني أنه اسم من أسماء الله عز وجل» .

ويجوز أن اسمه مشتق من الرمض وهو المطر يأتي قبل الخريف فيجد الأرض حارة مسحترقة . لكن الرأي الغالب أنه مشتق من رمضان ، وأنه كان يأتي مع رمضان في كل سنة ، لأن عرب الجاهلية كانوا يحسبون تاريخهم بسنة قمرية شمسية ، فيضيفون تسعة أشهر كل أربع وعشرين سنة ، أو يضيفون سبعة أشهر كل تسع عشرة سنة ، أو يضيفون شهراً كل ثلاث سنوات حسب موقع الشهور ، ويغلب أن يكون هذا الحساب متبعاً في مكة دون البادية ومن يسكنها من الأعراب الذين لا يحسنون الحساب ، ولكنهم يتبعون فيه أهل مكة بجوار الكعبة ، لأن شريعة الكعبة هي التي كانت تسن لهم تحرم القتال في شهور من السنة وإباحته في سائر الشهور .

---

(١) الهلال يونية ١٩٥٢ .

وقد بحث العلامة محمود الفلكي رحمه الله هذه المسألة في رسالته الشهيرة «نتائج الأفهام في تقويم العرب قبل الإسلام» فرجح أن أهل مكة كانوا يستعملون التقويم القمري في مدة الخمسين سنة التي قبل الهجرة . . . وإنما كان أصحاب الحساب يتصرفون في التقادم والتأخير إن أرادوا الحرب في الأشهر الحرام أو أرادوا منعها في غير هذه الأشهر وفاقاً لأهوائهم ومنافعهم . ومن هنا كان تحريم الإسلام للنساء ، لأنهم يحلونه أو يحرمونه كما يشاءون ، ولا يستقيم الأمر على هذا الحساب بعد فرض الصيام والمحج في أيام معلومات .

ولم يفرض الصيام في شهر رمضان منذ قيام الدعوة الإسلامية ، بل كان النبي ﷺ يصوم في كل شهر ثلاثة أيام ، ثم فرض صيام رمضان كله بعد الهجرة إلى المدينة : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه » .

ومن المعلوم أن القرآن الكريم تنزل في ثلاث وعشرين سنة ، فالمقصود إذن على القول الراجح بين المفسرين هو ابتداء النزول ، إذ توادر أن النبي ﷺ قد تلقى الوحي أول مرة وهو يتبع بدخار حراء .

ولقد كتب الصيام على المسلمين كما كتب على الأمم من قبلهم : « يا أيها الذين آمنوا كُبِّلَتِكم الصيام كُمَا كُبِّلَتِكم على الذين من قبلكم تَعْلَمُونَ » .

وجاءت في العهد القديم إشارات كثيرة إلى صيام الأنبياء وصيام غيرهم من أهل الكتاب ، ففي سفر المخروج أن موسى عليه السلام « كان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء » .

وفي سفر الملوك الأول أن النبي إيليا « سار يقوه تلك الأكلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة إلى جبل حوريب » .

وفي الجليل مشى في العهد الجديد أن السيد المسيح صام أربعين يوماً في البرية ، وراجع الباحثون العصريون أخبار الصيام المحققة فاستدلوا بحادث محافظ كورك - تيرنس ماكسيمي - على أن الجسم يتحمل البقاء بغير الطعام أربعة وسبعين يوماً إذا لم ينقطع كل الانقطاع عن الشراب ، لأن المحافظ المذكور أمسك عن الطعام في

الثاني عشر من أغسطس وبقي مسكاً عنه إلى الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٢٠ ، ولم يغب عن وعيه غير أيام قبيل وفاته ، ولم يكن من أصحاب القوة البدنية البالغة ، بل كان وسطاً بين القوى والهزيل .

وفي سنة ١٩٤٢ بُلأ أحد الدعاة المسلمين إلى الصيام احتجاجاً على تجنيده ، فلبث ستة وأربعين يوماً ثم قال الطبيب بعسكر ماريانلاند عند فحصه إنه كان على حالة حسنة .. جسداً وعقلاً .. وإن كان قد تعرض للجفاف والهزال .

وفي سنة ١٩٤٣ صام «بهانسالي» أحد أتباع غاندي واحداً وستين يوماً ، ولكن الأطباء عملوا في الأيام الأخيرة إلى إطعامه قسراً بالحقن الغذائية وهو مصر على رفض كل طعام .

والأنباء متواترة عن صيام الأنبياء والنساك على هذا النحو أيامًا متواصلة ، ولكن الصيام الوحيد الذي فرضته الشريعة في العهد القديم هو صيام يوم الكفار ، وعقوبة من يخالف هذه الفريضة الموت والقطع من الأمة .

ولم يرد في دين من الأديان الكتابية أمر بالانقطاع عن الطعام أو الشراب أيامًا متواصلة ، بل نهى النبي ﷺ عن الصوم الوصال ، واحتار بعض الطوائف المسيحية صياماً عن اللحوم وما إليها اقتداء بالنبي حزقيال حيث جاء في كتابه «خذ لنفسك قمحاً وشعيراً وفولاً وعدسًا ودخنا وكرستة وضعها في وعاء واحد ، وطعمك الذي تأكله يكون بالوزن وشرب الماء بالكيل» أو اقتداء بالنبي دانيال حيث قال : «وفي تلك الأيام أنا دانيال كنت نائحاً ثلاثة أسابيع لم أكل طعاماً شهياً ولم يدخل في فمي لحم ولا خمر ولا أدهن حتى ثمت ثلاثة أسابيع» أو اقتداء بالنبي داود إذ يقول حسبما جاء في الترجمة السبعينية : «ركبتا ضعفتا من الصوم ولحمي تغير من أكل الزيت» .

هذه الأنواع المختلفة من الصوم جميعاً كانت معهودة في الأمم من قبل ، وكان منهم من يصوم عن أصناف من الطعام ، ومن يصوم عن الطعام والشراب ساعات ، ومن يصوم عنهم من مطلع النجم إلى مطلعه في اليوم التالي ، ومن يصوم عن الكلام إلا أن يكون تسبيحاً أو دعاء إلى الله .

أما هذا العصر الذي نحن فيه فإنه بدعة العصور قاطبة في أمر الصيام ، لأنه أكثر العصور صوماً وأقلها صوماً في وقت واحد ، ونوجز فنقول إنه أكثر العصور صوماً

في طلب الرياضة البدنية وما يشبهها ، وإنه أقل العصور صوماً في طلب الرياضة الروحية وما يشبهها ، وإنه من أجل ذلك بدعة بين جميع العصور ففي العصر الحاضر عرفنا البطل الرياضي الذي يحرم على نفسه طيبات الطعام والشراب ليضمن السبق على أقرانه في مضمونه ومقداره .

وفي العصر الحاضر عرفنا الرجل الذي يوجد بشحمه ولحمه على مدح الرشاقة وال أناقة ، ولعله لا يوجد بربطة من لحم الحيوان على مدح الكرم والإحسان .

وفي العصر الحاضر عرفنا الثانية الحسناة التي تصوم النهر عن الدسم أو الشراب المباح حرضاً على القوام العتيد والقد النحيف ، ولعلها لا تصوم لحظة واحدة عن اللغو والمال .

وفي العصر الحاضر عرفنا الذين يصومون احتجاجاً على هذه السياسة أو ذلك التدبير ، وعرفنا الذين يصومون عن هذا الصنف أو ذاك من اللحوم يومين أو ثلاثة أيام كل أسبوع ، خوفاً على الصنف من النفاذ السريع .

وفي العصر الحاضر عرفنا الذين يقضون الأيام والأسابيع على عصير الفاكهة أو ماء الخضر أو ما شابه هذا وذاك من الغذاء القليل ، لأنهم عرفوا دواء الجروح وما لا يغنى من جوع .

عرفنا أنواع الصيام جميعاً في العصر الحاضر إيماناً بالجسد ، وقلما عرفنا نوعاً من الصيام إيماناً بالروح .

بل عرفنا أناساً يصومون شهر رمضان ليجمعوا بين الصوم والنوم ، ويحسدوا الليل كله سحوراً من مطلع النجم إلى مطلع النهار .

وعرفنا من يسهرون ليله ليتصدوا ليلة القدر ، ولا يفهمون من ليلة القدر إلا أنها باصطلاح هذا العصر - موعد العرائض والطلبات التي تجابت

وإن ليلة القدر خير من ألف شهر كما جاء في القرآن الكريم ، ولكنها لم تكن خيراً من ألف شهر لأنها «فرصة» أو أكازيون ، كما نقول أيضاً باصطلاح هذه الأيام وإنما كانت خيراً من ألف شهر لأنها فاتحة عهد جديد في تاريخ الضمير (هذا للناس وبينات ) .

ومنهم من لا يرقب موعداً من العمر كما يرقب موعدها : فلعلها في السابع والعشرين من رمضان ولعلها في لياليه السبع الأخيرات ، ولعلها خفية لكن يحيى من يريد لها الليالي الكثيرة طلباً لواقتها ، ولعلها مما نشير إليه ولا نحصيه .

قال الأستاذ الإمام محمد عبد الله رحمه الله : « سميت ليلة القدر إما بمعنى ليلة التقدير ، لأن الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقد لهم ما كانوا فيه ، أو بمعنى العظمة والشرف من قولهم فلان له قدر أى له شرف وعظمة ، لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرفه وعظمته بالرسالة . ثم قال إنها خير من ألف شهر لأنه قد مضى على الأم آلاف من الشهور وهم يتخطبون في ظلمات الضلال ، فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهرتهم الأولى ... . »

وقد أصاب الأستاذ الإمام رحمه الله ، فما من ليلة تساوى ألف شهر في تقوم السماء لأننا نجتمع فيها مالملائكة في ثمانين سنة من أرباح الطعام وعروض الطعام ، ولكنها تزيد على ألف شهر لأنها نهاية العمر كلها ، وقلما يزيد العمر على تلك الشهور .

أما في تقويم عصرنا هذا فخير الزمان ما اجتمع فيه الهيل والهيلمان ، وكل صيام مأثور فهو رياضة أبدان ، وكتب الله السلام لشهر رمضان ولعلها آية من آيات العصر يدركها الذاكرون فيما يلى من العصور .

ولعلها آية لهذا العصر أن يصل إلى الروح من طريق الجسد ، وأن يبلغ النهاية من هنا ليدرك النهاية من هناك .

لقد علمنا من عصر الذرة أن الأجسام كلها نور .

وقد نعلم من عصر الذرة أن رياضة الجسد سبيل إلى رياضة الصغير ، وأن العصر الذي عرف من ضروب الصيام أشكالاً وألواناً ، سيعرف بعد حين خيراً ما في هذه الأشكال والألوان .

## ليلة القدر<sup>(١)</sup>

﴿ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر﴾ .

والمتفق عليه بين جلة المفسرين أن ليلة القدر شرفت هذا التشريف لنزول القرآن الكريم فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم - كعادتهم في تحقيق كل دقة وجليلة من تفاصيل الآيات والأخبار القرآنية - يفسرون نزول القرآن على وجه من وجوهه المختلفة . إذ يجوز أن يكون المقصود به ابتداء النزول ، كما يجوز أن يقصد به نزول الكتاب كله جملة واحدة ، ويشير القرطبي وأبن كثير إلى قول القائلين إن ليلة القدر اسم جنس لمجمع الليالي التي تنزلت فيها الآيات ، قد تبلغ عدتها عشرين أو أكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتمال ، ولكنه قول لا يأخذ به الكثيرون وإن أخذوا بتعدد الليالي التي تنزلت فيها آيات الكتاب .

ومفسرون الذين يحققون أن ليلة القدر ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان يرجحون أنها إحدى لياليه العشر الأخيرات ، وإنها على الأرجح ليلة السابع والعشرين منه لأسباب لا محل لتفصيلها في هذا المقام .

ومن المفسرين من يرى أن نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله في ليلة القدر ، يعززون رأيهم بأن ابتداء نزول الآيات كان نهاراً ، ولم يكن في ليلة من الليالي . لأنه من المتواتر أن النبي ﷺ خطوب بأول آية كبرى وهو عاكف بغار حراء ، وقيل له : «اقرأ» . فقال : ما أنا بقارئ» ، إلى آخر ما ورد في الحديث المأثور ، ولكن الأمر الذي لا يختلف فيه أن سورة العلق التي افتتحت بهذه الآيات قد ثبتت بعد ذلك لما ورد فيها من الإشارة إلى الأمور التي حدثت كما قال الأستاذ الإمام «بعد شیوع خبربعثة وظهور أمة النبوة وخرس قريش لإيدانه عليه السلام» .

فلا خلاف على وجه من الوجه في تشريف ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة أو جملة واحدة ، وأن حكمتها الكبرى أنها هي ليلة الفرقان كما جاء

(١) الهلال مارس ١٩٦١ .

في سورة الدخان : (إِنَّا أَنْزَلَنَا فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٌ) .

فهي ليلة القدر لأنها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والتفرق بين المباح والمحظور ، والأمر بالدعوة والتكليف ، وهو أشرف ما يشرف به الإنسان لأنه هو المخلوق المميز بالتكليف والخصوص بالتمييز بين جميع المخلوقات ، ومن أجل هذا فضل على الملائكة لأنها لا تتعرض لما يتعرض له الإنسان من فتنة التمييز بين المباح والمحظور وفضيلة الوصول إلى الخير والامتناع عن الشر بشيئته الحسي المكلف المسؤول ، وقد افتتحت دعوة محمد ﷺ بالأمر بالقراءة ، واقتصر تمييز آدم على الملائكة بفضيلة العلم كما جاء في وصف الخلية من الكتاب المبين : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السُّمَاءِ فَسَوَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَتِسْفِكُ الدِّمَاءَ وَتَنْحَنُ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتَنْقَدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلِمَ آدَمُ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا ثُمَّ عَرَضُوهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالُوا أَنْبُشُونِي بِاسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا مُسْبَحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَمْتَنَا إِنْكَ أَنْتَ الْغَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ ابْنِي هُمْ بِاسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَبْنَاهُمْ بِاسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَفْلَكُ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تَبَدُّلُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْسُبُونَ) .

وقد جاء وصف الإنسان بهذه المزية بعد الأمر بالقراءة في أول آية خطوط بها عليه السلام : (وَافْرَا وَرِبِّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنِ . عَلِمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) .

وهكذا يتبعى أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان ومعنى التقدير والتمييز الذى خص به الإنسان ، ومعنى الأمر الحكيم الذى يفرق في ليلة القدر ، بأمر العليم الحكيم .

فالشرف الذى فضلت به ليلة القدر ، إنما هو شرف التقدير والتمييز ، وشرف

القرآن والفرقان ، وشرف التكليف الذي رفع به الإنسان إلى منزلة أشرف الخلقـات ، وحق عليه أن يذكره لأنـه محاسب عليه ، فيذكرـ في كل يوم وليلة أنه مسئول عما يفعل ، وأنـه مشرف بين الخلائق جميعـا لأنـه منـاط السؤال والمحاسب .

وعلى هذا المعنى وحده ينبغي أن نفهم التقدير الذي يرتبط بنزول القرآن ويأمر القراءة والعلم الذي يفرق به كل أمر حكيم .

ومن حقائق البداية التي يدين بها المؤمن بالله أنه سبحانه وتعالى يقدر الأقدار ويقسم الأرزاق ، ويحيـي ويميت ، ويجـري قضاياه في صروف الحوادث وأطوار الحياة والأحياء ، ولكن اقتران ذلك بليلة واحدة من لياليـ الزـمن أمر لا يقولـ به المؤمن بالـإله الواحد السـرمـد الذي لا أول له ولا آخر ، ولا تـأخذـه سـنة ولا نـوم وإنـما يـختلفـ هذا الـاعتقـادـ من بقـاياـ الأـديـانـ التيـ كانتـ تـعدـ الأـربـابـ وتـخـصـ كـلـ ربـ منهاـ بـوقـتهـ وـسمـاتهـ ، أوـ تـشـيهـ بماـ يـشـبهـ الإـنـسـانـ منـ أـعـمـالـ أـصـحـابـ التـصـرـيفـ وـالـسـلطـانـ منـ بـنـىـ نوعـهـ الحـكـمـينـ فـيـهـ ، وـتـجـعلـ لـلـسـعـودـ وـالـنـحـوسـ أـيـامـاـ تـتـعـلـقـ بـمـطـلـعـ النـجـومـ وـمـدـارـاتـ الـأـفـلاـكـ ، وـيـسـتـنـذـلـهاـ العـارـفـونـ بـأـسـرـارـ النـجـومـ عـنـدـهـمـ توـسـلاـ إـلـيـهاـ بـشـفـاعةـ الـقـرـابـينـ وـالـضـحـاياـ وـرـمـوزـ الـطـلـاسـ وـالـعـبـادـاتـ .

ومن بقـاياـ تلكـ العـقـائـدـ الـوـئـيـةـ تـسـرـيـتـ عـقـيـدةـ التـقـدـيرـ فـيـ إـحـدىـ لـيـالـىـ السـنـةـ ، وـسـرـتـ إـلـىـ بـنـىـ إـسـرـائـيلـ بـعـدـ اـخـتـلاـطـهـمـ بـعـبـادـ النـجـومـ وـالـأـربـابـ الـأـرـضـيـةـ أوـ الـفـلـكـيـةـ فـيـ أـرـضـ بـاـبـلـ فـأـخـلـدـتـ سـبـيلـهـاـ مـعـ سـائـرـ الـخـرـافـاتـ وـالـإـسـرـائـيلـيـاتـ إـلـىـ عـامـةـ الـمـسـلـمـيـنـ ، فـظـهـرـتـ فـيـ تـلـكـ الـأـسـاطـيرـ الـتـيـ أـحـاطـتـ بـأـخـبـارـ لـيـلـةـ الـقـدـرـ وـعـدـلتـ بـتـلـكـ الـلـيـلـةـ الـمـبـارـكـةـ عـنـ مـعـناـهـ الـذـيـ يـتـصـلـ بـهـ شـرـفـ الـإـنـسـانـ وـشـرـفـ التـعـيـيزـ وـالتـكـلـيفـ إـلـىـ مـعـنـىـ بـنـاقـصـهـ وـبـيـطـلـ حـكـمـهـ وـبـيـطـلـ حـكـمـةـ الـإـسـلـامـ فـيـ جـمـلـتـهـ ، لـأنـهـ يـرـتـهـنـ السـعـادـةـ وـالـشـقـاءـ وـالـثـوـرـةـ وـالـجزـاءـ بـغـيـرـ الـأـعـمـالـ وـالـمـقـاصـدـ وـيـعـودـ بـهـاـ إـلـىـ أـرـصادـ الـلـيـلـىـ وـالـأـيـامـ وـرـمـوزـ الشـفـاعـاتـ وـالـقـرـابـينـ .

كان قـدـماءـ الـبـابـيلـيـنـ يـحـتـلـونـ بـسـتـتـهمـ الزـرـاعـيـةـ وـيـتـهـلـونـ إـلـىـ أـربـابـهـمـ فـيـ مـطـلـعـهـاـ أـنـ يـغـدـقـ فـيـهـاـ المـطـرـ ، وـيـورـقـ فـيـهـاـ الشـجـرـ ، وـيـجـعـلـهـاـ سـنـةـ أـمـنـ وـرـخـاءـ وـنـعـمةـ وـثـراءـ ، لـاعـتـقـادـهـمـ أـنـ أـربـابـ النـجـومـ تـقـضـيـ فـيـ الـلـيـلـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ مـطـلـعـ السـنـةـ كـلـ ماـ يـقـضـيـ منـ أـمـورـ الـخـصـبـ وـالـجـدـبـ وـالـرـزـقـ وـالـحـرـمـانـ وـالـحـيـاةـ وـالـمـوـتـ ، وـكـانـ مـنـ عـقـائـدـهـمـ أـنـ

للامغار شجرة تخضر أوراقها أو تذبل مع اخضرار الشجر على الأرض وذبوله ، فمن كتب له العيش اخضررت ورقته ، ومن قضى عليه بالموت ذبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعیدان الخطب بغير روح ، وكان من عقائدهم مع هذا أن اخضرار الورقة وذبولها مرتهنان بمراسم الصلاة وطلاسم السحر التي يتولاها الكهان ويفرضون من أجلها القرابين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات .

وقد نقل الإسرائييون كل ذلك إلى عبد من أعيادهم التي احتللت فيها عبادة الإله بعبادة الأرباب الوثنية ثم تسررت منهم إلى عامة المسلمين ، وانخدع بها من غير العامة من كان يحسب أن القوم ينقولون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحة ، فأضافوا إلى ليلة القدر أكثر ما كان يقال عن مراسم السنة الزراعية عند البابليين ومراسم التكفير عند كهان إسرائيل .

ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر إلى منتصف شهر شعبان ، مع وضوح نسبتها إلى شهر الصيام في القرآن الكريم ، إنما جاء من ذلك الاعتقاد القديم في السنة الزراعية ، إذ كان شهر شعبان إنما سمي بذلك لأن شعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء في روايات البخارية ، فهو أشبه بما كان يقال في بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من «انشعاب» الأعمار بين الاخضرار والذبول .

لكنه في الواقع «انشعاب» آخر بين العقائد الإسلامية في صميمها وبين العقائد التي تختلف عن عبادة الأوثان والأرباب من دون الله .

فالعقيدة الإسلامية في صميمها لا تمثل في شيء كما تمثل في التكليف والتمييز ، وفي المخلوق العاقل المسؤول الذي يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء أو الغفران من عمل غيره ، وهنا تتشعب العقائد بين ليلة القدر في شريعة المسلم وبين أشباه هذه الليلى في كل شريعة يناظر فيها قدر الإنسان بغير الأعمال والنيات .

وإن المسلم ليعود إلى إسلامه الصحيح كلما احتفل بليلة القدر ، وهو يذكر أنها ليلة فرقان وحساب ، وأنه يدعو الله فيها لشرفها لما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير والتذكرة .

## شهر الصيام

شهر الصوم قديم في تاريخ الإسلام ، والصوم نفسه أقدم من الإسلام وأقدم من الأديان الكتابية الثلاثة ، وقد يقصد في التقدير من يقول إنه سبق الديانة الموسوية بب يومين ، وإن اليوم يقدر ألف سنة ما تعدون .

ونتوى بحمد الله أن نصاحب الشهور في أحاديث الجمعة بما يجريه في المخاطر أو يرده إلى الذاكرة من غرائب الماضي ومستحدثات الحاضر ، وأولها اقتراح على الماكينات والآلات بالصوم

منذ خمسة وعشرين قرناً ذهب يونس عليه السلام نذيرًا إلى أهل نينوى العظيمة لله .

ولم تكن عظيمة لله لأنها تطيع الله وتعمل بأوامره ووصاياته ، إذ كانت في الحقيقة أطفي المدن القديمة كما وصفها أباياها ، وكان غناها سبباً لطغيانها ، وطغيانها سبباً لفنائها ، فإذاً اجتمعت لها الشروة التي لا مشيل لها من أسلاب المقهورين والمستحررين ، وكانت كل لبنة في قصر من قصورها تقوم بحياة عبد مظلوم أو بحياة جملة من العبيد المظلومين .

ولكنها سميت بالعظيمة لله على حد التعبير المعروف في اللغة العبرانية ، حيث يراد الارتفاع بالوصف إلى أقصى مداه ، ومنه جبال الله وأرز الله كما جاء في المزامير ، وقد كانوا يقدرون طول المدينة وعرضها بمسيرة الأميال لا بالخطوات والغلوات ، وقيل في طولها مع ضواحيها إنها مسيرة ثلاثة أيام .

فلما توسط يونس عليه السلام تلك المدينة العظيمة بعد مسيرة يوم ، تجمع إليه الخلق واستمعوا إلى نذيره ، وقد انذرهم أن تنقض المدينة على من فيها إذا هي أصمت مسامعها عن النثر الإلهية ، وأولها نذيره الرهوب ، وكفى به نذيرًا أوقع الهمج في قلوب الرعية والرعاة ، وترددت أنباءه بعد قليل في جنبات القصور ، فارتاع له الملك والعظماء .

وجاء في سفر يونان - أو يوتس - من العهد القديم . إن أهل نينوى آمنوا بالله وتناذدوا إلى الصوم ولبسوا المسوح الغلاظ ، وقيل في المدينة «عن أمر الملك وعظمائه» : «لا تدق الناس ولا البهائم ولا البقر ولا الغنم شيئاً ، لا ترع ولا تشرب ماء ، وليتغط الناس والبهائم بالمسوح .. ويرجعوا عن الظلم» .

وسر المفسرون أمر الملك والعظماء أن تصوم البهائم وتتغطى بالمسوح قائلين : «إن المدينة إذا انقلبت فإنما تنقلب على البهائم كما تنقلب على الناس ، وإن الله لا يجعل بعثة المدينة التي تحتوى فيمن تحتوى مائة وعشرين ألفاً لا يعرفون أيانهم من شمائلهم لأنهم أطفال صغار ، ومعهم مئات الآلوف لا يعرفون أيانهم من شمائلهم كذلك ، لأنهم عجماء» .

وصيام العجماءات هو بيت القصيدة.

فلم إذا لا تصوّم الماكينات والآلات في العصر الحديث؟ غالى بعض  
المحدثين في الشعر فوضعوا قطار الحديد إزاء قطار الإبل، وشهدوا للأقدمين  
بالفضل لأنهم وصفوا الناقة بالف قصيلة ولم نصف نحن القطار ولا الطيارة ببعض  
ما وصفوه.

لكتنا لا نغالي إذا وضعنا الماكينات والآلات إزاء الخييل والجمل والبغال فيما  
تصننها للإنسان وما يسخرها له من خيره وشره ، فهنيء إذا صامت عن بعض ما  
تصنن في العصر الحديث فقد يجدى صيامها بعض الجنوى وقد ينجو الإنسان في  
المغرب والشرق من شر كثير ، وقد يكون صيامها نفسه هو تويبة الندم التي يتبعها  
الغفران ، وكم في الأرض من نينوى يسكنها الآلوف والألف الآلوف من لا يفرقون  
بين اليمين والشمال ، لا لأنهم عجماؤت ولا لأنهم أطفال ، ولكن لأنهم في حالٍ  
غير من حال العجماؤت والأطفال؟

لتتصم ما كينات القدائف والنفاثات ، ولتتصم ما كينات الفضول والنواقل ، ولتتصم كل ماكينة تزيد حاجة الإنسان ولا تخفيه عن حاجة إلا فتحت له أبواب حاجات .

لتحمّل هذه الماكينات ولا تأكل ناراً ولا دخاناً بضعة أيام ولينظر الناس كيف  
يمكن أن يعيشون في التحديق الشامل الذي لا يملك زماماً

فـ ١٠٢٠١٩:٣٧٠ تـ ٢٠١٩:٣٧٠ صـ ٢٠١٩:٣٧٠ مـ ٢٠١٩:٣٧٠

تضاعف صناعة السلاح وتضاعف صناعة البناء ، وصبح ما قالوا في كثير ، وصح كذلك أن جياع اليوم أكثر من جياع الأمس ، وأن خوف العدوان في عصر السلاح المتضاعف والبناء المسلح أكبر من خوفه يوم لم يكن سلاح العصر الحديث ، ولم يكن بناء مسند بالحجر والجديد .

لماذا لا نصوم الماكينات؟ ولماذا لا يخرب صيامها ولو في بعض الأوقات؟

شهر في السنة على سبيل التجربة فإن طال الشهر على عبد الماكينات فليكن الصيام الأول أسبوعاً واحداً لا تدور فيه ماكينة ولا يعمل فيه بخار ولا كهرباء ، ثم تنظر ما يكون ، ولن يكون أسوأ مما هو كائن وما يخشى غداً أن يكون .

يقول حكيم من حكماء العصر : إننا لو أصبحتنا ذات يوم وقد صغر الكون كله إلى مقدار البندقة لما أدرك الناس فرقاً بين ما كانوا فيه وما صاروا إليه ، لأن مقاييسهم تصغر كما صغروا ومسافاتهم تصغر كما تصغر المقاييس ، ومن كان يتبع حين يعش ميلين فإنه سيتبع غداً حين يعش مقدار شعتين . ومن كان يقيس ثينوى بمسيرة ثلاثة أيام ، سيقيسها كذلك بمسيرة ثلاثة أيام لاتنقض ساعة واحدة ، لأن الشمس وكواكبها صفت معنا كما صغرتنا معها ، فلم تتغير الأيام والساعات ولم تختلف الأخلاق والمدارس .

كذلك يكون الأمر إذا أصبح الكون كله في حجم البندقة . فهل يكون غير ذلك إذا خربنا «النوبة» وتفحينا في البوق ، وأومنا للأتون في قلب البآخرة أن يصبح شرعاً وللماكينة الطاحنة التي تصبح رحي ، وللمصنع الدوار أن يصطنع الآلة في المدار بالليل والنهار؟

مستحيل .. حسن إن كان لا بد من استحسان ، فتمتنعوا ما شئتم إذن بالمكبات والماكينات ، ولعلها سائرة بنا جميعاً إلى حالة لاستحيل ، لأنها آخر الحالات .

على أنه بالتجربة المحسوسة لم يكن بالستحيل كما يزعمون ، فقد صام أناس وصامت ماكينات فصنعوا العجائب وصنعت العجزات ، ولا يزال خبرها في الأذان وأثرها في مشاهدات العيان .

صام غاندي وصوم معه الماكينة الجهنمية التي تأكل النار وتتفت الدخان .

وكانت معجزة الماكينة الصائمة أعجج من معجزة القديس الصائم ، فاعتخصمت الهند بالغزل ، واعتخصمت بريطانيا العظمى بتلك الماكينات لله كما تقول البلاغة العبرية ، وما كانت لله ولا للقديسين ، إلا أن يكون القديس جورج الراكب على صفحة الدينار .

\*\*\*

صام غاندى واعتخص بالغزل ، فلم يكن صيامه ولا صيام ماكيناته بالمستحيل ، وإنما كان هو المعجزة التي صنعت المستحيل ، وارتقت صورة الغزل شعاراً لراية لم ترتفع قط منذ ثلاثة قرون .

فيإذا كان صيام الماكينات جملة واحدة عسيراً كل العسر أو بعض العسر ، فليكن صيامها أقساماً منجمة على حسب الموارد ، ولننظر بعد ذلك كيف يتيسر العسير ويتحول المستحيل .

لقد كانت في بهائم نينوى حكمة . وعزيز على حكمة الناس أن تحكيها اليوم ، لأنهم ماكينات تجري وراء ماكينات ، وياكلون النار كما يأكلها الحديد الدوار .

## فِيْلِسُوفٌ وَقَدِيسٌ

### بِعَظَانِ ذَوَاتِ الْأَدْبَرِ وَالْمُتَنَاهِيَّةِ

لَا كتبنا عن صيام أهل نينوى واشراكمهم أنتعامهم معهم في الصيام وليس المسوح ، كتب إلينا سائل يسأل : هل كانت شريعة من الشرائع تلزم البهائم التكاليف والفرائض وتوجب عليها التكفير عن الذنب؟ ثم استطرد ، ولعله استطرد مازحاً ، فسأل : أليس من الإكرام للبيهيم الأعمى أن يعامل معاملة الإنسان؟ .. والمسألة فيما نرى لم تكن مسألة تكليف أو تكفير ، فكل ما هنالك أنها مراسم حداد في الزمن القديم اشتراك فيها جميع الأئم ولا تزال في العصر الحديث تشارك فيها على صورة من الصور .

فقد روت ملاحم اليونان أنهم كانوا يحلقون شعر الخيل ويجلبونها بشارات الحداد في جنائز إيطاليا ، ورأينا ولا نزال نرى في العصر الحديث مراسم الحداد يشترك فيها فرس الجندي المشيع إلى مرقده الأخير ، ورمي صحف الناس عن الطعام وهو محزونون مغمومون فلم يخطر لهم أن يجحوضوا ويقدموا العلف بأيديهم إلى مطاياهم وأنتعامهم ، فيدركها الحزن والصيام على هذه الصورة وهي لا تعقل ما يفعلون ، وقلما يعقل الناس أنفسهم ما يفعلون وهو محزونون أو مغمومون .

على أن السائل المريض على إكرام الحيوان الأعمى يستطيع أن يطمئن ، ولو بعض الأطمننان إلى حسن رأي الأقدمين من هذه الناحية ، فلم تخلي العصور الأولى من فيلسوف يحسن الفتن بالطير والمعجماءات فيسوق إليها دروسه وعظاته وهي من أفضل ما تعالجه العقول .  
ذلك هو «الحكيم» فيثاغوراس .

ولم تخلي العصور الوسطى من قديس جليل الشأن يخاطب الطير ويدعوها إلى

الإيمان ويدكرها برحمة الله ونعماته ، وما أسبغه عليها خاصة من بره وسخائه .  
وذلك هو القديس فرنسيس الذي تنتهي إليه طائفة «فرنسيسكان» .

كان الفيلسوف فيثاغوراس «منطقياً» مع نفسه كما يقولون في تعبيرات الغربيين ، لأنَّه كان يعتقد تماًساً للأرواح ويحسب أنَّ النفوس البشرية ترکب في أجساد الناس عقاباً لها على شرورها وجهالتها - فهو إذن أخوْج ما تكن إلى العفة والتذكير .

وكان منطقياً مع نفسه لأنَّه كان يحرِّم أكل الحيوان ويقول إنَّ أكل الحيوان وأكل الإنسان على هذا الاعتبار يستويان .

وكان من عجائبـه أنه - مع تحريمه أكل الحيوان - يحرِّم أكل الفول ويحسبه من أغذـظ المحرـمات .

ونعود فنقول : لعله في هذا «منطقـي» مع نفسه كذلك ، لأنَّه يترك للحيوان طعامـه غير منازع فيه ، ويدعـره خـير ما يأكلـ من الخـوب ، وعندـه غـير الفـول كثـير من طـعام النـبات .

وقبيل أن يخطر لـمن يجهـلـ الرجلـ أنـ يتـهمـهـ بالـبلـاهـةـ والـعـتـهـ نـعـجلـ فـنـقـولـ : إنـ فيـثـاـغـورـاسـ كانـ عـبـقـرـىـ الـقـرـونـ الـأـوـلىـ فـىـ الـعـلـومـ الـرـيـاضـيـةـ وـإـنـ الـعـالـمـ لـمـ يـعـرـفـ يـدـاهـ أـصـدـقـ مـنـ بـداـهـتـهـ فـىـ تـعـلـيـلـ الـأـصـوـلـ وـاستـكـنـاهـ أـسـرـارـ الـوـجـودـ ، وـحـسـبـهـ عـلـىـ الزـمـنـ أـنـهـ هـوـ الـقـاـئـلـ إـنـ الـمـوـجـودـاتـ كـلـهـاـ عـدـدـ وـإـنـ لـآـشـىـهـ مـنـ الـمـادـةـ التـىـ يـحـسـهـاـ فـىـ الـأـرـضـيـنـ وـالـسـمـاـوـاتـ إـلـاـ وـهـوـ عـدـدـ فـىـ عـدـدـ ، وـمـنـ اـسـتـصـغـرـ هـذـهـ الـبـداـهـةـ الـلـهـمـةـ فـلـيـذـكـرـ أـنـهـ سـبـقـتـ عـصـرـ الـكـهـارـبـ وـالـثـرـاتـ بـنـيـفـ وـعـشـرـينـ قـرـنـاـ وـأـنـ الـكـهـارـبـ وـالـثـرـاتـ هـىـ مـصـدـاقـ مـاـ قـالـ فـىـ ذـلـكـ الزـمـنـ السـحـيقـ ، إـذـ لـاـ مـحـصـلـ لـلـمـادـةـ فـىـ أـصـولـهـاـ عـنـ أـحـدـ ثـحـدـيـنـ مـنـ عـلـمـاءـ الـطـبـيـعـةـ إـلـاـ أـنـهـ عـدـدـ مـنـ الـمـوجـاتـ وـالـهـزـاتـ تـخـتـلـفـ نـسـبـتـهـاـ فـتـخـتـلـفـ عـنـاصـرـهـاـ ، وـلـاـ يـعـلـمـ أـحـدـ كـمـ مـنـهـاـ فـىـ الزـمـنـ وـكـمـ مـنـهـاـ فـىـ الـمـكـانـ ، وـلـاـ يـنـحـصـرـ لـهـاـ كـيـانـ وـاـحـدـ مـرـتـينـ عـلـىـ حـالـ .

ومضـتـ قـرـونـ وـقـرـونـ ثـمـ ظـهـرـ فـىـ الـعـالـمـ رـجـلـ يـخـاطـبـ الـحـيـوانـ بـلـسـانـ الـإـيمـانـ بـعـدـ هـذـاـ الرـجـلـ الـذـيـ خـاطـبـهـ قـدـيـمـاـ بـلـسـانـ الـفـلـسـفـةـ وـالـأـخـلـاقـ .

ذـلـكـ هـوـ جـيـوـفـانـيـ الـذـيـ اـشـتـهـرـ بـاسـمـ «ـفـرـانـسـواـ الـأـسـيـسـيـ»ـ وـأـفـرـعـةـ النـسـكـ وـهـوـ

في الخامسة والعشرين من عمره ، وعيلك من المال ما لم يعلمه كثير من أمراء زمانه ، ويعرف عن فنون فهو ما لم يعرفه .

ولد قبل نهاية القرن الثاني عشر ١١٨٢ ونذر نفسه للعبادة سنة سبع ومائتين ، وحضر الحروب الصليبية فكان له رأى فيها بوائم دعوته إلى السلم والإخاء . وجملة الرأى أن يتخلص عن الحمولة رجال السيف ويتركوها لرجال المساجدة والصومعة ، وعمل بما دعا إليه فحضر إلى مصر ولقي السلطان الكامل ، ودار بينهما حوار عجيب كان السلطان الليب الأريب يبتسم وهو يصفى إليه ، ثم أباحه من الحرية له ولتلاميه ومربيه ما لم تدركه الجيوش بحوار السيف .

قال تلميذه الذي كتب ترجمة حياته : «ولما اقترب من بيقانيا وصل إلى بقعة تزاحم فيها الطير من جميع الأنواع ، فهروي إليها حين رأها وحياتها كأنها تفهم كما يفهم الناس ، وانتظرت الطير من جانبها تحنو برؤوسها عليه وهي على أخصانها كلما اقترب منها ، وتنظر إليه نظارات لم تعهد من أمثالها ، ثم توسطها وتتوسل إليها أن تستمع منه إلى كلمة الله قائلًا بحق يا إخوانى الطيور يتبينى لكم أن تسبحوا بحمد خالقكم الذى كساكم ريشاً وجعل لكم أجنبحة تطيرون بها وبسط لكم الهواء الطهور وشملكم بعذاته ورحمته وأنت لا تفكرون في أنفسكم .

قال صاحب السيرة : «وبينما كان يخاطبهم بهذه الكلمات ونظائرها كانت تلك الخلائق الصغار تسلك حوله مسالك عجباً فتمد إليه أعناقها وتنشر أجنحتها وتفتح مناقيرها وتطيل التأمل فيه ، وكان هو في نشوة الروح يقبل بينها ويدبر ويصحها بشبابه فلا تبرح مكانها حتى يباركها وأذن لها فانصرفت جمیعاً ووقف أصحابه ينتظرون إلى هذه الأشياء ويتظرون ، وجاءهم الرجل الطيب المقدس وهو يلوم نفسه لأنّه غفل عن وعظ الطير قبل ذاك .

ويظهر أن سنة الطير في حب السماع والإحساء إلى الماعظ والوصايا كسنة أبناء آدم . فليست كلها تحسن وأن تستغنى عن التنبيه إلى السكوت وحفظ النظام ، فقد وصل القديس إلى القرية الأخرى - قرية الفيابانو - وأقبل على جماهير المرحبيين به يتحدّث إليهم فلم يستطع أن يسمعهم ولم يستطيعوا أن يسمعوه ، وراح العصافير ترقق من حولهم وتتصيح ولا تهدأ لحة عين عن الزفقة والصياغ ،

فناها على سمع من الحاضرين جمِيعاً وألهاب بها قائلأ: «إخواني العصافير: لقد حان لى أن أتكلم أنا أيضاً كما تكلمت أنت واستوفيت حظك من الكلام، فاستمعى إلى كلمة الله والزمن الصامت حتى نفرغ من الدعاء» .. وكأنما رزقت ساعتها الفهم والعلم فلاذت على الأثر بالصمت واستقرت في أماكنها لا تتحرك حتى فرغ الدعاء .

وانتقل السر من القديس إلى تلاميذه ومربييه فتذكروت الكرامة في مدينة بارما على لسان معلم يقلقه عصفور لا ينى حوله يزقزق وبطير ، فالتفت المعلم إلى جمع من رفاقه وقال لهم: «لعل هذا العصفور واحد من ذلك السرب الذي أزعج رجل الله وهو يلقى عظامه على سامعيه حتى أمره بالسكتوت ، ثم أومأ إلى ذلك العصفور وناداه في ثقة وإيمان ، باسم فرنسيس خادم الله أمرك أن تأتى هنا وتكتف عن الزقزقة» .. فما سمع العصفور اسم فرنسيس حتى صمت كأنه يتلقى الإلهام من رجل الله ، وتقديم إلى يد المعلم كأنه يتقدم إلى عش أمين .

كذلك كانت الطيور والعمجاوات في رأى الفيلسوف الحكيم وفي رأى القديس الطيب الكريم ، فماذا يرى السائل الخريص على كرامة الطير والحيوان؟ هل يكلفها تكليف الإنسان أو يحاسبها حساب الصالحين والخاطئين؟

لو كانت الطيور كلها على تلك الصفة التي وصفها تلميذ القديس لوجبت عليها التكاليف وحق عليها الحساب ولحقت بها كرامة بنى آدم ، ولحقت هى بتلك الكرامة ..

فهل كل الطيور كذلك الطير؟

وما لنا وللطير تسأل عنها وعن تكاليفها وكراماتها؟ هل كل بنى آدم مكلفوون؟ وهل كلهم على تكاليفهم أمناء مخلصون؟

من الكرامة للطير والحيوان أن تلتزم تكاليف الإنسان ، ولكنها مظلومة حين تؤخذ بواجب الإنسان ولا تستمتع بحق الإنسان ، فمن نهض بتكليف الراشدين فعلية فرائضهم وله حقوقهم وعندئه مقدراتهم ، ومن لم يكن كذلك فهو مظلوم حين يشقى بما عليه ولا ينعم بما له في حوزة يديه ولا ندري ماذا تؤثر الطيور والعمجاوات لنفسها إذا استشارها المشيرون في أمرها؟

أن عقلت كانت كبني آدم ، وإن لم تعقل كانت كما هي في جهلها وعجزتها  
وعجزها عن التكاليف والحقوق ، وتلك هي الحيرة في أمر هذه الخلائق التي لا  
يفهمها كل الناس كما فهمها ذلك الفيلسوف وكما فهمت هي ذلك القديس .

والمخرج من هذه الحيرة على ما نرى أن نتأني ونترى بين أمسنا ويومنا ، فلا  
نعطي جديداً قبل أن نعرف حساب القديم ، ولا نطلب من خزائن القدر تكليفاً  
للطير والعجماءات قبل أن تؤدي للقدر حساب التكاليف التي وزعت في الآف  
السنين على بني الإنسان !

ماذا صنع الأدميون في أمانتهم ؟

صه .. ولا حاجة هنا إلى معجزة القديسين . ليسكت من يأبى السكوت عن  
السؤال والجواب ، فلو أتنا راجعنا حساب الأمانة الإنسانية لكان الخوف الأكبر أن  
تسقط عن الإنسان تكاليفه وتسلبه حقوقه وسلطاته على المخلوقات ، ولم تكن  
الحيرة الكبرى أن شرك الطير والحيوان في أمانة ذلك الإنسان .

والله يصلح من شأن فيثاغوراس وفرنسيس ، مَاذَا صنعوا بعظام « العقلاء » حتى  
يتسع الرجاء لهما بعدها في عظام من لا يعقلون ؟

## الْجُمْعَةُ السَّعِيدَةُ

نعم ، وقد سمعت التلليل على ذلك من أفواه العامة قبل أن أفرأه في كتب الأدب أو كتب البلاغة ، وأحسب المثل الذي يسوقه العامة للدلالة على السعد الذي يجعله فقط مثلاً نادراً يطلبه البلاء فلا يظفرون بما هو أبلغ منه في هذه الدلالة .

قالوا إن ملوكاً من ملوك الزمن القديم - أولئك الملوك الذين يجزون على الكلمة بخزانة المال أو بقطع الرقاب - رأى مناماً ألققه فأرسل في طلب المنجمين يعرضه عليهم ويطلب منهم تفسيره ، فإذا بأحدهم يفسره للملك تفسيراً يرسله إلى السجان وقيل إلى السيف ، وإذا بالآخر يفسره له تفسيراً يغدق عليه بالأموال والهدايا ويوقف عليه وظيفة التنجيم وتأويل الأحلام مدى الحياة .

والتفسيران معنى واحد لا يختلف بينهما غير «اللفظ» أو النطق ، وهو سعد عند إنسان ، ونحس عند إنسان ، حتى في زمرة المنجمين الذين يعملون في صناعة السعد والنحوس .

قال أحد المنجمين وقد وجح واضطرب وخارت عيناه وارتجفت شفتيه : يلهك الله الصبر أيها الملك العظيم !

قال الملك : ماذا؟ هل من شر تراه في النام؟

قال المنجم : شر عظيم يا مولاى يوت أهلك وصاحبك جميعاً . وغوت أنت في أثركم ، ولا مرد لقضاء الله .

وقال المنجم الآخر وقد تهلل وجهه ولعنت عيناه وافتربت شفتيه : يشرى يا مولاى الملك المعظم !

قال الملك : ماذا؟ هل من خير تراه في النام؟

قال المنجم : كل الخير يا مولاى إنك أطول أهلك وصاحبك عمراً ، والله يطيل بقامك وبقاء ذويك الأعزاء .

ماذا قال المنجم الأول ، وماذا قال المنجم الثاني؟

إنهم قالا شيئاً واحداً بعباراتين مختلفتين ، فكانت عبارة الأولى شوماً يستحق عليه التقدمة والحرمان : وكانت عبارة الثانية بشارة يستحق عليها الرضى والتواب . وللهفظ سعد كما قيل ، والسعـد والنحس قدران مقدوران .

ولم تكن المناسبة التالية مناماً يفسره المترجمون ، ولكنها كانت توديعاً لشهر رمضان يختلف فيه اللهفظ اختلاف النقيضين ، وهو ما شئ واحد حين نتظر من ورائهم إلى اللباب .

يودع المصلون شهر رمضان في لياليه الأخيرة بترتيل حزين يبكي بعض العيون ، ولا سيما عيون الأطفال من ذوى الحس المرهف والخيال السريع .

ويهتف الهاتقون بعد كل ترتيل : لا أوحش الله منك يا شهر الحسناـت ، لا أوحش الله منك يا شهر الخيرـات لا أوحش الله منك يا شهر الرضوان ..؟

ولا أعلم في العواصم الكبرى كيف يستمع الصغار إلى الترتيل الحزين ، ولكنني رأيت في الريف كثيراً منهم يبكون حتى يستمعون إليه ، وفي مناسبة من هذه المناسبات سمعت دليلاً آخر على سعد اللهفظ ونحسه ، أو على اختلاف التعبير حسب اختلاف الضمير .

كان قريب لنا يصاحب طفله الصغير والطفل دامع العينين ، فرأيناهم في جمع من الأقارب والأصحاب وقال أحدنا ملاطفاً للطفل الصغير : ماذا يبكيك يا عماد؟

قال أبوه مبتسمـاً : إنه يبكي حزناً على رمضان!

قال صاحبنا ملاطفـاً مواسـياً : يا شيخ .. رمضان فراقـه عـيد .. فـما الذـى يبـكيك يا فتـى؟

قال أحد السامعين : بل قـل خـاتـامـه عـيد .. ولا تـقل فـراقـه عـيد فـذلك أـكرم للـصـيف الـراـحل ، وكـلامـه بـعد سـوءـ.

نعم .. إنـذـى يـقال فـيه إنـ فـراقـه عـيد ، كـالـذـى يـقال فـيه إنـ خـاتـامـه عـيد ، ولكنـ العـبارـتـين عـلى اـتفـاقـهـما فـي النـتيـجة تـعبـيرـان عنـ شـعـورـين مـتـناـقضـين : أحـدـهـما يـضـيقـ فـرعاـ بـرمـضـان ، وـالـآـخـر يـشـكرـه ويـفـرـحـ به وـيـختـامـه كـما يـفـرـحـ الإـنـسـان بـتـعـامـ الـخـيرـ إلىـ غـاـيـتـهـ وـمـنـتـهـاهـ . فـراقـه عـيد فـهوـ وـالـعـيد لـاـ يـجـتمعـانـ .

ختـامـه عـيد فـهـوـ الـطـريقـ إـلـىـ الـعـيدـ ، وـلـاـ وـصـولـ إـلـىـ الـعـيدـ مـنـ غـيـرـ هـذـاـ الطـريقـ .

واللُّفْظ سُدَّ كَمَا قِيلَ ، أَوْ هُوَ مِنَ الْأَسْرَارِ ، يَسْتَطِعُ مِنْ شَاءَ أَنْ يَسْوِقَ بِهِ السُّدَّ  
أَوْ يَسْوِقَ بِهِ التَّحْسُّن ، وَهُوَ السَّعِيدُ بِمَا يَقْتَدِرُ عَلَيْهِ .

وَهُذِهِ الْجَمَعَةُ الَّتِي نَصْبَعُ صِبَاحَهَا لِيَوْمٍ ، مَا بِالْهُمْ يَسْمُونُهَا الْجَمَعَةُ الْيَتِيمَةُ وَلَا  
يَسْمُونُهَا الْجَمَعَةُ السَّعِيدَةُ ، أَوْ الْجَمَعَةُ الْمَبَارَكَةُ ، أَوْ جَمَعَةُ الْفَالِ وَالْبَشَارَةِ ؟  
إِنَّهَا يَتِيمَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا قَبْلَهَا لَأَنَّهَا تَلْحُقُ بِالْجَمْعِ وَلَا تَلْحُقُ بِهَا جَمَعَةٌ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ .

وَلَكِنْ مَا بِالْهُمْ لَا يَنْتَظِرُونَ إِلَى مَا بَعْدِهَا ، وَلَا يَتَطَلَّعُونَ إِلَى الْعِيدِ مِنْ وَرَائِهَا ؟  
إِنَّ النَّظَرَ إِلَى مَا قَبْلَهَا يَخْرُجُ بِهَا جَمَعَةٌ يَتِيمَةٌ ، وَإِنَّ النَّظَرَ إِلَى مَا بَعْدِهَا يَخْرُجُ بِهَا  
جَمَعَةٌ سَعِيدَةٌ ، فَلَيْسَ بِعِدَّهَا غَيْرُ الْعِيدِ . . .

وَهَكُذا تَخْتَلِفُ النَّظَرَةُ كَمَا يَخْتَلِفُ الْلُّفْظُ ، فَيَخْتَلِفُ الْاِسْمُ بَيْنَ الْيَتِيمِ وَالسَّعِيدِ ،  
وَهُمَا بَعِيدُ مِنْ بَعِيدٍ .

أَحَسِبَ أَنَّ هَذِهِ التَّسْمِيَّةِ مَصْرِيَّةٌ بَدَأَتْ فِي بَلَادِنَا وَسَرَّتْ إِلَيْنَا مِنْ جَمَعَةِ الْآلَامِ  
الَّتِي يَخْتَلِفُ بِهَا إِخْوَانُنَا الْمُسْبِحِيُّونَ ، فَأَصَبَّحَتِ الْجَمَعَةُ الْيَتِيمَةُ مَرَادِفَةً لِجَمَعَةِ الْآلَامِ  
مِنْ حِيثُ لَا مُشَابِهَةٌ وَلَا مُقَارَبةٌ ، وَإِنَّا تَتَفَقَّ جَمَعَةُ الْآلَامِ فِي خَتْمِ الصِّيَامِ وَتَتَفَقَّ  
الْجَمَعَةُ الْيَتِيمَةُ كُلُّكُّ فِي خَتْمِ الصِّيَامِ ، وَتَضَسُّ التَّسْمِيَّةُ مَعَ الزَّمْنِ عَفْوَ الْمُسَانِ ،  
بِغَيْرِ التَّفَاتٍ إِلَى مَعْنَى الْجَمِيعَيْنِ ، وَلَيْسَ بَيْنَهُمَا مُشَابِهَةٌ وَلَا مُقَارَبةٌ فِي الْغَرْضِ  
الْمَقْصُودِ بِالْأَحْيَاءِ وَالْاحْتِفَالِ .

فِي جَمَعَةِ الْآلَامِ تَحْسِي ذَكْرِي الْآلَامِ الَّتِي لَقِيَهَا الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَيْسَ فِي  
شَهْرِ رَمَضَانَ ذَكْرِي كُلُّكُّ ذَكْرٍ ، بَلْ هُوَ شَهْرُ التَّنَمَّامِ فِي الإِسْلَامِ ، أَوْ هُوَ الشَّهْرُ  
الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ .  
فِرَاقُهُ عِيدٌ ، أَوْ خَتْمَاهُ عِيدٌ .

وَهُوَ جَمَعَةُ يَتِيمَةٍ ، أَوْ هُوَ جَمَعَةُ سَعِيدَةٍ .  
قُلْ إِنْ شَتَّ هَذَا ، وَقُلْ إِنْ شَتَّ ذَاكَ ، وَلَكِنَّهُمَا غَرَصَانِ مُخْتَلِفَانِ ، يَذْهَبُ بِهِمَا  
الْلُّفْظُ وَالتَّعْبِيرُ مِنْ طَرِفِ إِلَى طَرِفٍ ، وَمِنْ تَقْدِيرٍ إِلَى تَقْدِيرٍ .  
مِنْذَ سَمِعْنَا الْمَوْعِظَةَ الْأَوَّلَى مِنْ مَوَاعِظِ رَمَضَانَ قِيلَ لَنَا عَنْ حِكْمَةِ الصِّيَامِ إِنَّهُ  
يَعْلَمُ الْأَغْنِيَاءِ كَيْفَ يَعْطِفُونَ عَلَى الْفَقَرَاءِ حِينَ يَجْرِيُونَ الْجَمْعَ وَالْحِرْمَانَ .  
وَمِنْذَ سَمِعْنَا كُلُّ الْمَوْعِظَةِ سَمِعْنَا مَعَهَا سُؤَالًا يَتَكَرَّرُ عَلَى نَحْوِ وَاحِدٍ ، فَقَدْ قَالَ

أحد التلاميذ : ولماذا يصوم الفقراء إذن وهم يجربون الجوع والحرمان في رمضان وفي غير رمضان؟ وما قاله ذلك التلميذ في درسنا الأول يقال ويعاد في جميع الدروس . أرى أن وعاظ رمضان خلقوا أن يتربّقوا هذا السؤال فلا يحصروا حكمة الصيام في تلك الحكمة ، لأنها في الواقع لن تكون حكمة الصيام كلها ، ولن تكون إلا سبباً من أسباب .

إن الحكمة الكبرى في الصيام هي القدرة على النفس ، فهي الحكمة التي يحتاج إليها الغني والفقير ، ويستفيد منها المحدود والمحروم .

فالقدرة على النفس هي كل شيء في مقاييس الأخلاق والفضائل ، بل هي مناط الأخلاق والفضائل جمِيعاً في كل حالة وكل معيشة ، أيًّا كان حظها من الغنى والفقير ، ومن السعادة والشقاء .

وليس في وسعنا أن نتخيل فضيلة تخلو من قدرة الإنسان على نفسه ، بل ليس في وسعنا أن نتخيل تكليفاً يقوم به الإنسان من غير تطبيق نفسه ، ولا فرق في التكليف بين فرائض الدين وفرائض الدنيا ، أو بين العبادات ونظام الاجتماع ونظام الحياة الفردية الذي يفرضه الإنسان على نفسه لأداء عمل من الأعمال .

هذه القدرة على النفس هي حكمة الصيام الكبرى ، وهي جزء واف لصوم الصائم ، يساوى بل يزيد على ما فاته من حظر الطعام والشراب .

لمن شاء إذن أن يقول عن شهر رمضان «إن فرآنه عيد» ولمن شاء أن يقول «بل ختامه عيد» ..

واختلاف الحكم هو الحكم الفاصل بين اللفظين .

من كان يحسب الصيام عذاباً يعلم صاحبه كيف يرشى للمعذبين ، وحرماناً يهديه إلى الرأفة بالمحروميين ، فله أن يقول إن فراق العذاب عيد وإن الخلاص من الحرمان حظ سعيد .

ومن كان يحسب الصيام رياضة تدلّه على قدرته وترضيه عن عزيمته ، فله أن يقول إنه ينتهي من تلك الرياضة إلى الفيطة بنفسه والطمأنينة إلى ضميره ، وإنه قد بلغ بها ختامها في عامها فهو سعيد بذلك الختام .

كل ذلك تكون الجمعة يتيمة أو سعيدة على حسب اللفظ واللافظ ، وعلى حسب الحكم والموعظ ، حكمة الصيام وموعظة رمضان ، بين الرياضة والحرمان . فلتكن سعيدة بما قبلها وما بعدها ، إن شاء الله .

الفصل الثالث  
الأحكام الدينية  
وذكر منها المذاهب

## عيد سعيد

- كل عام وأنتم بخير .

- وأنتم بالصحة والسلامة .

في تجية العيد وجوابها قد جمعت بديهية الجماهير كل ما تتحقق به السعادة العامة بين الجماهير .. فمن كان في خير ، وفي صحة ، وفي سلام ، فهو في عيد سعيد .  
قد توجد السلامة ولا صحة ، فلا سعادة .  
وقد توجد الصحة ولا سلام ، فلا سعادة .  
وقد توجد الصحة والسلام معاً ولا خير ، فلا سعادة .

ولما السعادة في اجتماعها كلها معاً وعلى رأسها الخير حسبما يفهمه كل طالب من طلابه ، فما هو خير لهذا الإنسان قد يمتنع به خير إنسان آخر ، ولكنه مع ذلك مطلوب لبعض الناس .

لكن ما هي السعادة؟

هنا يهبط الصواب على بديهية الجماهير بجمل الكلام لأن البدائية تجمع ولا تفرق ، والسؤال عن كنه الأمور يستطرد بالسائل إلى التفريق والتحليل والتمييز ، وليس هذا من عمل البداءة ولا من عمل الجماهير .

هل السعادة شيء «سلبي» يتتحقق بامتناع الشقاء وانقطاع المكاره والأدواء؟

هل السعادة شيء «إيجابي» يتتحقق بتحصيل هذا المطلب وترويض هذه المعقبة والإفضاء إلى هذه الغاية؟

هل السعادة هي التوازن بين قوى النفس الداخلية ثم التوازن بين هذه القوى وبين قوى العالم الخارجية حتى لا يتغير في واحدة منها طغيان ، ولا يرتفع في أمرانها وأصدقائهما نشاز؟

هل السعادة على تقدير ذلك اضطراب بين قوى النفس وأندفاع في واحدة منها

حتى تستغرق سائرها وتطويها في ذيولها كما ينطوى الجنون في حماسة الجنون ، والدراوיש في حماسة «الدروشة» ، والمفتتون في حماسة الفتنة ، والمقرمون في حماسة الغرام؟

في كل أولئك سعادة من السعادات ... أما الـ «سعادة» بالآلاف واللام فليست في شيء مفرد من هذه الأشياء ، ولعلها من أجل ذلك لا تكون ، لأنها عامة غير متفرقة في هذه النعمة ولا في تلك .. وليس للإنسان كمال .

سئل بعض الكتاب الإنجليز في الأيام الأخيرة هذا السؤال :

ـ ما هي السعادة؟

فأجابوا مختلفين ... واستشهد كل كاتب بحكمة من الحكم المأثور ، وهذه أمثلة من الإجابات كما يتسع لها التلخيص في هذا المجال :

استشهد بريستلي يقول أرسطو : «إن أحداً لا يدح السعادة كما يدح العدل مثلاً أرفع وأقدس من هذه الأشياء التي تدحها» .

ثم قال الكاتب ما فحواه : إن السعادة شيء بين الرضى والنشوة أو ما يسميه المتصوفون حالة الوجود والتجلی .

فالرضى هو بلوغ الارب واستيفاء مطالب الطبيعة ، وشعور «الوجود» أو التجلى هو شعور النفس فجأة بالامتداد والتدفق ، وهو نادر لأن النفس قليلاً ما تنتد هذا الامتداد الفجائي الشبيه بالوصول عند الصوفيين .

فهناك حالة الرضى وهي حالة الامتلاء في حدود النفس ...

وهناك حالة النشوة وهي حالة الامتداد وراء تلك الحدود ...

والسعادة هي شعور متراوح بين الشعورين ، وانتقال يرجح بين الحدين ، والسعيد على هذا النحو ينظر إلى الزهرة الجميلة فيراها زهرة جميلة ، ولكنه يرى لها فوق ذلك معنى آخر ، هو معنى الرمز والإشارة إلى ما وراءها من عالم الجمال والكمال . واستشهد «مارش أرمسترينج» يقول توماس بورتنج : «إن السكينة خير من الطرف» .

ثم قال : إن الناس يخلطون بين العادة والمسرة أو اللذة ، وهما مختلفان ، والحقيقة

أن الناس يطلبون اللذة أو المسرة حين يفقدون السعادة ، وإن السعادة هي الطمأنينة ، أما اللذة والمسرة فهما وليدتان للقلق والاضطراب .

وعند الكاتب أن المسرات هي هرب من النفس وشجونها ، وأن السعادة هي استيفاء النفس ، فهما نقىضان ، أو كالنقيضين .

وخلالص رأيه أن السعادة «نعمة داخلية» لا ينعم بها الإنسان ما لم يتهدأ لها من جانب السريرة لا من جانب الحياة الخارجية ، وإن كان شرطاً من شروطها الا يقع التناقض بينها وبين طوارئ الدنيا وأحوالها .

واستشهد برسالت تولstoi : «إن سعادة الإنسان في حياته ونام حياته في العمل» .

ثم قال : إن هناك شعوراً بأن السعادة استقرار وبلادة ، وإن الكاتب الفرنسي فلوبير قد حيا السعادة تخيبة باليد المسرى حين زار أسرة من المستورين ورأى ما هم فيه من غبطة وقناعة .. فوصفهم بأنهم «سعداء» .

وقال : إن الذين يكتبون قصص الحياة يهملون السعادة لأنها على جلالة شأنها لم تكن في جميع الأحوال تلك القوة المسيطرة والشهوة الغالبة على أعمال الناس ، وإن كثيراً من النابهين بلغوا المظنة لأنهم فقدوا السعادة وإن من الكتاب العبريين من لا يكتب إلا وهو في أزمة فشل وحرمان .

ثم قال : إنهم يزعمون أننا نتحدث اليوم عن السعادة كثيراً لأننا أشقياء ، وإننا أشقياء لأننا قد ضيعنا الإيمان والعقيدة بالخير ، فليذكروا أن العقائد السيئة قد تقنع أصحابها وترضيهم وتحفظهم كما يجدون الحافز والرضا والقناعة في العقيدة الحسنة ، وإنما السعادة حق السعادة هي استيفاء الحياة وخلوها من التناقض بينها وبين ضرورات البيئة والوجود .

واستشهد برتراند رسل يقول سلفي سميث : «إذا كان من حظى أن أزحف فإني زاحف وقائم ، وإذا كان من حظى أن أطير فإني لطائر ومسرور ، ولكن لن أكون شيئاً ما استطعت أن أجتلب هذا وذاك» .

ثم قال : إن السعادة تعتمد على توفيق بين أسباب داخلية وأسباب خارجية ، وإن القديسين والمجانين والعباقرة لا يقاس عليهم في هذا الأمر لأنهم قد يشعرون بالسعادة والعالم من حولهم موجب للشقاء .

أما سواد الناس فسعادةتهم ميسورة لهم ببعض التدبير فيما يتعلق بالغذاء والملوى  
وسلامة البنية .

إلا أن السعادة التي لها غور ولها ثبات ودوم لا بد لها من حياة قائمة حول  
غرض مرسوم يدعو إلى المثابرة ويتقدم في طريق النجاح .

نعم .. إن بعض الناس يشبهون القطط التي يقنعها النوم في الشمس فإذا هي  
سعيدة ، ولكنهم قليلون أو حكمهم في الحياة حكم الشلوذ ، أما الغالب على  
العالم فهو امتناع السعادة «السلبية» كلما تما العقل واتسع أفق التفكير .

وعند الفيلسوف الكبير أن أحق الناس بالسعادة في عصرنا الحاضر هم رجال  
العلوم ، لأن عملهم شاق وشاق ، ولكنه غير مفروط في المنشقة ، لأنهم يشعرون  
بجلالة شأنه ويوافقهم العالم على هذا الشعور ، لأنهم على الرغم من تسخير  
مخترعاتهم في الحروب مؤمنون بأن العاقبة من هذه المخترعات للنفع والصلاح على  
مدى الزمان .

واستشهد السير هيوج والبول يقول صامويل جونسون : «إن السعادة لا شيء إذا  
هي لم تعرف ، وهي شيء صغير جداً إذا هي لم تمسد» .

ثم قال : إن من يبغى السعادة لا غنى له من العمل ، وأن يكون عمله فيما  
يحب ويختار . وهو يقرن الصحة الجسدية بالعمل ، ولكنه يعود فيقول : إنه ليس في  
هذا على يقين ، لأن كثيراً من أسعد من عرف بين الناس كانوا ذوي أدواة وذوي  
عاهات !

واستشهد جون هيلتون يقول جون ميلتون : «إن العقل مكانه العقل ، وفي وسعه  
ثمة أن يخلق نعيمًا من الجحيم وجحيمًا من النعيم» .

ثم قال : إن السعادة هي زوال الألم الذي نشعر به حتى يزول .  
وعرض لأداء بعض الحكماء في أسباب السعادة فعقب عليها بردود قصيرة ، قائلاً :  
«يقولون : أحسب خبراتك ، وتقول : صحيحاً ولكنها قلما تصيف شيئاً ..  
ويقولون : عش عيشة الحق والقداسة والاعتدال ، وتقول : صحيحاً ولكن أناساً  
عن عاشوا هذه العيشة قد ماتوا بقلب كسير .

ويقولون : اختبر نفسك وكن كما أنت ، وتقول : صحيح ولكن البحث عن النفس قد يطول ويصعب ، ولست من التية على ضمان ، فكثير من الباحثين عن أنفسهم قد خسروا في نهاية الطريق .

ويقولون : اعتقاد هذا ورد هذا وأعمل هذا ، وتقول : صحيح ولكن نعرف من يعزون لمحاجهم إلى أمثال هذه الوصايا فنعرف أنها تعوينة يعالجون بها السأم والخيبة ، وليسوا هم من مجاهدهم الراهن على قرار وطيد .

ثم يقولون كما قال جيمس فيرير ،  
«عيشك ألا ما تركنا تفكيرك وشأنه» .

وربما كان في هذا القول بعض الصواب ، فلا تفكرا أبداً في ذكرك وأمض على سُنْتِك ولا تتعمق السعادة فهي لا تدرك بالتعقب ، وإذا لم يكن لك مناص من تعقب شيء ، فاقف أثر الحياة المستوعبة الواقية ، ودع السعادة والشقاء يجيئان حيث يجيئان .. فإن صادفت الشقاء فاطرده ، وإن صادفت السعادة فاحمد الله

واستشهد هايلوكليس بقول الشاعر الأمريكي والت ويتمان : «هناك عندي .. لا أخرى إذ ليس له اسم وإنما هو كلمة لم يقلها قاتل .. إنها ليست في معجم من المعاجم ولا في منطق من المناطق ولا في مثل من الأمثال .. إنها شيء يحوم ولا كالأرض التي أحوم عليها .. وجميع الخليقة لديها صديق رؤوم يحييئن ويوقظن مسامه .. وما هي بفوضى ولا بفناء ، ولكنها نظام ووحدة واسقى وحياة باقية ، وسعادة» .

ثم ذكر أن لوقيطس قد تحدث عن سعادة الناجين على الشاطئ إذ يتصرون الغرقى يغوصون في الأغماد ، فقال : إن الذين يسمعون بأهوال المصيبة وبلاء الأشقياء وهم ناجون من بلاهم ليسوا بأقوم من سعادة لوقيطس ولا يأرجع في موازين الإنسان .

وخلصة رأيه أن جيتس شاعر ألمانيا الكبير قال بعد حياة طويلة قضتها في العمل والفكر والمعنة ، إنه ربما ظفر في حياته كلها بسعادة أسبوعين وهو على هذا النحو يقول : إنه رعا رجع إلى ماضي حياته فبداته منها ما يلوح كأنه سعادة صافية .. ولكنه على يقين أنه لو تريث يوماً قليلاً ليتحقق تلك السعادة لألفها تنوب وتضليل من بين يديه .

«ولننا نستمسك بتعريف السعادة ، ولكن اللحظات التي تقاربها فيها - على أقرب المسافات منها - هي اللحظات التي لا نفى فيها بتعريفها» .

هذه زيادة الأقوال التي جمعت زيادة التجارب في حياة أنس هم زيادة الكتاب .  
فهل زادتك تعريفاً بالسعادة؟ وهل زادتك تحصيلاً لها واقرابةً منها؟ وهل زادتك زهادة فيها واستغفاء عنها؟

أما أنا فالذى أعلم عن السعادة بعد ما اختبرت وقرأت أنها سعادات فى شئون الحياة المألوفة وليس بسعادة واحدة ، فهو أصناف وليس بصنف واحد ، وهناك السعادة التفيسة غير الرخيصة التي أنت فى حاجة إليها ، كما تدخل التجرب الكبير فلا تغريك التفيسة عن الرخيصة التي أنت فى حاجة إليها ، كما تدخل التجرب الكبير فلا تغريك أنفس السلح فيه عن سقط المتع إذا كنت أنت فى حاجة يومذاك إلى سقط المتع .

ولا تثال السعادة غالبية كانت أو رخيصة بالتقسيط! بل لا بد أن تثال جملة واحدة .

فالذى يشرب بحراً من الأكدار لا يقول أنه شرب قدحاً واحداً من الماء الصافى ، وإن كان فى ذلك البحر من الأكدار أقداح وأقداح صافيات .  
وكذلك الذى يأخذ السعادة مخلوطة بأوشاب الشقاء لا يسمى سعيداً ولا جزءاً من سعيد لأن السعادة شراب لا يقبل المزيج .

هذا عن السعادات فى شئون الحياة المألوفة ، أما الـ «سعادة» بالألف واللام فهو أقصى ما يناله الإنسان .

والسعادة الكبرى فوق مطالب العيش وقوانين الدنيا وشئون الحياة فهى نسمة يوّبها كما قال برتراند رسل واحد من ثلاثة : قديس ، أو عبقرى ، أو مجتون ، ولا يوّبها إلا فى قليل من اللمحات .  
وبعد : فحسينا من السعادة فى هذا اليوم عيد سعيد .

## عِيدُ الْفِطْرِ (١)

من حكمة الأديان أن الأعياد الدينية الكبرى تأتى بعد فترة يمتحن فيها الإنسان فى فضائلين من لازم الفضائل له فى حياته الخاصة وحياته العامة ، وهما التضحية وضبط النفس ، ولعلهما ترجعان فى مصدرهما إلى أصل واحد ، وهو حرية الإرادة أو حرية الاختيار .

فالأعياد كما تريدها هي مواسم أفراح ، وما من شيء يتحقق للإنسان أن يغتبط به وينطوى من أجله على الفرح ، كما يغتبط بارتفاعه عن المرتبة الآلية وارتفاعه عن الغريزة الحيوانية وبلوغه مرتبة الكراهة التي لا تكون لغير الإنسان ، وهي كرامة الحرية والقدرة على مقاومة الطبيعة وتغلب العقيدة على شعور الأنفس ، فهناك يتحقق له أن يفرح فرح الإنسان لأن وجد نفسه الحرة المريدة ، وهي أعز موجود ومفقود .

والعيدان الكبيران في الإسلام هما: عيد الأضحى ، وعيد الفطر ، وأكبرهما هو . الذي يأتي بعد مشقة الحج والتقرب إلى الله بالقربان المفروض ، وثانيهما هو الذي يأتي بعد شهر الصيام ويحتفل به الصائم وقد راض نفسه على مغالبة الجوع والظماء ومخالفة العادات التي جرى عليها في سائر الشهور . وكلاهما رمز واضح إلى فضيلة التضحية وفضيلة ضبط النفس ، أو إلى الفضيلة الإنسانية الجامحة لكل الفضائل ، وهي حرية الاختيار والقدرة على مغالبة الغرائز والأهواء والعادات .

وقد يسأل القائلون: إن الصيام ضرب من إنكار الذات ، ونعتقد أنهم اخطلوا فيما قالوه ، لأن الصيام أقوى الوسائل لتقرير الذات لا لإنكارها ، ومن وجد إرادته لا يقال عنه يعنى من المعانى الصحيحة أنه انكر ذاته وفقد نفسه ، وإنما يقال عنه أنه أثبت ذاته وقرر لها وجودها على أحسن الصور ، وتلك هي الصورة الإنسانية الحرة التي عمل زمام ضميرها وغريزتها ، وتستطيع أن تصير على الشدة التي تريدها لأنها تستطيع أن تزيد .

---

(1) الهلال يولية ١٩٥١ .

إن استرسال المرء مع الغرائز الحيوانية والشهوات العمياء هو الضياع الذي يزري بصاحبه ، لأنه يجري به مجرى الآلة المندفع إلى حيث تدفع ، أو لأنه على أحسن ما يكون يجري مجرى الحيوان الذي لا يعرف له ضميرًا يغالب الغريزة والشهوة ، ولكن الفضيلة الإنسانية تولد وتتولد وتثبت وتتقرر حين توجد القدرة على الامتناع وتوجد المشيئه التي توازن بين ما تمحجم عنه وتسرسل فيه ، والصيام رمز محسوس لهذه القدرة على سلطان الطعام والشراب وسلطان العادة المألوفة ، وهما طريقان إلى القدرة على غيرهما ، لأن غيرهما شبيه بهما في مكافحة الغريزة أو مكافحة العادة ، وقلما احتاج الإنسان إلى ضبط النفس وتغليب الإرادة إلا ليخضع غريزة من الغرائز ويخرج على عادة من العادات .

إن العيد بعد الصيام عيد له معناه ، ولم يكن مجرد تقليد من التقاليد التي تتكرر بغير معنى ، وربما كنا في عصرنا الحديث كأحوج ما يكون الإنسان إلى الفرح بهذا المعنى الخالد ، فإنه عصر قد كثُر فيه الانطلاق واستباحة الممنوعات حتى أوشك ضبط النفس أن يحسب من الرذائل الملعونة ، وحتى خيل إلى بعضهم إن مقاييس «العصيرية» هو مقاييس التحلل من المظاهرات والاجتراء على المنشكرات ، وقد كانت لهذه الشورة الجامحة أعذارها يوم كان الحجر على الناس استبداداً مطبقاً من فوقهم وظلمآ لهم بغير حكمة مفهومة ، أو يوم كان الإنسان يمتنع بحكم غيره ويتحلل بحكم غيره ، أمّا أن ينطلق انطلاقه الجامح لأنّه لا يستطيع الامتناع ولا يقدر عليه فلن يكون فضيلة عصرية ولا فضيلة رجعية ، بل هو على حقيقته عجز ونكسة وانقلاب بالمثل الأعلى للإنسانية إلى عصور الهمجية ومن قبلها عصور الوحشية ، وما كانت الإباحة المطلقة بحاجة قط إلى تقدم وارتقاء ، وما كان التمرد المطلق عسيراً قط على الجحاد فضلاً عن الحيوان وفضلاً عن الإنسان ، فإن الفوضى لا عسر فيها على أحد كائناً ما كان ، وإنما العسيرة هي أن تلك زمامنا وتحتفظ بزرادتنا ، ونقرر للوجود الإنساني صفة تعلو على الآلة وصفة الحيوان .

\*\*\*

سعيد من يتلقى التهنة بعيد الفطر لأنّه يتلقى التهنة بضبط نفسه وتغليب إرادته ، وأسعد ما يكون العالم الإنساني كلّه إذا نجا بهذه الفضيلة العليا من الشقاء

الذى جره إلية نقيفها : وهو العجز عن ضبط النفس والضلال عن معنى الحرية الصحيحة ، وإنها ليمكن أن تعنى كل شئ إلا الفوضى والتمرد والانطلاق بغير وازع من الإرادة ولا حسيب من الضمير .

ونحسب أن الالتفات إلى معنى الإرادة والتفضحية وضبط النفس له أكثر من جانب واحد في هذه المناسبة المحبوبة حيثما تتجه إلى العالم الإسلامي بالتهنئة والتبريك ، فليس للعالم الإسلامي مهمة في مستقبله أهم من استكمال إرادته واستخدامها في وجهها ، وليس هنالك من ليس عليه بين أفضل الطريقين وأقوم الخططين ، فإنما هي خطة واحدة لا ضلال عنها بين مثاث الخطط وألوافها ، إن كانت هناك مثاث من الخطط أو ألواف ، فحيث تكون التفضحية ومكافحة الشهوات والأهواء فهناك النجاة .

وفي وسعنا أن نقول أن نصيب العالم الإسلامي من الحرية يزداد ويتسع ، وإن حاجته إلى صدق الإرادة تزداد بهذه الزيادة ويتسع مع هذا الاتساع .

في وسعنا أن نقول هذا وفي وسعنا أن نتفاعل به ونتطلع إلى ما هو خير منه وأقرب إلى الرجاء ، بل علينا أن نتفاعل ونتطلع على الدوام إلى غد خير من اليوم وخير من أمس ، وأن نثق من أيام المستقبل على طوال أيامه وأعوامه ، ما دمنا على ثقة من القدرة على ضبط النفس ومضاء الإرادة واحتمال القداء .

قيل : ليس العيد من ليس الجديـد ، ونقول : بل العيد من ليس الجديـد إذا كان الجديـد حلـة من الحرية لا يلبـسها المستضعفـون ولا يلبـسها العـيـد ، ومـهما تـساورـنا الشـكـوكـ في حـريـتنا فلا شـكـ في رـجـحانـ نـصـيبـ الـيـومـ عـلـىـ نـصـيبـ الأـمـسـ ، ولاـ فـي صـلاحـ هـذـهـ الـحـرـيـةـ لـتـقـدـمـ بـنـاـ غـدـاـ إـلـىـ نـصـيبـ أـوـفـيـ مـنـ النـصـيـبـينـ ، وأـجـدرـ بـالـتـعـوـيلـ عـلـيـهـ وـنـصـ العـزـائـمـ إـلـيـهـ مـنـ حـصـةـ هـذـيـنـ الجـيـلـيـنـ الـمـتـعـاقـبـيـنـ ، ولاـ بـدـ مـنـ صـيـامـ أـصـعبـ مـنـ صـيـامـ رـمـضـانـ ، وـمـنـ قـرـابـيـنـ أـغـلـىـ مـنـ قـرـابـيـنـ عـرـفـاتـ وـيـومـ عـرـفـاتـ ، وـمـنـ جـهـادـ أـشـقـ مـنـ جـهـادـ الـجـوـعـ وـالـظـمـاءـ ، لـأـنـ حـلـةـ الـحـرـيـةـ وـالـكـرـامـةـ أـنـفـسـ مـنـ حـلـ الـحـرـيـرـ وـالـكـتـانـ .

ونحن نتـظرـ إـلـىـ الغـدـ البعـيدـ ، بلـ إـلـىـ الغـدـ القـرـيبـ مـتـفـاـئـلـينـ ، ولاـ يـعـسـرـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـذـكـرـ السـبـبـ إـذـ سـأـلـنـاـ عـنـهـ سـائـلـ مـسـتـرـيـبـ ، فـهـذـهـ أـمـ الشـرـقـ أـقـرـبـ إـلـىـ حـرـيـتهاـ وـكـرـامـتهاـ مـاـ كـانـتـ قـبـلـ عـشـرـ سـنـيـنـ وـقـبـلـ عـشـرـيـنـ سـنـةـ ، وـحـالـتـهاـ الـيـومـ أـدـعـىـ إـلـىـ

التفاول من حالتها قبل سبعين سنة في مطلع القرن الرابع عشر للهجرة المحمدية ، فماذا لا تأخذ من ماضيها القريب سبباً للرجاء في مستقبلها القريب؟ على أن الرجاء غنى عن الأسباب كلما سلمت طبيعة الحياة ، فماذا عند الطفل الوليد من أسباب الرجاء أو أسباب التفاؤل وهو عار ضئيل متضرر إلى الكثير والقليل؟ عنده طبيعة الحياة وحسبه ما عنده . وهندينا ، ولا نغلو في الادعاء ، قبس من هذه الطبيعة مرجو للبقاء ، ويتحقق لنا بهذا الأمل أن تستقبل العيد مهنيين ، وأن نتعنى للعلم الإسلامي ، وللعلم الإنساني كله ، سنة من أسعد السنين .

## العيد الكبير

### عيد الأضاحي والقرابين<sup>(١)</sup>

إلى هذا اليوم تذهب القرية الساذجة إلى عراف القرية تشكو مرضها أو عقدها أو هجران زوجها أو عشرة حظها ، فيقول لها : إنه «عمل ساحر» ، وإنه قادر على إحباط ذلك العمل وتحويله عنها إلى ضحية تفتدي بها نفسها .

وكثيراً ما تكون تلك الضحية دجاجة سوداء فاحمة السوداء ، أو زوجاً من الحمام الأسود لا شيء فيه من بياض أو اختلاف ، وهكذا ينبغي أن يكون لون الضحية السحرية التي يرتضيها الجن ويتقبلها الشيطان

ويقتل العراف تلاوته ويطلق بخوره فينتقل السحر من المرأة الشاكية الباكية إلى الدجاجة السوداء ، وتبرأ المرأة من الداء والشكوى ، بعد اختفاء الدجاجة حيث قدر لها أن تختفي ، وغالباً ما يكون اختفاؤها في مكان واحد ، هو جوف العراف المظلم الشبيه بها في السوداد

قبل آلاف السنين كانت الضحية من قبيل هذه التضحية ، وكان الغرض الأكبر منها دفع السوء عن إنسان من الناس ، على يد ساحر أو كاهن عراف .

وكان هناك نوع آخر من الصحايا التي يدفع بها السوء عن يخافونه ويوجسون شرّاً منه ، وتلك هي الصحايا التي تقدم إلى أرواح الموتى يوم كان الناس يعبدون تلك الأرواح ويبتلعون لها الطعام ، ويحسبون أنها تجتمع وتظمّن وأنها تتسلل بهم إذا رأتهم يأكلون ويشربون وهي تتنظر إليهم ولا سبيل لها إلى الطعام والشراب .

فقد كانوا يومئذ يذبحون لها الذبائح ويتقربون إليها بالقرابين دفعاً للسوء واتقاء للمحسد والنتنة ، وكذلك كانت قرابين الأرواح على مثال قرابين السحر ، وكان العرافون الأقدمون مزدجأً من السحرة والكهان .

(١) الهلال سبتمبر ١٩٥٢ .

ثم ترقى شعور الناس بالشخصية وفهمهم لمعناها مع ارتفاعهم في التسلق واستعدادهم لطبقة أخرى من الاعتقاد الديني أرقى من تلك الطبقة الهمجية .

فأصبحت الشخصية تحمل الخطية عن صاحبها ، وكان مجرد فهم الخطية تقدماً في الفهم والشعور بالعقيدة الدينية ، لأن إدراك معنى الخطية يستدعي إدراك معنى التسامير والمحاسبة على الذنوب ، ومن ثم كان الخلاص من الخطايا أرفع طبقة من دفع السوء الذي يصيب الأبدان ولا يتعداها إلى الفساد ، وكان كذلك أرفع طبقة من دفع السوء لسبب آخر ، وهو أن دفع السوء إنما كان يطلب من الشياطين والأرواح الشريرة ، أما تكفير الخطايا فإنما يطلب من رب الخير والصلاح الذي ينهى عباده عن مقاومة الذنوب .

وارتفع الناس في فهم الشخصية بمقدار ارتفاعهم في فهم العقيدة الدينية ، فجاء الزمن الذي كان فيه أنبياء بني إسرائيل كأشعياء وأرمياء يكتون الشعب لأنه يعلق رجاءه في الخلاص والغفران على الذبائح والقرابين ، ثم ارتفع السيد المسيح بعقيدة الشخصية فوق هذا المرفع ، فقدم الرحمة والشكر على فدية الأنعام والأموال ، وأوصى ببذل النفس في سبيل الهدایة .

أما الشخصية في الإسلام فهي شكر وصدقة وإحسان : « فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ » .. « إِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْرَفَ كَذَلِكَ سَخْرَنَاهَا لَكُمْ لَعْلَكُمْ تَشْكُرُونَ لَنْ يَنْالَ اللَّهُ لَحْوُهُمْ وَلَا دِمَاؤُهُمْ وَلَكِنْ يَنْالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ... ». .

فالشخصية الكبوري هي التقوى ، وإنما هذه الشخصيات وسيلة من وسائل الشكر والإحسان . وليس من عقائد الإسلام أن الشخصية تکفر عن الذنوب ولا أنها ترد القضاء ، ولكنها عطية واجبة تؤدي جانبها من جوانب البر ، وترمز إلى الجانب الأكبر منها وهو شخصية الإنسان بنفسه في سبيل الله ، ولهذا قرنت آيات الشخصيات بأيات القتال دفعاً للظلم وإبقاء للشعراء والحكام « وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِعَضٍ لَهُدَمَتْ صَوَامِعَ وَبَيْعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدٍ يُذَكَّرُ لِيَهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ». .

لقد ارتفعت التضخية من السحر إلى العبادة ، ومن دفع السوء إلى بذلك الإحسان .  
ولاتزال ترتفع مع كل مؤمن بها قادر عليها ، ولا يتجرد من الإيمان بها إنسان له خلاق  
وعليه تعويل في شئون قومه أو شئون نوعه الإنساني في حاضره وعقباه .

\*\*\*

ويبدو لنا أن الأدب الإنسانية تتلخص من هذه الناحية في كلمات ثلاث  
تجمعها كلها ولا تحتاج إلى مزيد عليها من خارجها . وهي كلمات الحق والواجب  
والتضخية .

أقلها الحق وأعظمها التضخية ، وبينهما الواجب وسط معتدل بين طرفين .  
فمن يطلب حقه يطلب شيئاً قصاري ما يقال فيه أنه لا يسلام عليه ، ومن  
يتحمل واجباً فيما يفعل ما هو مطلوب منه محاسب على تركه ، وأما من  
يتبرع بالتضخية فهو الذي يرتفع بعمله فوق الحق والواجب ، ويعلو بنفسه  
فوق مرتبة الجزاء والحساب ، أو العمل الذي يحق له والعمل الذي يجب عليه .  
وكل تضخيه واجبة ، أو تضخيه مفروضة ، فهي في الواقع رمز إلى التضخية  
العلمية التي هي أرفع من الواجبات والفرضيات ، لأنها لا تتطلب ولا تستوجب ، ولا  
يفرضها على الإنسان غير ضميره وشعوره ، إن شاء قام بها وإن لم يشأ لم يعلم أحد  
أنه قصر في فضيلة من الفضائل ، إذ كانت التضخية درجة فوق درجات العمل  
المطلوب أو العمل الذي يشعر به الآخرون .

ونحسب أن «الإنسانية» قد سمعت كثيراً عن حقوقها وواجباتها في هذه  
العصور التي تسمى بالعصور الحديثة أو عصور العلم والحرية .

بل ربما كانت آفة العصر الحديث أو آفة العصر الأحدث ، أنه مشغول بالحقوق  
دون الواجبات والضحايا ، ولهذا تضييع حقوقه وتسلط واجباته ويدركه ضخيلاً لا  
فضل له فيها ، لأنها ضخيلاً المقاطع غير المختار .

\*\*\*

ويكفي أن يقال إن العصر الذي تشغله حقوقه دون غيرها لا حق له في شيء ،  
ولا يصل إلى حق وإن جهد في طلبه ، إذ كان طلب الحقوق وحده دليلاً على ضياع

الحقوق بين الجميع ، وأن الناس قد أسقطوا واجبهم عليهم فأصبح هذا الواجب مطلوبًا منهم ، أو أصبحوا جميعاً طالبين مطلوبين .

قيل قدّيماً : «اطلب الموت توهب لك الحياة» .

وعلى هذا القياس مع بعض الفارق يقال لطلاب الحقوق : «افعلوا الواجب عليكم تحبدوا حقوقكم بغير طلب ، لأن الحقوق لا تضيع حيث تؤدي الواجبات» .

خطوة وراء هذه الخطوة ، أو على الأصح أمام هذه الخطوة ، فيتصبح أن يقال : «خسروا وضحوا فإذا الواجب مضامون وزيادة ، وإذا الحق من باب أولى مضامون وزيادة . . .» .

والعصر الحديث يسمع هذه الوصية فيسخر منها لأنه يدين بشيء واحد : وهو طلب الحقوق ، ولا يفهم بعد كل ما أصابه أن الإجماع على طلب الحقوق هو الإجماع على ضياع الحقوق !

ولستنا بمحمد الله من المؤمنين بالوصايا التي يرکع الموصى بها تحت أقدام المستمعين إليها ، ويتسلل إليهم أن يصدقوها ويقبلوها .

كلا ، لا نؤمن بهذه الوصايا لأنها أضيق الوصايا وأولاًها ألا تسمع ولا تنفع ، وإنما الوصية التي نؤمن بها هي الوصية التي لا يحيد عنها ، ووصية العصر الذي جرب الجنون بالحقوق فضييعها جميعها هي التضحيّة ثم التضحيّة ، فماذا يجري في الدنيا إن لم تسمع هذه الوصية ؟

يجري شيء «بسبيط» لاشك فيه ، فمن لا يضحي باختياره يصبح ضحية للحوادث بغير اختياره ، ولا شكران لضحايا الفرورة ولا ثواب لهم من ضمائركم ولا من التاريخ .

وهنيئاً بعد هذا بالعيد الكبير : عيد الأضحى والقربان ، فلعله بشير يغنى عن التذكرة ، والبشرى كالذكرى تنفع المؤمنين .

## الضحية في مقارنة الأديان<sup>(١)</sup>

كلمة التضحية بمعناها الحديث كلمة إسلامية لم تعرف بهذا المعنى ، معنى الفداء ، قبل نزول القرآن الكريم .

وإنما أخذ معناها الأصيل من «الضحى» موعد تقديم ذبيحة العيد بعد صلاة ، وظن بعض المتعجلين من المستشرقين المشتغلين بعلم المقارنة بين الأديان أنها من أجل ذلك تشير إلى أصل قديم لعبادة الشمس في عصر الجاهلية ، وهو - كما يرى القارئ العارف بالعربية - ظن عاجل من ظنون القصور الواهية ، لأن التضحية كلمة من كلمات كثيرة تفيد معنى الطعام أو تقديم الذبائح في مواعيده من اليوم ، بين السحور والغداء والعشاء . على حسب أسمائها القدية التي شاعت من قبل وتشيع اليوم على كل لسان .

ولكن المقارنة المتشدة بين الأديان تسفر في أمر «التضحية» عن حقيقة مطرودة تنتهي إليها من جميع المقارنات في جميع الشعائر والمعتقدات بين الدين الإسلامي وسائر الأديان الكبرى المعروفة في أم الحضارة .

وتلك الحقيقة المطرودة - كما يعرفها كل منصف من المسلمين وغير المسلمين - هي ارتفاع الإسلام شأوا بعيداً فوق أرفع الأفاق التي بلغتها أطوار الدين مع ارتفاع النوع الإنساني وصلاحه شيئاً فشيئاً فشيناً للتقدم في شتى العبادة وما يقترب بها من شتى المعرفة والأخلاق والتربية الاجتماعية .

فالمتعجلون من المقارنين بين الأديان لم يتسلموا من الخطأ الذي في ما انساقوا إليه - مع الإشاعة - من تقديم البيانات الكتابية على الديانة الإسلامية في معانٍ الإيمان وشعائره لأنها متقدمة عليها بتاريخ الدعوة . ولو استقام بهم الرأي لا دركوا بغير عناد أن اعتبار التطور هنا أولى من اعتبار الأرقام والتقاويم ، لأن الزمن لا يسمح

(١) مثير الإسلام مايو ١٩٦٣ .

ظهور دين وانتشاره بعد دين آخر ما لم تكن فيه فضيلة يجدها المقبولون على الدين الجديد لم يجدوها قبل ذلك فيما تقدم من الأديان .

وهذه الحقيقة المطردة تظهر - كما أسلفنا بغير عناء كبير - من كل مقارنة بين العقائد الإسلامية وما تقدمها من العقائد في أمميات شعائر الدين وأصوله .

وقد تتلخص هذه الأصول في العقيدة الإلهية وعقيدة النبوة وعقيدة الصلاح في النفس الإنسانية بين يدي الله وأنبيائه .

فالله في الإسلام كائن سرمدي متزه عن شوائب المادة يدين المسلم بأنه هو رب العالمين أجمعين وليس برب لهذه القبيلة أو تلك تختارها ويختاره لغير سبب بين الأمم كافة ، وليس الإله كذلك رباً لطائفة من الناس ، يرتبط خلاصها بحوادث من حوادث التاريخ في بقعة من الأرض ، بين بقاعها التي تبتعد أو تقترب منها فيما سبق أو فيما يلحق من الأزمنة .

والنبي في الإسلام داع إلى الهدى بحججة العقل والضمير ، وليس منجمماً لاستطلاع الغيب ولا وسيطاً لدفع الكوارث وجلب المนาفع بين الخالق ومن خلقاته .  
والنفس البشرية نفس رشيدة مسؤولة عن صلاحها وعن خلاصها بما تعامله .  
وتنهض بتعاباته في تجارب دنياهما أينما كانت وكان مصيرها ومثواها .

وهذه الأصول الثلاثة في عقائد الإلهية والنبوة والنفس البشرية هي أهم أركان العبادة في كل ديانة قديمة أو حديثة ، ولا يترى المنصف في مكان الفضل والتقدم منها عند المقارنة فيها بين الإسلام وسائر الأديان .

ولكن المقارنة بين هذه الأديان في الفروع تنتهي كذلك إلى تمييز الإسلام بمثل هذا الفضل ، أو هذا التقدم ، من وجهة النزاهة في التفكير والاستقامة على هداية الضمير .  
ومن هذه الفروع عقيدة «التضحية» أو القرابان في الدين الإسلامي وفيما تقدمه من الأديان الكتابية وغير الكتابية .

فالذين زعموا أن الإسلام نسخة محرفة ، أو مشوهة ، من اليهودية يدركون خطأهم سريعاً إذا قارنوا بين معنى التضحية في اليهودية ومعنى التضحية في الدين الحنيف ، لأن القرابين والضحايا كما وردت أحکامها في كتب التوراة والتلمود

تحمل في أطوانها كل بقايا التضحية للأرباب ، في الأديان التي قامت على عبادة الطواهر الطبيعية ، ولا سيما ظواهر الفصول ومواسم الزراعة .

فالقريان عندهم يكون تارة من بواعث الزرع وتارة من بواعث الحيوان في موسم الحصاد أو الإنتاج .

ويكون بالإضافة إلى هذا ، تارة أخرى ، ثمناً للغفران من الله أو «رشوة» لتسكين الغضب واستجلاب الرضى والرعاية .

بل يكون القريان الأكبر أحياناً طعاماً مقدماً إلى الله لأنه يستسيغه ويشعر بالسرور لاستهمامه ، ويكون في كل حال هدية منتقدة من أطعيب الذبيحة لكهان الهيكل وخدامه والمتسبين إليه .

وفي كتب التكوين والخروج والأخبار تفصيل لأنواع هذه القرابين لا حاجة بنا إلى استقصائه ، ولكن الكتاب الذي خصوه برمسم الهيكل والذبائح وحقوق الأخبار والكهان حافل بالتفاصيل التي تعرض لبيان أغراض القريان وأجزاء الذبيحة التي يرتضيها رب مقادير اللحم والشحوم التي تنفصل على غيرها ولا تحمل لأحد غير الكهنة أو غير الإله الذي يتوسط الكهنة في تقديمها إليه . وهذه فقرات من الإصلاح الأول من كتاب اللاويين قد تستجمع ما يأتي بعدها في سائر الإصلاحات في تلك التفاصيل :

جاء في مطلع الإصلاح الأول : «ودعا الرب موسى وكلمه من خيمة الاجتماع قائلاً : كلمبني إسرائيل وقل لهم إذا قرب إنسان منكم قرياناً للرب من البهائم فمن البقر والغنم تقربون قرابينكم . إن كان قريانه محروقة من البقر فذكروا صحيحاً يقتربه إلى باب خيمة الاجتماع ، يقدمه للرضا عنه أمام الرب ويضع يده على رأس المحروقة فيرضي عليه للتکفير عنه ، ويذبح العجل أمام الرب ويقرب بنو هرون الدم ويرشون مستديراً على المذبح الذي لدى باب خيمة الاجتماع ، ويسلح المحروقة ويقطعنها إلى قطعها ويجعل بنو هرون الكاهن ناراً على المذبح ويرتباون حطبًا على النار ، ويرتب بنو هرون الكهنة القطع مع الرأس والشحوم فوق الحطب الذي على النار التي على المذبح ، وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بالماء ويوقن الكاهن الجميع على المذبح رائحة سرور للرب . [الخ الخ] » .

ومعنى القربان - البدائى - ظاهر من هذه المراسم وهذه الخصائص التى ترتبط بالكهانة وبقایا الوثنية .

فإذا قورنت هذه المراسم بما يقابلها من مراسيم التضحية الإسلامية تبين منها كل ما هنالك من الفوارق الشاسعة بين صفة القربان ومعنىه فى الديانتين .

فليس القربان فى الإسلام ثمناً للغفران متعلقاً بوساطة الهيكل وكهانه .

وليس القربان الإسلامي طعاماً للرب ولا طعاماً لأحد من الوسطاء بين العبد وربه باسم الدين .

وليس هذا القربان فرحاً بمنظر الدم واحتفالاً برشه وغمس الأيدي فيه مرضاه للعبد أو لربه .

وليس فيه معنى من معانى التقريب للظواهر الطبيعية فى مواسمها المعروفة للحصاد أو النتائج .

وأيات القرآن الكريم صريحة فى بيان أغراض التقريب ومراسمه وتزييه الإله عن النيل منه طعاماً أو شعيمياً يرتاح إليه سبحانه وتعالى ، وقد جمعتها آيات من سورة الحج فى قوله جل وعلا :

.. ﴿ وَالَّذِينَ جَعَلْنَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا رَجَبْتُمْ جَنُوبَهَا فَكَلُّوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْقَالِعَ وَالْمُعْتَرَ كَذَلِكَ سَخْرَنَاهَا لَكُمْ تَعْلَمُكُمْ تَشْكُرُونَ . لَئِنْ يَنْعَلَ اللَّهُ لَحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَا تَنَاهُ اللَّهُ عَنِ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخْرَهَا لَكُمْ لِتَكْبِرُوا اللَّهُ عَلَىٰ مَا هَذَا كُمْ وَيَشِّرِ المُحْسِنِينَ ﴾ .

فالقربان الإسلامي بعيد غاية البعد عن مراسيم الوثنية وشعائر الكهانة ، وليس على المسلم أن يقربه إلى الله ثمناً للغفران ، ولكنه شكر لله وإحسان إلى الجماع والمحروميين ويرهان على التقوى والصلاح وهما كل ما يطلبه الإله من عبده ، تنزه سبحانه وتعالى أن يطلب سروراً براحتته أو فرحاً بمنظر الذبائح فى دمائها واستثماراً بالطبيات منها لمن يدعون الوساطة عنده والشفاعة لديه .

وأمام كل صورة من تلك الصور «الجسمية الدموية» صورة تصلحها وتهلّبها في

شعائر الإسلام تتحقق بها فضيلة التطور في كل رسم من مراسيم العبادة فروعها وأصولها ، ويتبين بها ما ذكرناه من عمل هذه السنة الإلهية في تهيئة الإنسان للتقدم من عقيدة إلى عقيدة تفضلها وتعلوها ، ومن نشوء الدين بعد الدين تكمله له وزيادة عليه ، لا نسخاً ولا تشويهاً بلجواهره وأعراضه ، إذ ليس ما يستقيم به فهم التاريخ ولا فهم العبادات أن يفسر ظهور الإسلام بعد ظهور الأديان التي سبقته بغير هذا التفسير .

## **خواطير العيد بين الفاظه ومعانيه**

كلمة العيد باللغة العربية أصدق الكلمات دلالة عليه . وقيمة هذه الدلالة تتجاوز الأهمية في اللغة إلى الأهمية في علم الإنسان المعروف بالأنثروبولوجي من «أنثروبوس»، يعنى الإنسان في اللغة اليونانية .

فالعيد يستلزم «أولاً» أن يعاد في موعد معلوم من كل سنة أو كل موسم ، وعودته مع السنين والمواسم تستلزم وجود مجتمع قد استقر ، واستقرت له علاقته بالأرض والسماء أو بالمكان والزمان ، فهو يعرف مواقيت الزرع وقد يعرف التقويم الفلكي الذى يجعل للزراعة ميقاتاً ثابتاً يوافق أوان الزرع والمحصاد بالشهر واليوم ، أو يخالفه قليلاً مع تعاقب الأعوام .

وتدل على العيد كلمات كثيرة في اللغات الأخرى ، يدور معناها أحياناً على الموائد والأطعمة ، فإذا قال القائل في تلك اللغات إنه «عيد» فمعنى ذلك أنه شبع من الطعام ونال نعمته من الشمرات والخيرات .

وفي سورة المائدة من القرآن الكريم آيات تلخص هذه المعاني ، وتحمّل خصائص العبد بعودته ووفرة مأكله ومشروبه ، وتجدده بين الأجيال السابقة واللاحقة ، وتعنى بها قوله تعالى : «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبُّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأُولُنَا وَآخِرُنَا وَآيَةً مِّنْكَ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» .

### **أصل الأعياد**

وتكاد الأعياد جميعاً ترجع بأصولها إلى مواسم الزراعة والرزق ، ولكن الأديان

ترتفىء بها من أصولها المادية إلى المعانى الإلهية والروحانية وتضفى عليها صبغة من المقاصد العليا تناسب تقدم الإنسان .

فبني إسرائيل مثلا قد تعودوا أن يحتفلوا بعيد الفصح ، وعيد المظال وغيرهما من أعياد البواكير والمحصولات ، وقد كان عيد الفصح يوافق موعد الاعتدال الربيعي من شهر نيسان الذى يتوسط بين شهري مارس وابريل موعد الربيع ، وكان عيد المظال يوافق ليلة البدر من شهر تشرى ، أى الشهر العاشر الذى يتوسط بين شهري سبتمبر وأكتوبر موعد الحصاد ، ثم تطور الاحتفال بهذين العيدتين فأصبح لهما معنى الخلاص ، ومعنى النعمة الإلهية حسب موقعهما من حوادث التاريخ التى هم بني إسرائيل .

وكانوا يحتفلون بعيد النور فى نحو الخامس والعشرين من شهر ديسمبر كل سنة ، لأن الموعد الذى يقتصر فيه الليل ويطول النهار ويعتبرونه آية على انتصار النور واندحار الظلم ، ثم احتفلوا به لأنه وافق تاريخ إقامة الهيكل وتجدد العبادة فيه بعد تعطيله فى زمن أنطيوخوس أبيفانس من سنة 168 إلى سنة 165 قبل الميلاد ، ولايزالون إذا احتفلوا به يجعلون من هداياه عناقيد العنبر وأوراق الكروم .

ولم يزل هذا العيد مرعياً بين الأمم القديمة من غير بني إسرائيل ، وكان الاحتفال به مصحوباً ببعض العادات والتى لا يقرها الدين ، فلما دان الوثنيون بالسيجية ثبتوا على عاداتهم الأولى فى الاحتفال بهذا اليوم كل عام ، وحولهم آباء الكنيسة عنه إلى الاحتفال بذكرى مولد السيد المسيح .

### عيد الفطر وعيد الأضحى

والعيدين الإسلاميان - وهما عيد الفطر وعيد الأضحى - كان لهما أصل قديم قبل الإسلام ، فكان العرب يصومون من أسبوع إلى أسبوعين فى موعد الانقلاب الصيفى الذى يوافق شهر القيظ أو شهر رمضان ، وكانوا يحجون إلى الكعبة ويقدمون القرابين إلى أربابهم عند منصرفهم من الطواف ، وكانوا يؤدون شعائر الحج عراة إلا من النساء الذى يخصصه السادة للحج فى جوار مكة ، فلما جاء الإسلام هذب هذين العيدين وأزال عنهما بقايا الصبغة المادية وحولهما إلى العبادة الإلهية ، وساعد على زوال الأثر المادى منها أن الإسلام حرم النسيء

وهو زيادة شهور على السنة كل بضعة أعوام لإعادة التاريخ القمري إلى الحساب الشمسي الذي تنتظم عليه مواسم الزراعة والتجارة ، ولم يحرم الإسلام النسيء لأنّه يمنع تنظيم التقويم على الحساب الصحيح ، فإنه بخلاف ذلك يجب على الإنسان أن يعلم عدد السنين والحساب ، ولكنه حرمه لأن المجمدين الذين كانوا يتولونه جعلوه تجارة على حسب الهوى ، وعيشوا بالزيادة والنقص في الأيام لاباحة القتال المحرم في بعض الشهور ، وطبقوا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً كما جاء في القرآن الكريم ، فلما بطل النسيء الذي كان متبعاً في الجاهلية ، أصبح شهر رمضان يأتي في غير أوان الرمضان ، ويعود في كل فصل من فصول السنة ، ويعالج الصائم فيه طول النهار كما يعالج قصره كلما دار من الصيف إلى الشتاء ، وانفصل ما بينه وبين مواسم الزراعة ومواعيد النتاج ، ومنها قد استمد اسمه القديم ، وربما وصفوه قدّها فقالوا إنه هو الشهر الناطل والشهر الناتق ، وكلاهما يدل على كيل السوائل والألبان وعلى وفرة النتاج في الأجل ، من قولهم ناقة متناق أو ناتق أي كثيرة الولادة ، حسنة النتاج .

### الأعياد في الشرق الأقصى

ويوشك أن يكون تاريخ الأعياد على هذا النحو عاماً في بلاد الشرق الأوسط والبلاد التي استمدت منها العلم بالفلك وحساب التقاويم ، وأهمها أعياد النيروز والكافرة عند الفرس والبابليين .

أما بلاد الشرق الأقصى فلها مواعيدها ومواسيمها ، ولها كذلك أعيادها الطبيعية ، تضاف إليها أعياد الأنهر والتطهير وزيارة الهياكل على حسب الأقاليم ، ويعرف أهل الهند نوعاً من الأعياد غير هذا النوع الذي يرتبط بمواسم الزرع والمحصاد ، وتلك هي أعياد السلامة أو الشفاء من الآفات والشرور ، ويسمى العيد من هذه الأعياد بـ«الميلاد» وتؤدى فيه فرائض الشكر على نجاة الأطفال خاصة من آفات الجدرى والخصبة وسائر الأمراض التي يخشى منها على الصغار .. قالت السيدة سنكلر ستيفنسن في كتابها عن شعائر الولادة المزدوجة : «إن عيد السلامة من الجدرى أحب الأعياد ...» وترافقه كاتبة هذه السطور ، فترى إلى جانب النهر سوقاً منظمة تزدحم هنا وهناك بالمناظر المرحة ، وتتلاًلاً فيها المرايا

والألاعيب وألوان الفاكهة ، وتشاهد على الطريق التي تؤدي إلى المحراب جموع الأسر اللطاف من الأمهات والأطفال في أحسن ثيابهم التي تتلاقى فيها الألوان الزرقاء ، والخضراء ، والحمراء .. وعند المحراب تتقدم الأمهات السعيدات اللائي نجوا أبناؤهن من الآفات فيضعن تحت أقدام الريبة الحارسة قربين الفاكهة أو الزهر ، أو الحبوب ، أو الملح ، أو الزيت ، أو العسل ، أو الزيد النقي ، ومنهم من تزيد فتقترب إلى الريبة بتمثال صغير لمظلة جميلة رمز الريبية والسعادة ، إذ كل رب يحب المظلة . ومنهم من تقدم للريبة تمثال عين من الفضة شكرًا لنجاة الطفل من الرمد ، وقد ترى هنالك طفلاً يوزن بالسكر أو التمر وفاء للنذر في أثناء المرض ، والطريف في الأمر أن سادن المحراب يأخذ شطر القريان ويوزع الشطر الآخر على الأطفال الحاضرين» .

### وفي الشرق الأوسط

هذه المواسم لها نظائر في الشرق الأوسط عند توابيت الأولياء الذين يحرسون الأطفال خاصة في اعتقاد أبناء الأقليم ، وقد رأينا بعضهم يُؤخر حلاقة شعر الطفل إلى أن يحلق في مقام الولي المقصود ، وبالألا راحتى الطفل الصغير حسب اقتداره سكرًا ، أو تمرًا ، أو حبوبًا ، أو ما شاكل ذلك من الهدايا والألطاف ، وببعضها يكتال بهذا الكيل مرتين : مرة لشيخ التابوت ومرة للفقراء والمسولين .

### الأعياد في الهند

ومن الأعياد التي يحتفل بها أهل الهند عيد الأداة أو الآلة التي يستخدمها الصانع في صناعته ، ونحسب أن المهايم الكبير قد استطاع الاعتماد على هذه العادة القديمة لتقديس المغزل ، فأصبح بفضله علمًا من أعلام البلاد .

ولا يظنن أحد أن أعياد السلامة مقصورة على أهل الهند وعلى السلامة من الأوثة والآفات ، فإننا إذا رجعنا إلى قسمية العيد في الغرب باليوم المقدس-Holy day علمنا أن الكلمة مأخوذة من يوم السلامة بمعناها الحرفي الأصيل ، فإن كلمة «هولي» مشتقة من الصحة وال تمام ، ويقال صحيحه أي جبر كسره وأعاده سليماً كما كان . وما هو معنى السلام نفسه إن لم يكن مرجعه إلى مثل هذا المعنى .

## **الطبيعة البشرية والأعياد**

لقد صدق من قال : إن الإنسان إنسان حيث كان وإن الطبيعة البشرية واحدة في كل مكان وزمان . فإذا حمد الناس السلمة والسلام في بلد بعيد أو قريب ، فكن على ثقة أنهم يحمدونها في كل بلد متصل به أو منفصل عنه ، وإذا كانت الأديان قد حولت الخيرات المختلفة بها في الأعياد من خير الجوف والجلد إلى خير النفس والضمير فكذلك قد تحول معنى السلمة من خام الجسد إلى عام الروح . وخير تهنئة في العيد ، كييفما كان العيد ، أن تتمى للناس الخير والسلام بمعناهما معاً : خير الأبدان وخير الأرواح والأذهان . وكل عام وأنتم بخير وسلام .

## خواطر في رأس السنة الهجرية

وضعت التقويمات الفلكية لضبط الزمن وتقييد مواعيده وتطويعه للحساب الذي تجري عليه الشهور والسنون ، ولا بد أن تجري عليه الأحكام والدھروا ثم يأبى الزمن إلا أن يلقي عبرته على كل معتبر . ويأبى إلا أن تكون التقويمات نفسها مظهراً لهنّه العبرة الخالدة التي لا تح LOD لعبرة مسوها .  
وعبرته الدائمة ألا دوام !

وكذلك تحدثنا التقويمات التي وضعت «الضبط» الزمن المغير المتغير ، وتقييده بوتد وإيجاده بليجام .  
فما من تقوم من تلك التقويمات الفلكية بقى اليوم على الحساب الذي وضع عليه .

ومن شاء غام العبرة فتتمامها العجيب أن التقويم الذي بقى كما كان يوم وضعه هو التقويم الذي يقال إنه غير صالح للبقاء ، لأنّه لا يصلح لحساب أعمال المعيشة ومواسم الزرع والمحصاد .

وذلك هو تقويم السنة الهجرية !  
فمنذ وضع هذا التقويم لم يتغير له نظام ، وقد تغير بعده نظام كل تقويم قديم .

### الشمس بعد القمر

كان مدار التقى على السنة القمرية ، وكان اسم الشهر في أكثر اللغات مشتقاً من القمر ، وكان تقسيم الأسابيع مأخوذاً من التقويمات القمرية ، ثم جاء تقسيم الأيام على حسب أيام الأسبوع ، ثم جاء الأسبوع جاماً لكواكب السماء الكبرى في تقدير الأقدمين ، فكان منه يوم لزحل ويوم للشمس ويوم للقمر و يوم للمريخ و يوم لعطارد و يوم للمشتري و يوم للزهرة ، وانتظم للأقدمين بذلك حساب السبعات وحساب الأرباع ، وهو العددان المقدسان في الأرض والسماء .

ثم كبر النوع الإنساني عن أفق و تطلع من فوقه إلى أفق الشمس الكبيري ، ولكنه حاول أن يفرض عليها المسير كما يريد أو كما أرادته العقيدة التي يؤمن بها في ترتيب مواسمها وأعياده وتقويتها عباداته وشعائره فلم يزل مع الشمس في خلاف إلى هذه الساعة ، وقد يبلغ به الغرور أن يتربّط منها التحول على هواه ، لو لا أنها لا تستطيع ذلك وإن صحت عزيمتها عليه لأنه هو نفسه لا يتفق على هواه ، فإن سمعت الشمس لأصحاب هذا المنصب غضب عليها أصحاب مذهبين أو ثلاثة مذهب تكره وتحكم عليه بالكفر والجحود ، وسبيلها إذن أن تصطعن الصمم عن نداء الجميع ، و تطلع حيث تطلع أو تدور حيث تدور إلى يوم يتفقون ، ولعله قريب من يوم يبعثون

ومند ستة عشر قرناً لم يتقدم بنو آدم وحواء خطوة واحدة في طريق الاتفاق .

فمن القرن الثالث للميلاد حاول أصحاب الدين أن يوفقاً بين مواعيد الأرض والسماء فلم يفلحوا .

وفي هذا القرن العشرين ينتقل السلطان من أصحاب الدين إلى مجالس النواب أو إلى المجالس الدولية ، فيحيط القرار الذي أصدره أقدم المجالس البرلمانية في العالم ، كما ححيط القرار الذي أصدرته عصبة الأمم رحمها الله ، وتظل الأرض في ناحية والسماء في ناحية كلما وقع الخلاف على مواعيد الأعياد .

### خلاف.. وأشكال

وحستاً صنع الدينيون والدينيون الذين أعرضوا عن القرارات في العصر الحديث كما أعرض أسلفهم عن قرارات العصر القديم ، فإنهم لو قبلوها واتبعوها لم يستغفوا بعد سنة أو سنتين عن إعادة البحث في تعديلها لأسباب غير الأسباب التي كانت تدعو الفلكيين والأخبار ورجال السياسة إلى تعديل التقويمات في العصور الغابرة .

فقد كان الأقدمون يعتدون التقويمات ليجبروا كسر الساعات الناقصة وينعموا زحف الفصول مع الأزمنة المتطاولة ، ولكنهم اليوم ينظرون في تعديل السنة الشمسية خلل في تركيبها وتقسيم أجزائها لا يسهل التغاضي عنه في عصر تحسب فيه جداول الطيران بالدقيقة والثانية ، وتنقسم فيه المواسم على حسب الإحصاءات الشهرية والأسبوعية ، وينشأ من فرق يوم فيه خلل خطير يصعب تداركه على أصحاب الأعمال .

فإذا حسبنا السنة شهران فعندها من أشهر الشتاء شهراً عدداً أيامها تسعة وخمسون يوماً في بعض السنوات وستون يوماً في سنوات أخرى وهما ينابير وفبراير، وعندها من أشهر الصيف شهراً عدداً أيامها اثنان وستون يوماً في جميع السنين هما يوليو وأغسطس.

وإذا حسبنا السنة نصفين، فنصفها الأول مائة وواحد وثمانون يوماً تارة، ومائة وأثنان وثمانون يوماً تارة أخرى، ونصفها الآخر مائة وأربعة وثمانون يوماً في جميع السنين.

ومثل هذا التفاوت لا ينتظم عليه الحساب الدقيق في عصر السرعة وعصر الإحصاءات.

### تقويم عالمي

ولهذا أنشئت منذ أربع وعشرين سنة جماعة كبرى تسمى جماعة التقويم العالمية تبلغ فروعها بين أقطار الأرض نحو الأربعين، وتقترح تقويمياً يبدأ في كل سنة بيوم الأحد ويكون تطبيقه في سنة تبدأ على التقويم الجريجوري أيضاً بهذا اليوم، وأقرب هذه السنوات سنة ١٩٥٦، ثم سنة ١٩٦١ وهي عند الجماعة أصلع للابتداء بها ريشما تستعد المطابع والهيئات المختلفة للعمل بالتعديل الجديد.

وخلالصة التعديل الجديد أن يوضع بعد اليوم الثلاثين من شهر ديسمبر يوم يسمى اليوم العالمي وأن تنتهي كل سنة بيوم سبت وتبدأ كل سنة بيوم أحد ويضاف يوم عالمي آخر بعد آخر شهر يونيو في السنوات الكبيرة، ثم يأتي تقسيم الشهور بحيث يشتمل كل شهر على ستة وعشرين يوماً، تضاف إليها أيام الأحد، وتصبح السنة على هذا مقسمة إلى أربعة أقسام كل قسم منها واحد وتسعون يوماً بلا اختلاف في مواعيد عودة الأيام.

فإذا شاعت فكرة هذا التقويم من الآن إلى سنة ١٩٦١، فلا نظن أن ابتداء السنوات بيوم الأحد يحول دون قبول التعديل عند الأمم التي لا تدين بال المسيحية، فإن يوم الأحد لم يكن يوم المسيحية من قديم الزمن، وإنما كان يوم الشمس في التقويم البابلي قبل موسى ومولد المسيح عليهما السلام.

## السنة الهجرية في أمان

ويبن هذه المقترنات والمشاورات تدرج السنة الهجرية خطواتها الأولى في سلام وأمان وتقضي عبرة الزمن - أبي العبر - أن يجيشها السلام والأمان من حيث خيف عليها الزوال لأنها لا تسلك مع الناس مسلكهم في مواعيد الزراع وجباة الأموال . فالسنة الهجرية تؤمن اليوم التعديل والتبدل لأنها سنة روحانية لا ترتبط بهواسم المعيشة وأوقات الدواوين .

فالناس لا يرتفبون اليوم ربيعاً الأول وربيراً الثاني ، لأنهما موسم الربيع ، ولا يرتفبون جمادى الأولى وجمادى الثانية لأنهما موسم القر الذي يجذب فيه الماء ، ولا يرتفبون رمضان لأن يجيء بالرمضان أو شوالاً لأن شهر تشيل فيه الإبل أو تصال فيه الخيام .

كلا . بل هم يرتفبون شهرها التاسع لأن شهر الصيام ويرتفبون شهرها العاشر لأنهم يحجون فيه ويعيدون فيه عيدهم الكبير .

## عبرة وتذكرة

وما دام في الدنيا أناس يصومون ويحجون ففيها سنة هجرية لا تبالى شيئاً بتناظم التقاويم ، ولا تحتاج إلى اختراع قمر تدور عليه لأن هذا القمر القديم مستبقى له مطلعه ومغاربه ، وتبقى له علاقاته بالمد والجزر ، ورحلات البر والبحر والهواء ، ولن يستغنى عن أسماء شهور تدور معه حيث يدور .

وقد اعتمدت التقاويم بضرورات العاشق فلم تعصمها من التعديل والتبدل بين جيل وجيل .

فإذا بقيت السنة الهجرية بغير تعديل ولا تبدل فلعلها تذكر الناس من جيل إلى جيل أن الفلك الروحاني أثبت من أفلاك الأجساد والأموال .

## شعبان وتصف شعبان<sup>(١)</sup>

كان شعبان يسمى في الجاهلية «عاذلا» من العدل أي الحرارة ، لأنه كان يأتي على الدوام بعد الربيع وفي أوائل الصيف ، ومادة «عدل» كمادة «الذع» تفيد معنى الحرارة في اللغة العربية .

ثم غلب عليه اسم شعبان قبل الإسلام بنحو مائتي سنة ، وقيل في سبب هذه التسمية إن القبائل تتشعب فيه طلباً للماء والغارة ، لأن شهر رجب الذي قبله شهر حرام يتنبع فيه القتال والحركة ، فإذا انتهت شفاعة القبائل إلى حيث تجد الماء والغنية . وقيل إنه سمي شعبان لأن أعود النبات تتشعب فيه ، فهو موسم الروع والارتفاع ، ولهذا زعم الزاعمون أن شجرة الحياة تتجدد في وسطه ، فيسقط منها الورق الذابل وينمو الورق الأخضر ويزدهر ، وتنتقض أعماره وتبدئ أعماراً .

وقد كان شعبان يعود في موعده من فصول السنة كل عام ، لأن عرب الجاهلية كانوا يضيفون تسعة أشهر إلى كل أربع وعشرين سنة . فتبقى الشهور في مواعيدها من الفصول ، وتصبح السنة قمرية شمسية بهذا التقويم .

وكانوا يعتمدون أول الأمر على أخبار اليهود في حساب أيام الكبيس ، ثم تولى هذه الحسبة بنو مالك بن كنانة ، وجعلوا يتصرفون على هواهم في التأخير والتقدم لينسوا الأشهر الحرام إلى ما بعدها ، أي ليؤجلوا الأشهر التي يحرم فيها القتال ويستحبوا الحرب متى طابت لهم ، وفي هذا يقول عمرو بن قيس :

السن الناشتين إلى معد      شهور الخل لمعلمها حراما  
وهذا خطأ من الشاعر ، لأنهم كانوا يؤجلون شهور الخل كثيراً لتطول أيام القتال  
وتقصص أيام السلام ، وقد يرجحون القتال في موسم التجارة ثم يعودون إليه كرتين .  
ولهذا حرم الإسلام النساء منعاً للتصرف الأهواه في مواعيده الشهور ، ومنها  
مواقف الحج والعصيام .

(١) الهلال مايو ١٩٥٣ .

إلا أنها ينبغي أن نذكر في تاريخ شهر شعبان حقيقةتين لازمتين لتفسير بعض ما  
قيل عن خصائصه وكرامته ، وهاتان الحقيقةتان هما :  
أولاً - أنه كان شهر النمو والإيراق .

ثانياً - أن اليهود كانوا يتولون أمر النساء قديماً في الجاهلية ، فكانوا يخاطرون بين  
خصائص الشهور في السنة العربية والسنة العبرية ، عادمين أو غير عادمين .

\*\*\*

كنت القارئ المفضل لدعاء نصف شعبان قبل العاشرة من عمرى ، وكان العرف  
الشائع أن دعاء الصبي أقرب إلى القبول ، لأنه برىء القلب لم تتحمر من طبيعته  
بشرور الطمع ورذائل الشهوات .

وكانت معرفة القراءة نادرة فيمن لم يبلغوا العاشرة ، فكان طلاب الدعاء  
يتسابقون إلى دعوتي لتلاوته عليهم وقيادتهم في تردده ، فحافظته لأنني كنت  
أثنوه وأعيد تلاوته مرات .

وقد كان عجبي يزداد كلما سمعت القوم يتحدثون عن بركات نصف شعبان ،  
وكلت مع العجب الذي يزداد سنة بعد سنة أشتاق أن أعرف الحقيقة القاطعة في  
هذه الأقاويل الشائعة ، فرأىني أن أسمع من أستاذنا الجداوى - عالم أسوان وفقيرها  
في ذلك العصر - أن كل ما يقال بدعة مكرورة ! وظهر تفسير جزء «عم» للأستاذ  
الإمام الشيخ محمد عبد الله ، فقرأت فيه تأييداً للذلك ووجده يقول : «وأما ما يقوله  
الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة  
النصف من شعبان وأن الأمور التي تفرق فيها هي الأرزاق والأعمار .. فهو من  
الجريدة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة ، وليس من الجائز لنا أن نعتقد  
بشيء من ذلك ما لم يرد به خبر متواتر عن المقصوم ~~فيه~~ ، ومثل ذلك لم يرد  
لأخطراب الروايات وضعف أغلبها وكتب الكثير منها» .

وقضى الأستاذ الإمام هي القول الراجح بين الفقهاء ، فمن المتفق عليه أن  
الاحاديث التي أشار إليها ضعيفة أو مكذوبة ، وأن أصحاب مالك وأبي حنيفة  
كرهوا تلك البدعة التي أحاطت بأنباء ليلة نصف شعبان وأعرضوا عنها ، ولم يقبل  
عليها أحد من أصحاب الأئمة الآخرين .

وغضي عن القول أن الدعاء إلى الله في كل وقت أو كل ليلة أمر لا بدعة فيه ولا غبار عليه ، وإنما يكره الفقهاء ما يقال عن شجرة الحياة وكتابة الأرزاق والأعمار وتعلق ذلك بموعد محدود وشعائر مرسومة ، لم يؤثر منها شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه والتابعين .

أما الاحتفال «الرسمي» بالليلة فقد شاع واستهير في أيام الدولة الفاطمية ، وهي كما يعلم القراء عظيمة العناية بالمواسم والأعياد ، وإن لم يكن للدعاء المحفوظ شأن محدود في ذلك الاحتفال .

وكان من عادتهم إذا اقترب النصف من شهر شعبان أن تحمل إلى دار القاضى ستون شمعة من حواصيل الخليفة ، زنة كل شمعة منها سلس قنطر ، ليركب بها في موكيه إلى منظرة الخليفة ، ويخرج بين صفين من الخاصة في كل صف منها ثلاثون شمعة ، وفي ركابه المؤذنون يعلنون الذكر والدعاء ، ومن حاشيته كبار رجال الدولة وأمامهم الشموع والشارات ، حتى ينتهيوا إلى الباب المعروف بباب الزمرة من أبواب قصر الخلافة ، فتفتح فيه طاقة يرى منها وجه الخليفة وينه وهو يومئ بالسلام ، ويتقدم للخطبة أمام الجامع الأنور «باب البحر» ثم يختتم خطبته بالدعاء للخليفة ، وبعقبه خطباء من الجامع الأزهر وجامع الحاكم ، ثم يعود القاضى في موكيه إلى دار الوزير ، وتقضاء المصائب ويوقد التنور وفيه ألف وخمسمائة برقة ، وبأسفله نحو مائة قنديل .

وكانوا يصنعون مثل ذلك في أول رجب ونصفه وأول شعبان ، وكله من المراكب التي يركب فيها القاضى ولا يحضرها الخليفة بموكيه ، بل يجلس فيها للتحية كما تقدم .

\*\*\*

### ما أقرب التاريخ وما أبعدها

قلما يخطر على البال أن قصة الشجرة التي أضافها الرواة إلى أخبار نصف شعبان قد مرضت عليها أكثر من ثلاثة قرون قبل أن تصل إلينا وتشيع بيننا .

وقلما يخطر على البال أن تلك الشجرة نبتت في ظلال الأقدمين من أهل بابل قبل أن يسمع بها اليهود ، وقبل أن ينقلها رواة «الإسرائيлик» إلى العامة من أهل البلاد الإسلامية .

فما أقرب التاريخ وما أبعده ، وما أصدق القائلين إنه يعيد نفسه ، وإننا نعيده في  
أعياد وغير أعيادا

كان البابليون يحتفلون برأس السنة الزراعية ، وكانوا يتخيلون للحياة شجرة تذبل  
وتزدهر كل عام على السنة المعمودة في الأشجار ، وكانوا يحسبون أن الأعمار قرعة  
تصيب من يتقارب إلى الآرانب ، وتحطى من ينسى القربان والوسيلة .

ودخل الاحتفال بعيد القرعة في عداد المواسم الإسرائيلية ، وسمى بعيد  
«الفورم» أي النصيب ، وقيل في سبب الاحتفال به إنه ذكرى لنجاة اليهود من كيد  
هaman بشفاعة إستير ومردخاي .

ومن الثابت أن هذا العيد ظارى على التقاليد الإسرائيلية ، وأنه أضيف إلى  
الأعياد على أيام المكابيين ، وجاء في كتاب «المجلة» التي تشرح التلمود كلام عن  
التقاليد المزعية في الفصل الرابع عشر منها فنحوه : إن المؤثرات كلها قد قتلت على  
أيدي ثمانية وأربعين نبياً «منهم الآباء الأولون» وسبيع نبيات منهن إستير ... وإنها  
لم يزد عليها بعد هؤلاء الأنبياء والنبيات إلا ثلاثة قصة إستير في عيد الفورم .  
ولا تخفي المشابهة بين إستير ومردخاي ، وبين الربين عشتار ومردوخ في تاريخ  
البابليين الأقدمين .

ولقد شاع الكلام على تحديد المقادير والأرزاق في جميع الأعياد اليهودية ، وهي  
عيد الفصح ، وعيد العنصرة ، وعيد المظال ، وعيد رأس السنة «روش ها الشنة» بعد  
أن كان ذلك مقصراً على العيد الأخير .

ولذا رجعنا إلى الأقاويل عن نصف شعبان في بعض كتبها التي لانحب أن  
نذكرها وجدناهم يقولون : ومن أسمائها ليلة الحياة كما رواه إسحاق بن راهويه بسنده  
عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى قال : إذا كانت ليلة النصف من شعبان لم يمت  
أحد بين المغرب والعشاء لاشتغال ملك الموت بقبض الصنائع من رب العالمين ! .

وقال غيره : «ومن أسمائها ليلة التكفير» ... وهذا خلط بين هذا اليوم ويوم  
«الكبور» أي التكفير عند الإسرائيликين .

ومثل هذا الخلط كثير في الروايات التي ينتهي سندها إلى أصحاب  
الإسرائيлик ، وأجمع الثقات على أنه سند ضعيف أو مكتوب .

و عند التصفيية ترجع بنا طائفة من قصص شعبان إلى فترة الجاهلية ، و ترجع بنا طائفة غيرها إلى تراث إسرائيل ، و ترجع بنا الطائفة الأخرى مرحلة أسبق وأعرق إلى تفاصيل المغافل البابلية .

والحلال بين ، والحرام بين .

فاما الحال الذي لا اعتراض عليه من هذا كله فهو التوجه إلى الله بدعاة  
خلص لا يشوبه حساب القرعة ولا حساب الصكاك !

## في الحرم<sup>(١)</sup>

ركبنا البحر ونحن لا نعلم على التحقيق أين تلقى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، لأن برنامج الرحلة لا يشير إلى المكان .  
فمن الجائز أن يكون في جدة ، لأنها الميناء الذي ينتقل منه جلالته إلى يخت المعروسة ، وجلالته قصر منيف في أرياضها هو القصر المعروف بقصر خزان .  
ومن الجائز أن يكون في مكة المكرمة ، لأن اليخت يصل إلى جدة قبل سفر جلالته بيومين .

فإذا كان استقبال البعثة الملكية في جدة فلا عمرة ولا إحرام ، وإذا كان الاستقبال في مكة المكرمة ، فقد وجبت العمرة ووجب الإحرام .  
ولكن كيف السبيل إلى الإحرام؟ وكيف السبيل إلى خلع الخيط في الشتاه ، وإن كان الجلو في مكة أدفأ من جو القاهرة بدرجات؟  
إنني أليس الصوف شتاه وصيفاً منذ خمس وعشرين سنة . وإذا صبح أن «الصوفي» منسوب إلى الصوف ، فليس على ظهر الأرض رجل أحق مني بهذه الصفة ، فكيف السبيل إلى التخلل من هذه الصفة التي لصقت بالموصوف ، فلا فكاك منها ولا فرار؟

جاءنا النبأ في عرض البحر بأن صاحب الجلالة عاهل الجزيرة العربية يستقبلنا .  
في قصره العابر بمكة المكرمة ، فنونينا الفدية ، ونوى أصحابنا الإحرام ، ولم يبق معنى بملابس غير الأستاذ عوض البحراوي بك وزير مصر المفوض في المملكة السعودية ، لأن الإحرام لا يلزم ، وإنما يلزم أن يطوف بالكعبة عند مغادرة مكة طواف الوداع .

وقد خصصت الحكومة السعودية قصر «الكتدراء» بجدة لتبديل الملابس قبل المسير إلى الحرم الشريف . وتولى الإشراف على راحة البعثة ومن معها صاحب

(١) الخامس من ١٢٣ .

العالى الشيخ يوسف ياسين وزير الدولة ، وصاحب العزة الأستاذ فؤاد شاكر مدير المطبوعات . فلما تهيا أصحابنا للسفر تحرك الركب بالسيارات ، فكان من نصيبى الركوب فى سيارة الوزير المفوض عوض البحراوى يك ، وهو رجل فاضل عرف أهل البلاد كما عرفه أهلها ، فانعقدت بينه وبينهم صلات المودة والزملاء ، وارتقت بيتهم الكلفة كل ارتفاع فيما عدا المراسم التى تقضى بها المعاملات الدولية ، وقد عبر الطريق مرات فعلمته منه كل ما احتجت إلى علمه من معالها وأحوالها ، ووصلت إلى مكة بزاد غير قليل من المعرفة العملية بالمخازن .

هذه جبال مكة .

وهذا جبل حراء .

بلغناه بعد ساعة ونصف ساعة من السير المعتدل فى السيارة ، ومررتنا إليه بمناظر كثيرة نرى أمثالها فى بلادنا ، ولا سيما بلدى الذى نشأت فيه ، وأعنى به أسوان : جبال ويطاح ومراع يتخللها العشب فى الأدورة والسفوح ، وبعض الجبال يليع لنا بألوان المعادن التى يحتويها ، وبعض البطاح يتم على مجاري الماء فى باطنها القريب .

كل ذلك مأثور نرى أمثاله حيث نشأنا على مقربة من صحراء أسوان ، أما الجديد كل الجدة على النظر وعلى النفس فهو حار حراء .

هو قمة مرتفعة فى جبل ، كأنما بنت بناء على شكل القبة المستطيلة إلى الأعلى ، ولكنها عسيرة المرقى لا يبلغها المصعد فيها إلا من شباب وراء شباب .

أخبرنى من صعدوه أنهم كانوا يعانون شديد العناء من وعورة مرتفاه وأن القليل من الناس يصمد فى صعوده إلى نهايةه العليا ، حيث كان الرسول ﷺ يتنسك ويستهل إلى الله .

والحق أن الرؤية غير السمع .

والحق أن ما يلمحه الناظر فى نظرة خاطفة قد يعيها الكاتب بوصفه فى الصحف والأسفار .

والحق أننا قرأنا ما قرأنا عن الجبل وعن الغار ، ثم نظرنا إليهما ، فعلمنا أن القراءة قد تركت الكثير من فراغ النفس لتملاه هذه النظرة العابرة فى الطريق .

مررنا به عابرين كما كان سكان البلاد يمررون به غادين رائحين في غفلة من ذلك الرجل المفرد الذي يأوي إليه ويسكن إلى غاره .

كانوا في غفلة عن ذلك الرجل المتوحد في سبيل التوحيد ، كما كان العالم كله في مثل تلك الغفلة وفي مثل تلك الظلمات .

ولكنها كانت ساعات يرتبط بها تاريخ أحقاب ودهور ، فلما انقضت مذتها لم يبق في الأرض المعمورة غافل عن ضيف ذلك الغاز ، أو جاهم بأثار تلك الساعات التي كان يقضيها فيه بالليل والنهار .

وحسبيك نظرة واحدة إلى الجبل ومرتفاه لتحيط بعض الإحاطة بتلك النوازع المراهبة التي كانت تنهض بالرسول ﷺ في صباه إلى ذروة تلك القمة مرات بعد مرات وأياماً بعد أيام .

كل مرة في تلك المرات تترجم لنا عن قوة تلك البواعت المختدمة في نفسه الشريفة ، وترينا كيف بلغت هذه البواعت المختلعة أن تدفع بالعالم كله في طريق غير طريقه ، وإلى غاية لم تكن له من قبل في حساب ، فلولا لاجع من الشوق الإلهي ينهض بالروح والجسد نهضة لا تصبر عليها طبيعة البشر لما توالى تلك المصاعد ولا تعاقب ذلك العنكوف .

إن الملاعج التي حملت الرسول ﷺ إلى مرقى الغار هي السر الروحاني الذي استجاش العالم كله بعد ذلك في حركة دافقة تقتضم السلاود وتخستق الأسوار والحدود .

وكل أولئك كان في نشاته الأولى خاطراً في قلب رجل وحيد ينفرد في سبيل التوحيد .

وكل ذلك السيل الجارف إنما تجمع قطرات قطرات عند هذه القمة العالية .  
كل ذلك كان في هذا المكان .

وعبرنا خاسعين مطريقين ، وسكنتنا لأن مهبط الوحي هنالك قد ألهمنا السكوت .  
مكان آخر عند الكعبة كان له في قلوبنا مثل هذا الخشوع ومثل هذا الرجوع مع الزمن إلى أيام الرسالة وأيام الجهاد .

ذلك هو موقف الدعاء الذي كان الرسول ﷺ يختار الوقوف فيه كلما طاف بالكعبة ودعا إلى الله .

أنت هنا لا ريب في مقام قام فيه ذلك الرسول الكريم ، ذلك السر المرمدى الذي تتعلق به مقداريات التاريخ ومصائر الأم وضمائر بني الإنسان ، ذلك الإنسان الذي يقترب اسمه في صلوات الآلوف بعد الآلوف باسم خالق الكون العظيم .

أنت هنا تقف حيث وقف وتدعوا حيث دعا وتتظر حيث نظر وتحوم بنفسك حيث حام في اليقظة لا في النام .

قيل لنا : هنا يستجاذب الدعاء .

قلنا نعم : هنا أخلق مكاناً أن يستجاذب فيه دعاء ، وَاللَّهُ كَلَّا مِنَ الْوَاقِفِينَ  
معنا أن يدعوا دعاء وأن يستجتمع في الدنيا والآخرة رجاءه ، وساق إلى لسانى هذه الدعوات فدھوت : اللهم أولئك ما أريد لى وللناس ، وأجعل الخير كل الخير فيما أريد لى وللناس ، وما يبي من حاجة في الحياة إذا استجيب هذا الدعاء .

منظر ثالث أخلقنى بحمله في جوار البيت الحرام ، وهو منظر الحمام الأمن الوادع في ذلك المقام .

لا يخشى ولا يقنع ، بل يظل طوال نهاره في طواف على الأرض وطواف على الهواء .

وأعجب ما سمعت ورأيت أنه يطوف حول الكعبة ولا يعلو عليها فرادى ولا جماعات .

وقد سمعت بهذه الخاصية في حمام البيت قبل أن أراه ، فلما رأيته في طواف العمرة وطواف الوداع تحررت أن أتعقبه في كل مذهب من مذاهب مطاراه ، فإذا هو كما سمعت يطوف ولا يتعدى المطاف إلى العبور .

أدب الناس في هذا المقام المهيوب تعرف سره ونعرف مصدر الوحي منه إلى القلوب الأدبية .

أما أدب الطير في هذا المقام فسره عند الله .

وأؤمن الحمام يذكرنى بأمن السائلين في جوار الكعبة وجوار المسجد الحرام .

إنهم ليتدفعون حول الزائرين ولا يتجملون كما يتجمل الطير فيقطع بعضهم رزق  
بعض ، ولا يدعون من يريد أن يعطي سبيل العطاء .  
وهم في أمان لا يُهانون ولا يصيّبهم الأذى من الشرطة في جوار البيت الذي  
يأمن فيه الخائفون .  
وحسن هذا وآمِنَ اللَّهُ .

وحسن أن يأْمِنَ المساكين كل سطوة في حرم الأمان ، وأحسن منه أن يجعلهم  
الوازع من القلوب والعقول لا من العصى والسياط .  
فإن كان في تهاافت السائلين على صغار الدنيا خصاًصة فإن في هذا الأمان  
لقداسة البيت العتيق ، وإنه لمن القداسة أن يتسلّم الإنسان كيف يجيب من  
يسأله ، وهو يدّعو الله ويرجو أن يستجاب .



الفصل الرابع  
الإهماله والمتساهلون

## الإسلامُ والعربُ

كتاب الإسلام والعرب Islam and The Arabs تأليف الأستاذ روم لاندو Rome Landau واحد من هذه الكتب التي تصدر في اللغات الأوروبية بالعشرات عن الإسلام والعرب منذ الحرب العالمية الثانية ، ويسلك مؤلفوها في الوصف والتعليق مسلكاً يخالف المثلث الذي درج عليه سماحة التبشير والمطامع السياسية منذ أوائل القرن التاسع عشر ، ولن تزال له بقية تتعدد من خير إلى خير ، في بعض الكتب «الرسمية» والشبيهة بالرسمية .

فكتب التبشير والسياسة وغيرها تعمد التشهير والبحث عن المساوى في روایتها عن أحوال الأم الإسلامية والعربية ، وقراءها يتطلبون منها هذا التشهير ويستريحون إليه على سنة التقليد التي توارثوها من القرون الوسطى .

وعلى غير هذا النمط يكتب الرحالة والمعلقون من الحدثين الذين نلمح في مصنفاتهم نزوعاً إلى الإنصاف وأعراضاً عن التلتفيق ، فإنهم يحاسبون أنفسهم ويشعرون بمحاسبة قرائهم الذين نشأوا بعد الحرب العالمية متشككين في كل تقليد قديم ، ومنه تقليد الطعن في الأم الأخرى ، وبخاصة أبناء الأم الشرقية والغربياء عن أوربة على التعميم .

ويعزى هذا التحول إلى أسباب متعددة ، كما ذكرنا في مقال سابق : منها نشوء تلك الطبقة الجديدة من القراء التحررين من سلطان زعمائهم الأقدمين ، والمشككين في كل عرف موروث يملئه أولئك الزعماء .

ومن أسباب التحول غلبة الأسلوب العلمي وما يلزمـه من مناهج التسويـر والتحقيق في عقول الكتاب والقراء على السواء . فإن هذه المناهج بطبيعتها تفضيـحـ من يصطنـعـها ولا يتحرـىـ الأمانـةـ في اتـبعـاعـهاـ ، وقد يحرـضـ النـاـشـرـونـ كما يحرـضـ الكتابـ علىـ سـمعـةـ بـضـاعـتهمـ بيـنـ جـمـهـرـةـ القرـاءـ العـصـرـيـنـ وـهـمـ يـطـلـبـونـ غـيـرـ ماـ يـطـلـبـهـ قـرـاءـ التـبـشـيرـ وـسـماـسـرـةـ الـاستـعـمـارـ .

ومن أهم أسباب التحول سهولة الانتقال بين الأقطار والاختلاط بين الأمم ، وصعوبة الإصرار على الأكاذيب في عالم تتردد عليه أخبار الإذاعة والصحافة من كل طرف وعلى كل صيغة ، ويوجد فيه المروجون والمفندون لكل دعوة يتنازعها الأصدقاء الخصوص وغير الخصوص ، ومثل هذا العالم يفرض على روشه ومؤرخيه أسلوباً لم يكن بالفرض على الرواة والمؤرخين في العصور الغابرة ، إذ كان الرواية يلقى الخبر وقضى عليه الشهور والأعوام قبل أن يتبعه من يؤيده أو ينفيه ، وربما قيل يومئذ عند تكذيب الخبر أن الأمور خليقة أن تتبدل في مدى الشهور والأعوام فلا يشهد المؤرخ في هذه السنة ما كان يشهده سابقه قبل بضع سنوات .

وأهم أسباب التحول في أسلوب الرواة والعلقين على أنباء الشرق والإسلام أو الأمم الشرقية والإسلامية قد أصبحت في عداد القوى العالمية التي يحسب لها حسابها ويتحرج المسؤولون وأصحاب الآراء من إغضابها والإساءة إليها . وقد يكون الانصاف تحييناً علمياً ومصلحة سياسية في وقت واحد ، فلا يعلم من الناشرين والقراء من يقبلون عليه ، ولا يعلم من الساسة وذوي الآراء من يشجعونه ويميلون إليه .

إلا أن هذا التحول يوشك أن يخدعنا عن الحقيقة كلها إن لم نعرف دلالته بغير مبالغة في قيمته وأثره .

فليس قراء الغرب جمِيعاً منصفين ، وليس كل المنصفين منهم مشغولين بأمور الشرق والإسلام وقد يكون في عالم النشر والتَّأليف عندهم من يغضبونهم أنصار المسلمين والعرب على التخصيص دون أبناء الأمم الشرقية الأخرى ، الذين يدينون بغير الإسلام وتتكلمون بغير العربية ، وقد يعمد هؤلاء المفترضون إلى الإنكار الصامت إذا أنسوا بين القراء نفوراً من الإنكار الصريح والافتراض المكشوف .

ويُنفي أن نذكر جيداً أن الصهيونية بالمرصاد ، وأنها في ميادين النشر والإعلان أخطبوط لا تسلم من أيديه الظاهرة والخلفية شعبية من شعب الثقافة ، أو الدعوة في القارات الأوربية والأسيوية والأفريقية ، ولا نتعال أن هذا العدو اللاثي يرى خبراً واحداً مرضياً عن العرب والإسلام ثم يتركه للنشر والإذاعة إذا تمكَّن من طمسه وإنفاسه معاله ، وهذا هو الإنكار الصامت الذي تعنيه وتحسنه ميرزا المصهيوية

العلمية وأذنابها في دور النشر والإعلان إذ هو ولا ريب أيسر عليها من الحملة الصريحة التي لا تتيسر في جميع الأوقات حيث تقضي السياسة أحياناً بمحاجلة العرب وأصدقائهم في المعاملات الدولية .

وبين أيدينا مراجع شتى تلمس فيها أصوات هذا العدو الشيطاني ببينة واضحة تتم على أصحابها ، ولا يعقل أن تحدث عفواً ولا أن تنسب إلى مصادر غير المصادر الصهيونية .

فمن المراجع التي ظهرت حديثاً موسوعة شاملة لأصول الأدب والبلاغة في اللغة الفرنسية ، تتوسع في الكلام عن حركات الشقاقة ومدارس الشعر بين القرن الخامس للميلاد ومنتصف هذا القرن العشرين ، ولكنها تقتضب القول فجأة كلما انتهت بها البحث إلى فضل الأدب الأندلسي على مدارس الشعر والغناء في أقاليم فرنسا الجنوبيّة ، فتسكت عن كل إشارة إلى هذا الفضل ولو من قبيل الإلام ب مختلف الأقاويل ، وتذكر كل أثر مظنون أو مفهوم إلا ما كان فيه اعتراف بوجود العرب الأندلسيين ، أو المشابهة بين منظوماتهم وأغانيهم وبين منظومات الفرنسيين الجنوبيين ، وقد اتفقت الآراء مع هذا على تأثير الأدب العربي في الأوزان والموضوعات ، بل في الأزياء والشارات التي شاعت بين طائفة «التربيادور» المشهورين ، ولم تكن لهم شهرة قبل ظهور الأدب الأندلسي ، وشيوع طرائقها في الغزل والتثبيب .

\* \* \*

ويشعر القارئ بمثل هذا الاقتباس ، كلما وصل البحث إلى أثر الفلسفة أو الفقه أو مقتبسات الحضارة وفنونها ، مع إقحام أسماء اليهود لغير مناسبة هنا وهناك كما تفوح الرقة المستعارة ، وربما كان منهم تلاميذ معترفون بتلمسناتهم لأساتذتهم الأنجلسيين المسلمين .

وإذا احتاجت هذه العداوة المدسوسة وأمثالها من العدوات الصامتة إلى كشف وتبنيه فلا حاجة بالحملات الصریحة إلى من يكشفها وينبه إليها ، وكل ما يصبح أن يقال عنها في هذا الصدد : أنها اليوم أقل وأهون من نظائرها قبل الجيل الحاضر ، وأنها عرضة للاتهام والريبة بين خيرة القراء .

ولا يخفى أن معرفتنا بالعالم لا تغنىنا عن معرفة العالم بنا ، وأننا كلما أحسنا بأعيباتنا في مشتبك العلاقات العالمية وجب علينا أن نثبت من مكاننا بين الأمم ، على أساس الفهم والإنصاف ، وبخاصة في تلك المسائل التي يرتبط بها كيان الأمة كمسائل العقيدة والثقافة ، وسائل التراث السلفي والغاية التي تساق إليها على هدایته في سعينا إلى المصير المنظور .

فإذا نظرنا إلى كتابات الأقوام الغربية عنا فقصاري ما نفهمه من نزعة الإنصاف عند بعضهم أن هناك استعداداً لقبول صورة صحيحة عن الإسلام نؤديها نحن ولا يملك أحد غيرنا أن يحسن أداءها ، وأنت لا تزال مطالبين بالعمل الحثيث لتدفع مكانة الصامتين والناطقيين من أعدائنا ، وقد صنعوا كثيراً ولم نجد نحن نصنع شيئاً يحبط مكانتهم ، كما أنها تلقى العبرة كلها على أولئك الكتاب الغربيين الذين نزعوا منزع الإنصاف .

\*\*\*

ونعود إلى الكتاب موضوع هذا المقال ، فنوفيه كل حقه من التقرير من وجهة النظر الإسلامية إذ نقول : إنه على مثال الكتب التي يؤلفها الغرباء عن الإسلام وتتوب عن كتابة أهلها في إبراز محاسنه وتصفية تاريخه من شوائب المسع والتشويف ، لو جاز للمسلمين أن يقنعوا بالإنابة دون الأصلة في هذا المقصد على التخصيص ، وهو ما لا يجوز ولا ترضيه لنفسها أمّة تألف أن تكون عالة على الغباء في أمر الأمور ، وتدفع منها أمر الدفاع عن العقيدة والتاريخ .

فالأستاذ «روم لاندو» مثل صالح للمستشرقين الذين يقيمون في البلاد الإسلامية ويدكرون لها عهد الوفاء بحقوق الصحة والضيافة ، وهو في هذه الخصلة على تقدير أولئك الطراك المسرحين للاستعمار والتبيشير الذين يزورون بلادنا ويعيشون فيها كأنهم يطيلون الإقامة فيها ليبحثوا عن شيء واحد : وهو أسباب التشهير الانتهاص وخلفيات العيوب والمثالب ، يبالغون فيما يجدونه منها ويختلقون ما لم يجدوه ، ومهما تكن من حسنة لهذه البلاد فهي مستترة عنهم أو هم يسترونها بأيديهم ، ولا يذكروها - إن ذكروها - إلا ليجعلوها سبيلاً للمذلة وحججاً موهة للدعوى الإنصاف والاستقلال .

والاستاذ «لاندو» جوالة رحالة يطوف حول جوانب الأرض و يجعل الله قبلة له في مطافه ، كما قال في كتابه الذي أودعه خلاصة رحلاته و زياراته و سعاده «الله وجهة مطافي» God is my Adventure ولم يدع فيه معتقداً من معتقدات الأم يوصل إلى الله إلا اتبعه وممضى معه ليبلغ به غاية مده .

وهذا الكتاب عن الإسلام والعرب ثمرة السنوات التي قضتها زائراً أو مقيماً في البلاد الأفريقية الإسلامية وأخصها بلاد المغرب الأقصى حيث أطالت المقام وكافأه ملكها بوسام العلوين تكريماً بوقته من التاريخ الإسلامي والقضايا الإسلامية ، وأوجز ما يقال عن هذا الموقف أنه شمل الماضي والحاضر في عرض القضايا والمشكلات : فإنه يعرض منها وجهة النظر الإسلامية على أوفاها فإن لم تكن وجهة نظره بتفاصيلها فهو يبدى تلك التفصيات ولا يخفى شيئاً منها .

ولقد ألم في هذا الكتاب بمحالة حسنة عن نشأة الإسلام وسيرة النبي وبلاغة القرآن ووسائل نشر الإسلام ومشكلات العالم الإسلامي السياسية والفكرية ، ومنها مشكلة الفلسفة اليونانية والفرق الدينية وحروب الدول ثم حروب الصليبيين وغزوات الاستعمار والصهيونية ، وقد ندل على منهج الكتاب بنقل طائفة من آرائه نكتفى بترجمتها عن التعليق عليها ، لأنها تكاد أن تكون ترداداً لأراء المسلمين في مناقشة خصوم الإسلام ، وقل فيها ما يلجم القارئ المسلم إلى تصحيح أو استدراك .

قال عن إخلاص النبي ﷺ في دعوته : «كان محمد مقطوراً على التدين مستعداً بطبعته لرسالة الإصلاح التي تلقاها في رؤاه ومشاهداته الخفية ، وكان مع هذه الفطرة الروحانية رجلاً عملياً يفطن ببديهته لما انطوى عليه المزاج العربي من قوة وضعف ، ويدرك أن الآنة واجبة في تلقينهم أداب الإصلاح سواء منهم أهل المدن والوبار من الحاضرة والبسادية ، وقد تأصل في روعه إيمان بالتوحيد لا يتقبل الهوادة ولا المصانعة ، وعزيزه صادقة على استثصال كل أثر للوثنية التي فشت في الأمة العربية ، وقد كانت رسالة محمد مهمة هائلة جسمية لا يقدر عليها إنسان يصل في أعماله عن بواسطته المنفعة والأنانية ، ويرجو أن يتحققها بجهوداته أو بمساعيه الذاتية ، ولاشك البتة في بطلان تلك الأكاذيب التي تزعم أن الآيات

الموحاة إليه وليدة نوبات من الصرع كانت تتنابه بين أونه وأخرى . إذ ليس في وسع المصايب بتلك النوبات أن يتلقى فيها نسقاً من الكلام له ماللقرآن من العمق وانتظام التركيب . وإن الإخلاص الذي أدى به رسالته ، واليقين الراسخ في نفوس أتباعه بصدقه ، والامتحان الذي اختبرت به رسالته مدى السنين والأجيال ، لاهي من الدلالات على أن محمدأ . ﷺ - براء من شبهة الخداع والادعاء ، فما حدث قط أن خادعاً مدعياً . ولو كان من أصحاب العبرية . - بقيت له رسالة بعد ذهابه ، وهذا هو الإسلام باق بعد ثلاثة عشر قرناً يجذب إليه المؤمنين عاماً بعد عام ، وقد خلا التاريخ من مثل واحد على دعوى الخداع أفلحت في إقامة دولة شامخة وحضارة من أ Nigel الحضارات الإنسانية » .

وقال المؤلف يعلل للقراء الغربيين حيرتهم في فهم بلاغة القرآن وسر ذلك السلطان العجيب الذي يملك به قلوب المسلمين ، فكانت خلاصة تعليمه : إن الغربيين يجهلون مناسبات النزول وإن ترتيب الآيات على حسب مواقعها سبب من أسباب حيرة القارئ الغربي عند تلاوة القرآن ، وأن السور المطولة تنزلت في أخريات أيام النبي وفيها بيان الأصول الشرعية وقواعد الحكم وتدير الشئون العامة ، مما يتبعه القارئ الغريب فلا ينشط لقراءته وإنما يدرك هذا القارئ بلاغة الكتاب في قصار السور التي تنزلت بكلة واحتوت من حماسة الروح ما هو جدير بالانتباه والتوقير» .

وقال عن الحروب الصليبية : «إن أوربة كانت بحاجة إلى منفعتها من الفقر والمرض وجاءتها الدفعة إلى الهجرة من المغرب إلى المشرق من قبل شعوب النورمان والفرنجية ، ويبدو أن الوحدة الأوربية إنما كانت حركة من حركات الاستعمار غضى فيها البواعث الاقتصادية إلى جانب البواعث الدينية ، وإذا قيل : إن الحروب الصليبية كانت لها أثرها في ترويج التجارة بين المشرق والمغرب فالتجارة قد كانت خلية أن ترويج بغير هذه الوسيلة .

إن الصليبيين وجدوا في الشرق حضارة مادية وثقافية أرفع مما كانوا يعهدونه في معيشتهم ، وعادوا إلى بلادهم بشمرات شتى من الحضارة المادية كالسكر والحرير والعطور والأباريق والأصباغ ، كما أخذوا من الشرق تأسيس نظام العملة الذهبية ،

ومعاملات المصارف ، واستفاد الغرب والشرق معاً من تبادل الخطط في المسائل الحربية .

على أن العرب لم يستفيدوا كثيراً من اتصالهم بالصلبيين ، وكل ما عرفوه من معاملتهم أنهم جشعون متغصبون متهدوسون بمحنون القتال والتدمير .

وقال عن فضل المسلمين في إحياء الفلسفة : «إن قصة كشف المسلمين عن الفلسفة اليونانية ونقلها إلى الغرب لها فصل من أجمل فصول التقدم الإنساني من الجهلة إلى المعرفة ، وما كانت الخطوطات اليونانية بالشىء النادر في أرجاء القارة الأوربية قبل ذلك ، ولكن تلك الخطوطات كانت - أو معظمها - مدفونة منية يحللها الغبار في الأديرة ، ويقول لنا روجر باكون : إن حفاظ تلك الودائع بلغ بهم الجهل وقلة الاكتتراث لا ينتفعوا إليها ولم تكن لها ترجمات لاتينية ، وقد امتازت القسطنطينية على روما بوفرة هذه الخطوطات ومنها - ومن بلاد فارس - عرف العرب ما عرفوه عن الإغريق .

وقال عن مسألة العرب واليهود : «إن العرب - وهم ساميون - قد عاشوا في سلام مع اليهود الساميين وعطفوا عليهم لما ابتلوا به من مظالم النازية ، ولكنهم لا يفهمون لماذا يقفس عليهم وهم شعب فقير أن يحملوا وحدهم أعباء الغيرة الإنسانية التي يصطنعها الغرب لرعاية اليهود» .

هذه أمثلة من نظرة الكاتب إلى العالم الإسلامي في مسائل متعددة تبتدئ من تاريخه منذ صدر الإسلام إلى تاريخه الحاضر عند منتصف القرن العشرين ، ولستا نوليتها قيمة فوق قيمتها حين نقول : إنها ذليل من أذلة الاستعداد لاستيعان القوم عن الإسلام من مصادر غير مصادر التبشير والاستعمار ، وإن أحق المصادر أن يستمع إليه العالم شرقاً وغرباً وهو المصدر الإسلامي بكفالة أهله وذويه ، فليس من إنصاف المسلمين لأنفسهم أن يجح إنصافهم كله عند القوم مجاملة من الغرباء .

## فهم الإسلام<sup>(١)</sup>

اسم هذا الكتاب يدل على المقصود منه وهو فهم الإسلام وإفهامه للغربيين ، وأنهم كما يرى المؤلف لا يحتج إلى فهم هذا الدين منهم إلى فهم الأديان الأخرى ، لأن الأسباب التاريخية والسياسية معاً قد تضادرت على تحريره وتشويه صورته فيما نقل إليهم عنه قديماً وحديثاً ، ولأنه على خلاف غيره من الديانات الشرقية يشتمل على مزيج من العقائد السماوية والدينوية لامتناع هذا الامتزاج في تلك الديانات .

والكتاب الذي بين أيدينا منقول إلى الإنجليزية من اللغة الفرنسية مؤلفه فريشجوف شيون Frithjof Schuon الذي تخصص لشرح العقائد الشرقية في غير هذا الكتاب . ويقول الحكم الهندي (أناندا كومار سوامي) أنه واحد من فئة قليلة بين الأوروبيين قادر على نقل العقائد الشرقية إلى الغربيين نقلًا صحيحةً غير مشوب بالغرابة وسوء الفهم . ويقول الشاعر الإنجليزي المعاصر (إليوت) بعد اطلاعه على كتابه الأول إنه لم يصادف قبله كتاباً مثله في علم المقارنة بين الديانات الشرقية والغربية .

ونرى من مطالعة هذا الكتاب أن الحكم الهندي والشاعر الإنجليزي على صواب فيما وصفا به المؤلف من القدرة على شرح العقائد الشرقية بغير انحراف مقصود ، ولكننا لانحاله يشرحها لعامة القراء ولا لطلاب المعلومات والمادة «المدرسية» من تلك الشروح ، فإنه يكتب بأسلوب الفيلسوف المتصوف حين يكتب للفلاسفة المتصوفين ، ولا يهمه إحصاء الآراء والأقوال والواقع كما يهمه النقاد منها إلى «روح العقيقة» كما يبحث عنها طلاب الدراسات فيما وراء الطبيعة ، أو طلاب التأمل في المعلوم للترقى منه إلى «الجهول» الذي يستعان عليه بالنظر المجرد ولا يستعان عليه بالمنطق والمعرفة العلمية .

وتحظى طرقته في الشرح من تفرقته الجملة بين نظرية المسيحية ونظرية الإسلام إلى الإنسان .

(١) الأزهر نوفمبر ١٩٦٣ .

فال المسيحية عنده تقدم الإرادة على العقل ، والإسلام عنده يقدم العقل على الإرادة .

ويأتي كل فارق جوهري بعد ذلك من هذا الفارق «الأساس» بين العقائدتين .  
فإرادة الإنسان تسقطه وتجوّجه إلى غفران الخطية بال福德اء .

وعقل الإنسان يوجب عليه أن يدرك عمله ويدرك التبعة التي تلزمـه بين يدي ربه ، ثم يلهمـه كيف يتّمسـ الهدـاـية بالـنـظـر فيـما حـولـه وكـيف يـتـمـسـها بـعـونـة الله .  
وعـقـيـدـةـ المـسـلـمـ وـالـمـسـيـحـىـ فـىـ الـمـعـجـزـاتـ تـابـعـةـ لـهـذـاـ الاـخـتـلـافـ بـيـنـ تـقـدـيمـ الإـرـادـةـ  
عـلـىـ عـقـلـ وـتـقـدـيمـ عـقـلـ عـلـىـ الإـرـادـةـ .

فـالـمـعـجـزـةـ هـىـ الـوـسـيـلـةـ الـكـبـرـىـ لـتـقـرـيرـ إـرـادـةـ اللهـ أـمـامـ إـرـادـةـ الـإـنـسـانـ .  
ولـكـنـ الـاعـتـمـادـ عـلـىـ عـقـلـ كـانـ لـلـعـلـمـ بـإـرـادـةـ اللهـ مـنـ طـرـيقـ خـيـرـ طـرـيقـ الـمـعـجـزـاتـ ،  
وـإـنـ كـانـ لـأـيـغـلـقـ الـبـابـ عـلـىـ هـذـهـ الطـرـيقـ .

وـالـشـهـرـ عـنـ الـمـسـلـمـ أـنـ «ـقـدـرـىـ»ـ وـإـنـ بـالـغـ أـبـنـاءـ الـغـرـبـ فـىـ الـمـخـلـطـ بـيـنـ إـيمـانـ الـمـسـلـمـ  
بـالـقـدـرـ وـبـيـنـ سـلـبـ الـإـرـادـةـ وـتـغـيـرـيدـ الـإـنـسـانـ مـنـ صـفـةـ الـخـرـيـةـ .

أما الرأـيـ الـأـمـثـلـ فـىـ «ـالـقـدـرـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ»ـ فـهـوـ أـنـ هـذـهـ الـقـدـرـيـةـ هـىـ النـتـيـجـةـ  
«ـالـمـعـقـولـةـ»ـ لـإـدـرـاكـ الـمـسـلـمـ أـنـ «ـغـيـرـ إـلـهـ»ـ وـنـفـورـهـ مـنـ فـكـرـةـ الـخـلـولـ أوـ المـزـجـ بـيـنـ الـوـجـودـ  
الـإـنـسـانـيـ وـالـوـجـودـ الـإـلـهـيـ ،ـ وـمـنـ لـمـ يـكـنـ إـلـهـاـ فـلـيـسـ هـوـ الـقـدـرـ لـمـقـادـيرـهـ ،ـ وـلـاـ اـفـتـرـاقـ  
عـنـدـهـ بـيـنـ الـإـيمـانـ بـالـقـدـرـ وـالـإـيمـانـ بـالـقـدـرـةـ الـإـلـهـيـةـ وـاحـدـىـ لـواـزـمـهاـ الـقـدـرـةـ عـلـىـ الـعـلـمـ بـمـاـ  
يـكـونـ وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ الـعـلـمـ بـمـاـ سـيـعـلـمـ الـإـنـسـانـ قـبـلـ أـنـ يـعـلـمـهـ ،ـ وـقـبـلـ أـنـ يـعـلـمـهـ .

وـمـنـ لـواـزـمـ تـقـدـيمـ عـقـلـ عـلـىـ إـرـادـةـ أـنـ تـكـوـنـ مـعـجـزـةـ الـإـسـلـامـ هـىـ مـعـجـزـةـ الـتـىـ  
تـنـاسـبـ الـخـلـوقـ الـذـىـ يـوـصـفـ بـالـحـيـوانـ النـاطـقـ وـهـىـ مـعـجـزـةـ الـخـطـابـ بـالـكـلـمـ الـإـلـهـيـ  
الـبـلـيـغـ ،ـ وـهـوـ الـقـرـآنـ .

وـلـابـدـ لـلـقـارـئـ ،ـ إـذـ أـرـادـ أـنـ يـفـهـمـ وـسـالـةـ الـقـرـآنـ أـنـ يـذـكـرـ أـنـ كـتـابـ فـرـائـضـ وـكـتـابـ  
إـقـنـاعـ وـكـتـابـ هـدـاـيـةـ ،ـ وـأـنـ إـعـجـازـ فـيـهـ لـاـ يـرـجـعـ إـلـىـ فـصـاحـةـ الـلـفـظـ وـحـدـهـ وـلـاـ إـلـىـ  
تـسـقـيـةـ الـبـيـانـ وـحـدـهـ ،ـ وـلـكـنـهـ يـرـجـعـ إـلـىـ إـيـحـاءـ الـلـفـظـ وـإـيـحـاءـ الـبـيـانـ بـمـاـ يـعـجزـ كـلـ كـلـامـ  
«ـغـيـرـ إـلـهـ»ـ عـنـ إـيـحـاءـ بـمـثـلـهـ .

ثم يلخص المؤلف رسالة القرآن من الوجهة الفلسفية بأنها رسالة الإيمان والإسلام والإحسان ، وفيها - مع خطاب العقل بالمعانى الفكرية - مضامين تتطوى فى تلك المعانى ولكن المخاطب بها يفهمها كما ينبغي أن يفهم المباحث والرموز الفلسفية ، وهو باب للاجتهاد فى فهم الحقائق الغيبية على نهج المتصوفة وأصحاب الإشارات والتقاليد .

ومن تصريحات المؤلف لما يفهم الغربيون عن الناقب «الشخصية» التي اتصف بها النبي ﷺ أن مصدر الخطأ في هذا الفهم تصورهم للرسول الدينى على صورة واحدة هي صورة بوذا والسيد المسيح ، وهي صورة تحيط بها حالة من غير هذا العالم الإنساني لما فيها من محو الذات ومحو العلاقات الدينوية .

لكن «محمدًا» ﷺ لم تكون محتويه هذه الهالة من غير العالم الإنساني ، لأنه رسول شريعة وصاحب جهاد في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى ، ومثاله من صور الرسالة الدينية ، إنما هي صورة إبراهيم وموسى عليهما السلام ، مع تفاوت الأفق والمجال .

وللمؤلف تفسير «فلسفى» لعظمة النبي ﷺ كما توحى بها العقيدة الإسلامية .

فهو صلوات الله عليه مثال «الإنسان الكامل» الذي لا مرتقى بعده لدرجات الكمال في بني الإنسان ، إلا أنه ليس بمثال الإنسان الكامل وحسب على هذا الاعتبار ، بل هو ككل ذلك مثال الإنسان القديم أو الإنسان الخالد على صورة الله .

فإذا كان كمال الإنسان جامعاً له بين الفضائل السماوية والفضائل الأرضية فالقدم أو الخلود مناط الفضائل منذ الأزل قبل أن تنفصل السماء والأرض وقبل أن تعرف للكتانات فكرة سماوية مقابلة للفكرة الأرضية ، أو فكرة أرضية مقابلة للفكرة السماوية .

وين هاتين الصورتين : صورة الإنسان الكامل وصورة الإنسان القديم ، يقيم المسلم عظمة نبيه صلوات الله عليه ، ويتحلى به مثلاً للإنسانية في صورتها على صورة غير الصورة التي يتمثلها الغربيون لبوذا أو للسيد المسيح .

يقول المؤلف بعد سطور في مفتتح كلامه عن النبي ﷺ : «إن الذي يطلع

اطلاعاً وافياً على سيرة محمد من مصادرها المأثورة ترتفع أمامه ثلاثة عناصر قد تتلخص في هذه الصفات الثلاث : التقوى والجهاد والمرءة ، ومفهوم تقواه أنها حب الله بكل قلبه شعوراً منه بما يعلو على الوجود وبالصدق الحسن والإخلاص السليم ، وهي صفة عامة مفروضة في جميع الرسل الإلهيين ، تذكر بصفة خاصة لأنها في الإسلام عنوان مقدم على الجو الروحاني فيه .

«وهنالك غزوات جهاده ، وهى إذا عزلناها عن صورة العنف فى الحروب تدل على عظمة روحانية فوق فرع الإنسانية ، ثم العلاقات الزوجية وهى منفذ مقدر إلى الحياة الأرضية الاجتماعية ولا تزيد أن تقول الدينوية العالمية ... ولم تخل هذه العلاقات من ناحيتها السياسية التى تزيد بها معناتها المقدس عند النظر إلى إقامة مدينة الله على الأرض ، وقد بروزت فى حياة محمد دلالات كافية على العفة والتزاهة بخاصة فى أيام الشباب حين يشتند جمام الشهوات» .

ثم يقول : «ويصح أن يقال إن روح النبي قد جابت من النبل والصفاء ، وأولهما يجمع القوة والكرم ، وثانهما يجمع القناعة والاستقامة ، وقد كان مسلك النبي فى طعامه ومنامه مسلك القانع القرم ، ومسلكه مع النساء مسلك الكرم والمرءة» .

والكتاب يدور على فصول أربعة بعد المقدمة ، أولها عن الإسلام ، وثانية عن القرآن ، وثالثها عن النبي ، ورابعها عن الطريق ، وهو عنوان شامل لكتابه عن التصوف الإسلامي مع المقارنة بينه وبين تصوف الهند وتصوف المسيحيين .

ونحسب أن القارئ قد لمح معنا أن مؤلف الكتاب ينتهي بالفصل الأخير عن التصوف إلى مجاله الواسع الذى ينطلق فيه قلمه على مدى عنانه ولا يتعد كثيراً عن فهمه عن طريقته فى فهم الإسلام إذا قلنا إنه يتكلّم فى التصوف كما يتكلّم فى مذهب يؤيده ويجتنب إليه ، وإنه - إن لم يكن مؤيداً له جانحاً إليه - فليس له تأييد لغيره من المذاهب أكبر من هذا التأييد .

فالتصوف الذى يشرحه المؤلف فى فصله الأخير هو التصوف الذى يتميز بالنظر إلى الحياة الإنسانية نظرة « الإيجاب » والثبت ولا يطمع بالعادى المتضوف إلى غاية نهايتها الفناء وقد ان وعى الوجود .

والله - جل وعلا - هو في هذا التصوف حقيقة الحقائق التي يبطل ما عدتها بطلان الوهم الزائف ، ولكن البطلان هنا غير الباطل الزائف الذي ينتمي إليه تقىض الملائكة الإلهي في علامة الشيطان .

فالكائنات الموجودة في عالم المادة تزول وتتولد من معدن الزوال ، ولكنها ليست بدنس ولا زيف ولا هي بالبطلان المسوخ في أصل التكوين ، لأن العايد المتتصوف ينبغي أن يرى فيها معرضًا لجمال الله ولقدرة الله ولشبيه الله ، وينبغي أن تكون عنده صورة لتجلى الخالق حيث لا مطمع للمخلوق إلى ما فوقها من آيات الجلال والجمال ، فإنما يطمع وراء هذا المطعم ، من عرف في كل شيء آية تدل على الواحد الأحد الذي لا تدركه الأ بصار .

ولا ينسى الكاتب تفرقته بين الإرادة والعقل حين يعرض للفوارق بين تصوف المسيحية وتصوف الإسلام ، فإن كلماته في هذا الباب هي أجمع ما عرض له في كتابه من وجوه المقارنة بين الديانتين ، مع احترامه لكل منها احترام السماحة والإنصاف .

وهذه هي عبارته التي ختم بها هذه الخلاصة لبحثه الشائق :

«إذا كان الإنسان إرادة فالله سبحة» .

«وإذا كان الإنسان عقلاً فالله حق» .

«وحين يكون الإنسان إرادة تسقط بلا قوة ولا ناصر ، تكون محبة الله هي الخلاص» .

«وحين يكون الإنسان عاقلاً يضل ويختبط في الظلمات ، فالله هو نور الحق الذي يهديه ، لأنه من شأن المعرفة أن تنهض بالعقل إلى ذرة الحق الذي يفيف علىها الصفاء والحرية» .

«إن الحب الإلهي يحقق إنقاذه بأن يتنزل إلينا ليعرفنا» .

أما الحق الإلهي فإنما يتحقق إنقاذه بأن يعيد عقلنا الطبيعي إلى مصدره فوق الطبيعة ، وهو عائد من ثم إلى صفاته الأولى ، وإلى الأفق الذي يدرك فيه أن الحقيقة المطلقة هي كل شيء وأن العوارض دونها ليست بشيء .....

## الإسلام بين أديان الأمم<sup>(١)</sup>

يقول مؤلف هذا الكتاب<sup>(٢)</sup> في مقدمته إنه يود لو استطاع الناس أحياناً أن ينظروا إلى جلائل الأمور ودقائقها بأعين غيرهم . فإنهم يصححون بذلك آرائهم وأراء غيرهم ، ويرون تلك الأمور من جوانبها المتعددة فلا يقنون منها عند جانب واحد .

ويقول في تلك المقدمة إن بعض القراء المحدثين قد تعودوا أن يصطنعوا قلة الاكتراث للديانة في أفكارهم وفي أعمال حياتهم ، فهولاء خليقون أن يعطوا الديانة حقها من الاكتراث إذا عرموا مبلغها من الجد ومبلغ العناية بها والغيرة عليها عند أصحاب الديانات الأخرى .

وعلى هذه الخطة التي غناها لقراءه جرى في تأليف كتابه هذا عن ديانات العالم الكبير ، وهي البرهمية والبوذية ومذهب كنفشيروس ومنهب الطاوية في الصين ، والإسلام واليهودية واليسوعية .

وقد حاول جهده في الحق أن ينظر إلى الإسلام ، وهو الذي يعنينا في هذا المقال ، نظرة كاتب لا ينحصر في عقيدته ولا يتعصب عليه خلافته إياه بتفكيره أو بيمانه ، فسار على منهج المؤلفين العلميين الذين يخجلون أمام قرائهم من تشويه الحقائق وتبديل الواقع مجازاة للموى الجهل في تعصيهم الأعم ، أو لذوى الطمع في سياستهم التي لا تعمى عن مصالحها ولكنها تفتح عيونها جميعاً لشء واحد لا ترى سواه ، وهو اقتناص الفريسة واغتنام الأسلاب .

وهذا هو الكتاب الثالث من كتب المؤلفين التي نذكرها في هذا الباب على هذه الخطة من «المخيلة العلمية» في مسائل الأديان ، ويعنينا من هذه الخطة أنها تدل على استعداد في العقول بين قراء اللغات الغربية حقيق بالتفات المسلمين إليه ، لأنهم - دون غيرهم - أقدر على البلاغ والإبلاغ في أمر الإسلام ، وعندهم من الدراية به ومحاسنه ما ليس عند أحد من كتاب الغرب ، فصاروا أن يتتجنب في شرحه وتبليله أن يفتري عليهم التهم والعيوب .

(١) الأزهر مايو ١٩٥٩ .

(٢) «ديانات الإنسان» ، للدكتور هشتن سعيد .

اسم الكتاب باللغة الإنجليزية «ديانات الإنسان» The Religions of Man ومؤلفه الدكتور هستون سميث Huston Smith أستاذ الفلسفة بالجامعات الأمريكية ومحرر أبوابها في المجالات الأدبية ، ولد في الصين وعاش في الشرق ، وعاش في بلاد الأم التي درس أدیانها وكتب عنها في هذا الكتاب .

بدأ كلامه عن الإسلام بتصحيح الآراء عن معنى اسمه كما يفهم المعنيون بالإسلاميات من النازرين وعامة القراء ، فقال إن اسم «الحمدية» الذي يطلقه الغربيون على الإسلام يغضب المسلمين إذا أريد به نسبة الدين إلى محمد عليه السلام ، فإن تسمية «المسيحية» بهذا الاسم معقولة عند أتباعها الذين يدينون يلاهية المسيح وصدر العقائد من قبله ، ولكن «الحمدية» مثل هذا المعنى اسم لا يقبله المسلم وهو يؤمن بأن «محمدًا» بشر يوحى إليه ، وأنه لا يملك مع الله شيئاً في دينه ولا دنياه .

وليس فهم الإسلام يعني الاستسلام أو خضوع المقاتل لمن ينتصر عليه صحيحاً في مدلوله ، وإنما أصل الكلمة من السلام والإنابة إليه ، ومدلول الإسلام على هذا هو «سلام الروح الشامل بتسليم حياة الإنسان جمِيعاً إلى الله» .

قال : إن محمدًا قد ظهر في زمان تحسب فيه العجزات بضاعة لازمة لا يعجز عنها أصحاب الولایة فضلاً عن أصحاب النبوة والرسالة .

ولكن أبي لدعوته أن يجعلها تجارة بهله البضاعة ، ونادي غير مرة أنه يبشر وينذر ولا يتوصل إلى الهدایة بأية معجزة غير آيات الكتاب المبين : «قل لا أقول لكم عندي خزانة الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنما ملك إن اتيتكم إلا ما يوحى إلى ، قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أفلأ تتفكرون» .

قال : وإن أثر دعوته آية من آيات التاريخ لا يعرف لها مثيل فيما وعاه من أطوار الأمم قبل الدعوات الدينية وبعدها ، إذ لم يسبق فيما عرف من هذه الأطوار أن دعوة نقلت الأمم من حال إلى حال كما نقل الإسلام قبائل الجزيرة العربية إلى تلك الحضارة التي ارتقى إليها أتباع الإسلام خلال سنوات معدودات .

وقد حكم النبي قومه في جزيرتهم وقام بالأمر زمناً في المدينة « فهو هنا ملك .. لا على قلوب فئة من الخبيث المخلصين وحسب ، بل على حياة مدينة مجتمعة ، هو

قاضيها وقادتها ، وهو كذلك معلمها وهاديهما ، وإن أعداءه أنفسهم ليعرفون باضطلاعه بهذا العمل الجديد في براعة وكفاية ، وقد واجهته خطوب معقدة نادرة فإذا هو يواجهها بقدرة نادرة على التدبير والإدارة ، وقد أصبح قاضيها الأعلى ولكنه ما يرجح كما كان أيام خفاه أمره بنجوة من الزهو والبذخ ، وكان في وسعه أن يملك الثبور والقصور ولكنه ارتضى له ولاهله بيتاً من الطين يحلب فيه معزاته بيده ويستقبل من شاء من صغار أتباعه ليل نهار ، وكثيراً ما كان يُرى وهو يصلح ثيابه ..

وقد حفظت عنه مأثورات أخباره أنه كان في حكمه يجمع بين العدل والرحمة ، يعاقب من جنى ويفخر لمن أساء إليه .. ويرى فيه أهل المدينة ولباً لا يملك من يتولاه إلا أن يدين له بالحب والطاعة .

يقول الدكتور سميث : «إن الخاتمة المميزة للإسلام لاتقوم على الأمثلة العليا التي يرفعها أمام أتباعه بقدر قيامها على الوسائل العملية التي يرشد بها المسلم إلى إدراك تلك الأمثلة العليا » ولو كان بنو الإنسان قد بلغوا في عهد المسيح درجة من الارتفاع تمكنهم من الفطنة لمزيد من التهذيب لجعل أفكاره كما قال «أمير على» قائمة على نظم مفصلة ، ولكنه في الحالة التي وجد العالم عليها قد أبقى ذلك - على قول «أمير على» ليتولى تنظيم القوانين الأخلاقية ».

وقد أورد المؤلف هذه العبارات من أقوال الكاتب الهندي في سياق شرحه بأنه يصلح بها فكرة لا يعرض عليها ولا يناقشها ، ولكن يعبر عن رأيه حين يصف الوسائل العملية التي توصل بها الإسلام لصلاح الأحوال الاجتماعية ورياضة الأم على قوانين الأخلاق والمرءة ، وينوه المؤلف بالزكاة منها إلى مقدارها بالنسبة المثوية للثروة المملوكة ، فليست هذه النسبة محسوبة بقدر الربح والمورد المتتجدد ، ولكنها في جملتها تصل إلى جزء من أربعين جزءاً من الثروة المملوكة على اختلاف الممتع والخطام ، وهو مقدار كاف لسداد خلة المجتمع في هذا الباب ، ولا يقل عن الزكاة شأنها في سياسة المجتمع ورياضته على الأخلاق الصالحة أن الإسلام يقرن الملكية بالعمل ويحرم الربا الذي كان يتوارد أيام الجاهلية أضعافاً مضاعفة بغير عمل يعمله صاحب الدين ، وشبّيه بهذا الحكم في سياسة المجتمع توصية الإسلام

بتداول الشروة وكراحته لحصرها واحتكارها ، وإيجابه على المسلم أن يعمل للأمة عملاً يستحق به لقنته من الطعام ، فلا يعز عليه أن يجib إذا سُئل وهو يتناول غذاءه : «هل صنع للناس شيئاً يستحق عليه أن يأكل ما بين يديه؟» .

ويمضي المؤلف على أسلوب كهذا الأسلوب في شرح معلوماته عن الديانة الإسلامية ، ولكنه يكاد ينتقل من الشرح - على مثل هذه الحيدة - إلى الدفاع عن قضية المرأة في الإسلام ، فإن في هذه القضية امتحاناً عسيراً لأنصار الكتاب من الغربيين كلما عرضوا المشبهات الشائعة عن الأداب الإسلامية ، فمن كان منهم سبع النية لم يعسر عليه أن يجاري نيتهم السيئة في كلامه عن هذه القضية دون أن يتورط في الادعاء المخالق والأفتراء المكشوف ، وقد يصطدح الانصار ظاهر إذ كانت هذه المسوغات تخفى على كثير من قراء الغرب الذين يجهلون حالة العالم قبل الإسلام في بلاد العرب وفي غيرها من البلاد الشرقية ، وكل ما يعلمونه أن هذا الدين قد أباح تعدد الزوجات وأمر بالحجر على النساء ، وأن شرائع العهد الحديث عندهم تحرم هذا وذاك ، فمن شاء أن يسيئ النية ذكر الأحكام ولم يكلف نفسه أن يقابل بينها وبين ما كان من قبل وما يكون الآن حيث لا تسرى تلك الأحكام ، وهذا هو الصمت الذي يشبه الاختلاق الصريح مع النية السيئة ، وإن لم تظهر فيه دلائل الاختلاق المقصود .

لقد كان للدكتور سميث فضيله في اختيار موقف غير هذا الموقف المريب أو الموقف الصامت من قضية المرأة في الإسلام ، فإنه بدأ بتقرير الواقع عن زواج البخارية فقال : إن المسألة هنا لا تدور على الكثرة والقلة في عدد الزوجات ، لأن الزواج لم تكن له قداسة ولم يكن في الحقيقة زواجاً مرعياً الحقوق ، بل كان ملكاً كملك الرقيق وكان للرجل بعد الزوجة الأولى والثانية أن يتحصل بمن شاء من النساء ، وإنما تدور المسألة هنا على مكان المرأة في الاعتبار والكرامة وعلى حقوقها في بيتها وبين أهلها وقومها ، وهذه هي المسألة التي يظهر فيها فضل للإسلام لا يستهان به ولا يقبل الإنكار .

قال الدكتور سميث : «إن الإسلام - مجرد كونه أباح تعدد الزوجات - قد انهم بتحقير المرأة ، فإذا نحن نظرنا إلى المسألة بحكمة الزمن الواجبة مقابلين بين منزلة

المرأة قبل النبي وبعده فالتهمة باطلة ، إذ كان عقد الزواج أيام الجاهلية من الوهن والوهن بحيث يكاد لا يعترف به ، وكانت الاتفاقيات الموثقة تبرم وتنقض كل يوم ، والنساء محسوبات في حكم الماشية يجوز للأباء والأزواج أن يتصرفوا بأمورهن كما يحبون ، ولم يكن للبنات وراثة ولا حق من الحقوق ، وكثيراً ما كانت البنات الوليدة تدفن في طفولتها ، وعلى هذه الحالة التي كانت ولادة الأنثى فيها نكبة من النكبات البغيضة ، جاء الإصلاح الاجتماعي على يد محمد صلوات الله عليه فرفع من شأن المرأة كثيراً ، وأمتنع وأد البنات ، وأعطين حقاً من الميراث لا يساوي حق الأبناء - نعم ولكنهن إزاء ذلك مغافلات من تكاليف البيت ، وذلك من قضاء العدل عنده ، عليه السلام .

أما حقوق المرأة المدنية في التعليم والانتخاب والعمل فالقرآن يفتح لها أبواب المساواة التي تناطها كلما تقدمت الأمم الإسلامية في عاداتها ومعاملاتها ، فإن كانت المرأة المسلمة لم تزل تلك الحقوق بعد قرن أو بضعة قرون كما نالتها المرأة الأوروبية وهذه أيضاً لم تزل حقاً منها قبل عصر الصناعة الحديثة ، وإنما نالت هذه الحقوق من الديموقراطية لا من الدين ، فلم يجز - كما يقول المسلم - أن يكون الإسلام مسؤولاً عن هذه الحال .

«ويأتي الإسلام في نظام الزواج بأكبر مساعدة له في قضية المرأة ، فإنه أحاط عقد الزواج بقداسته إذ جعله دون غيره رابطاً للعلاقة المشروعة بين الجنسين في ديانة تعاقب الزاني بالرجم ، ولا يزال الفتى حتى اليوم يراقص فتاته مواجهة ولا يمس جسدها لأنه منوع بغير زواج ، وليس لاتهام الإسلام بين بعض الغربيين بأنه دين سهلة في علاقات الجنس موقع صواب في السمع ولا مراء ، والمساهمة الأخرى في الإسلام في قضية المرأة أنه يعطيها حق الموافقة على زواجهها ، فلا يستطيع حتى السلطان ، أن يبني بها كرهاً على غير قبول منها ، ثم يأتي الإسلام بيشاق مكين للرابطة الزوجية وإن لم يمنع الطلاق منعاً باتاً ، إذ هو حلال ينفيض في أدب النبي صلوات الله عليه ، وإنما يلتجأ إليه كما يلتجأ إلى آخر الحلول فما من شيء يبغضه الله كما يبغض التفرقة بين الزوجين ، وقد أوجب من التدبير الشرعي ما يصون عقد الزوجية ، إذ أوجب على الأزواج قبل الزواج أن يدخلوا حصة كافية

باسم المرأة تؤول إليها عند الطلاق ، ويحصل الطلاق بعد الاحتکام إلى الأهل والمصالحة على الوفاق وفترات من المهلة والإنتظار ، مما يردد به الإقلال من دواعي الفصل بين المرأة وزوجها جهد المستطاع ، ويحق للمرأة كما يحق للرجل أن تعتمد إلى هذه الوسائل للتوفيق .

«وتبقى بعد ذلك مسألة التعدد ، فيسمح للمسلم بعدم من الزوجات تختلف الأحوال في حالات جوازه ، وإن كان لا خلاف على الحالة الفضلى وهي الاكتفاء بالزوجة الواحدة استناداً إلى نص القرآن على وجوب العدل بين الزوجات وصعوبته مع الحرص عليه ، ولما كان العدل في القرآن لا يقتصر المساواة على الأمور المادية بل يشمل المودة والعطف والرعاية فمن الواضح أن القرآن يفضل الاكتفاء بالزوجة الواحدة في عموم الأحوال ، كما كان مفهوماً منذ القرن الثالث للهجرة ويزداد الأخذ به مع الزمن ، وقد ينص على ذلك في العقد اجتناباً للخلاف وتعهدآً من الزوج ببقاءه على شرطه ، أما الآيات الآخر التي تحبز للمسلم أن يجمع بين اثنين إلى أربع ولا يزيد - والنبي قد عدد زوجاته - فإنها إذا أباح بها بعضهم أن يجمع بين عدد من الزوجات في جميع الأحوال لغير ضرورة فالجماهير المتزايدة من المسلمين ترى فيها مثالاً لمرونة الإسلام واحتياطه مختلف العوارض والضرورات ، إذ لا تخلو هذه الدنيا على ما هي عليه من نقص وخلل من حالات شتى يكون فيها تعدد الزوجات خيراً وأسلام من الحالات الأخرى ، وقد يحدث أن تصاب الزوجة بمرض يقعدها ويعطلها عن واجباتها البيتية ، كما يحدث في أعقاب الحروب أن يربى عدد الإناث على عدد الذكور ، وربما أشار المثاليون في أمثال هذه الظروف بحل من حلول البطولة العالمية يعتضم بها الرجال ، إلا أن البطولة العالمية ليست من الشرائع التي تعمم بين الألوف من العامة والخاصة ، وإنما الخيار في المسألة بين زواج متعدد ينهض ببعاته ويصون حياءه وبين تعدد في العلاقات على غير شرع وغير تبعه . . .

\*\*\*

وأعم من شبہات الغربيين على قضية المرأة في الإسلام شبہاتهم على القدرة أو الاستسلام «للقسمة» و«المكتوب» و«المقدر» الذي يجعل المسلم في رأيه كالمجر الملقى أو الآلة المسخرة لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا يختار لها مصيرها

إلى الصلاح أو الفساد . وقد راق بعض المتعصبين منهم أن يتهموا الإسلام بهذه «الأالية» العقيمة ، وأن يعيروا عليه مع ذلك أنه الدين الذي يدعو أتباعه إلى حمل السيف وقتل الحياة وهذا غاية ما يقدم عليه الإنسان في حياته من سعي وهمة ، وطاب لهم أن يجعلوا الإسلام مسؤولاً عن هذين النقيضين لأنهم يريدونه مسؤولاً عنهما على أية حال .

هذه الشبهة على القدرة الإسلامية بما عرض له صاحب هذا الكتاب وجاؤز فيه حد «الصمت» والخيبة المريرة ، فقال : إن المسلم يؤمّن أشد الإيمان بعظمته الله وقدرته وسلطاته في خلائقه ، ولكنّه يحمل تبعته ويحاسب نفسه على هدایته وضلاله ويعلم من آيات كتابه الكثيرة أنه صاحب إرادة يتوجه إليها الخطاب من الله «فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها» .

إلا أن العترة الكبرى أمام هذا المؤلف وأمام غيره من كتاب الغرب ، من يعرف منهم العربية بعض المعرفة ومن يجهلها كل الجهل ، إنما هي عشرة الحكم على بلاغة القرآن وبلاعنة العربية على عمومها في شعرها ونشرها وفي كلامها المطول وكلماتها الوجيز ، ومنه ما يرتفع في البلاغة إلى الترورة التي لا يعلى عليها في كلام معروف بين أبناء الحضارة .

وقد أشرنا إلى هذه «العترة الكبرى» عند تلخيصنا لكتاب الأنجلوس الإسلامية ، ونعود إلى الإشارة إليها بصدق التعليق الصريح الذي أورده مؤلف هذا الكتاب بعد روایة بعض الآراء الغربية المتواترة في هذا الموضوع ، ومنها آراء أناس يحسنون القول في رسالة النبي ﷺ ، ويودون لو استطاعوا أن ينفلوا إلى أسرار الإعجاز القرآني كما يحسها المسلمون من المطلعين على روابط البلاغة عند الغربيين . ونحن نعتقد أن القوم معذورون في حيرتهم لسبب غير سبب الخالفة في الدين ، أو الخالفة في النظر إلى مصدر الكتاب الكريم ، فلن نقول - فيما نرى - أشبه بين يقرأ الكتابة بالصور ولا يخلص منها إلى مدلول تلك الصور من الحروف الأبجدية ، وكأنهم لا يرون في عصر الصور «الهيروغليفية» بعد أن أصبحت هذه الصور حروفًا تتألف منها المعاني والكلمات ولا تختلف العين إلى أشكالها وأشباهها إلا وهي عابرة سرعة إلى الكلمة المركبة من رسوم تلك الأشكال والأشباه .

إن الجيم - مثلاً - لا تزال حافظة لشكل الرقبة التي تدل على الجمل ، ولكن القارئ العربي لا يفكر في الجمل وهو يقرأ الجيم ويضم إليها الميم واللام ، وكذلك نفعل نحن قراء العربية حين نعبر التشبيهات بالشموس والأقمار والبحار والأغصان وسائر المجازات التي تحكى لنا معانيها بالإيماء والإيحاء . فنحن نفهمها بدلولاً عنها - مباشرة - ولا تتوقف عند أشكالها ورسومها المحسومة للمعيون والأسماع ، أو نحن كما تقدم نعبر دور الصور الهميروغليفية إلى دور الحروف والمقطاع والكلمات ، ولا نشعر من أجل هذا بالخيرة أو الريكة العقلية والحسية كلما عرضنا تلك التشبيهات المجازية وهي تتتابع أمامنا واحدة تلو الأخرى بصورها الذهنية مجردة من صورها المحسومة للأبصار والأذان ، وعلى هذا النحو يسمع المؤلف الذي يتلقى الإشارات البرقية شرطات ونقطاً يتبع بعضها بعضاً على عجل وهو يكتب على الورق حروفاً وكلمات يفهمها على الأثر كأنه يستمع إلى متكلم في المذيع ، ولعل المرأة صائعة في «تبليغ» البلاغة العربية إلى أذهان الغربيين ما يعينهم على تقدير الآيات المعجزة التي يحذرون في تعليل إعجابنا بها واستيلاثها على شعورنا ، وإن كانت المرأة وحدها لا تغنى عن غناه السليقة المطبوعة والنشأة الطويلة والتلقين المسموع والمرور .

\*\*\*

ويختتم المؤلف كتابه بنظرة شاملة إلى مستقبل الإسلام بين الأديان ، فيقول : إنه في هذا العصر - كما كان في العصور الغابرة - أسرع الأديان إلى كسب الأتباع المصدقين ، وإنه على الرغم من قلة دعاته وكثرة الدعاة إلى المذاهب المسيحية تقاد نسبة الداخلين فيه بين الأفريقيين تساوى نسبة عشرة إلى واحد من يتحولون عن عقائدهم البدائية إلى الأديان الأخرى . ويهمنا من تقدير المؤلف لانتشار الإسلام في الصين أنه ولد هناك وأشتغل بشئون العقائد على لوس طاق ، فهو أحري أن يستمع إليه وأن نتبين من تقديره أن مصادر الإحصاء الرسمية تتعمد المبالغة في الإقلال من عدد المسلمين من أهل الصين ، وقد وضع ذلك كل الموضوع من تقديرهم كلهم بنحو عشرة ملايين كما جاء في بعض الإحصاءات المرجبلة وهم يقاربون مائة مليون أو يزيدون ، فإن حسبنا للمبالغة حسابها في الإحصائيين فالتوسط بينهما أقرب إلى التقدير الصحيح وأولى أن ترجحه هذه الملاحظة -

ملاحظة الزيادة المطردة في عدد المسلمين - يبادلها خبير متخصص بالأمر الشديد العناء بأحوال الديانات والمتدينين .

إن للمسئولين عن مستقبل الإسلام في عصرنا هذا عملاً يلحق في جلالته وعظمته بعمل أمثالهم في عصر الدعوة الأولى ، ونحسب أننا نفيد من أقوال شرائح لأم الغرب فائدة تساوى عنا ، الاطلاع على تلك الأقوال إذا تيقظنا في أوان اليقظة لتلبية الدعوة المقبلة .

إن الأسماء مفتوحة من حولنا ، والسامعون يقبلون علينا . فهل من مسمعين ؟

## الإسلام دعوة عالمية<sup>(١)</sup>

في العدد الأخير<sup>(٢)</sup> من مجلة الأزهر عقبنا على المقالين اللذين نشرتهما مجلة «التاريخ اليوم» الإنجليزية للأستاذ سوندرس الحاضر الأول بقسم التاريخ في جامعة نيوزيلاند، وقد جعل عنوان المقالين «الخلفية عمر المستعمر العربي»، وذهب فيما إلى أن ابتداء انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية إنما كان من عمل هذا الخليفة ولم يكن عملاً داخلياً في برنامج الدعوة الخدمية . . . لأن محمدًا عليه السلام لم يفكر في دعوة أحد غير العرب إلى الإسلام .

وكان موضوع التعقيب أننا أخذتنا على الكاتب دعوه هذه وقلنا أنها ، مع حسن النية ، سوء تطبيق لعلم المقارنة بين الأديان ، التماساً لوجه الشبه التي لا وجود لها بين الدعوة إلى الموسوية والدعوة إلى المسيحية والدعوة إلى الإسلام ، فإن أتباع موسى عليه السلام قد دخلوا أرض الميعاد بعد وفاته ، وأتباع عيسى عليه السلام هم الذين قاموا بتوجيه الدعوة إلى العالم بعد حصرها في بني إسرائيل فينبغى على هذا القياس ذهاباً مع شهادة المقارنة بين الأديان في غير موضع للمقارنة أن يكون خلفاء النبي هم الذين نشروا الإسلام بين الأمم غير العربية ، ولم يكن ذلك من برنامج محمد ﷺ ولا من أصول رسالته إلى قومه .

أما إذا ساءت النيات ، وما أكثر الدواعي إلى سوء النية في كتابة تاريخ فلسطين . . فقد يفهم من كلام الكاتب أن دخول الإسلام إلى فلسطين إنما كان عملاً من أعمال الاستعمار العربي ولم يكن هدافية دينية خالصة لوجه الله ، ويرد هذا على الخطأ - قسوًّا - إذا أطلع القارئ في العدد نفسه على مقال مسهب عن دخول اليهود إلى فلسطين ، ليتخذوها مأوى لهم وموطنًا موعودًا من عهد الخليل ل Ibrahim .

(١) الأزهر أغسطس ١٩٦١ .

(٢) عدد يوليو ١٩٦١ : انظر المقال السابق .

وقد وصل إلينا عدد شهري يونيو من المجلة الإنجليزية فقرأنا فيه تصحيحاً للدعاوى الأستاذ النيوزيلندي بقلم الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية ، أشار فيه إلى الأدلة الكثيرة التي ثبتت دعوة الإسلام العامة ، ثم قال : «إننا إذا تركنا هذه الأدلة جانبياً واكتفينا بالنظر في القرآن الكريم وحده فهناك أكثر من أربعين آية يذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين ، وهذا عدا الآيات التي ذكر فيها بالنص الواضح أنه ﷺ قد أرسل إلى الناس كافة ، وأن القرآن قد تنزل عليه ليقرأه على الناس» .

وقد أحالت المجلة هذا الرد إلى الأستاذ سوندرس فعاد يقول : إن هناك أدلة تفيد أن محمداً «صلوات الله عليه» قد أراد بدینه أن ينشر على الناس ، كما أن هناك أدلة أخرى تفيد أنه لم يفعل ذلك ، فهي إذن مسألة من مسائل الشك لا يقطع فيها بأى القولين .

قال : «أما أن محمداً قد أمن بأن الله هو إله الجميع فليس محل مناقشة ولكنه ليس بوضع البحث فيما نحن بصدده ، ولنا سند من القرآن نفسه حيث ترد الآيات التي يمكن الاستدلال بها على القولين ، فقوله في أول سورة الفرقان : «**تبارك الذي نزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيراً**» قد يقابلها في سورة القصص قوله : «**لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون**» وهو يشير - كما هو واضح - إلى العرب ، ومثله قوله في سورة الشورى : «**وكلذك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتتنذر يوم الجمع لا رب فيه**» فإنه يدعو إلى التساؤل عن القرآن العربي هل يخاطب به أناس غير المتكلمين بالعربية .

قال : «إن الأوروبيين المتخصصين للإسلاميات ينقسمون انقساماً شديداً في هذه المسألة ، فإن موبيز يرى أن الدعوة من البداية إلى النهاية كانت دعوة للعرب وحدهم ولم يدع بها أحد غيرهم ... ولكن ولذلك وجده زيهراً وأرنولد ... وكلهم ثقاث ... يقولون أن محمداً ﷺ أراد بدینه منذ أوائل الدعوة أن يكون ديناً عالمياً ولم يرد به أن يكون مجرد عقيدة وطنية محلية ، ونقول : إنه لو كان قد ثبت أنه كتب إلى هرقل وملك الفرس وغيرها من الملوك يدعوهم إلى الإسلام لاتتفى الشك بالواقع ، ولكن

آراء الباحثين - مع الأسف - لا تقبل إلى قبول هذه الأخبار، وموتنغومري وات يقول : إن هذه القصة لا يمكن أن تقبل على حسب هذه الروايات» .

ثم ختم جوابه على تعليق الاستاذ الشريف قائلاً : «وحنّدنا صعوبة كهذه في أمر المسيحية ، فهل كان المسيح عليه السلام ينظر إلى نفسه كأنه صاحب ديانة جديدة كما جاء في متى حيث يقول : اذهبوا وعلموا جميع الأمم؟ أو كان ينظر إلى نفسه كأنه مصلح لليهودية ليس إلا وأنه ما جاء إلا لهداية خراف إسرائيل الفسالة؟ وأحسب أنني أمام هذا الخلاف قد كنت متحرزاً حيث قلت : إن البرهان القاطع غير موجود» .

والامر البين بعد قراءة هذا الجواب أن الاستاذ لم يكن متحرزاً كما قال في ختام جوابه ولكنـه - كما قدرنا - قبل الاطلاع على هذه المقارنة بين الدعوة المسيحية والدعوة الخمديـة في كلامـه الاخير كان منساقاً مع إغراء المقارنة في غير موضع للمقارنة ، فلم يظهر له الفارق الشاسع بين موقفـ الخلافـاء من الدعـوة الخـمـديـة و موقفـ بولـس الرـسـول وإخـوانـهـ من الدـعـوةـ المـسيـحـيـةـ ،ـ فإنـ بـولـسـ وإـخـوانـهـ لمـ يـكـنـ فـيـ وـسـعـهـمـ أنـ يـبـشـرـواـ اليـونـانـ وـالـرـوـمـانـ بـمـسـيحـ منـتـظـرـ فـيـ بـنـىـ إـسـرـائـيلـ خـلـاصـهـمـ وـاستـعـادـهـ مـلـكـهـمـ الـذـىـ قـضـىـ عـلـيـهـ الرـوـمـانـ أـنـفـهـمـ ،ـ فـلاـ جـرـمـ تـحـولـ الدـعـوةـ مـنـ إـسـرـائـيلـ إـلـىـ عـالـمـيـةـ لـهـ الـفـرـزـةـ التـىـ لـأـمـحـيـصـ مـنـهـاـ ،ـ وـلـيـسـ هـنـاكـ مـشـابـهـةـ قـطـ بـيـنـ الدـعـوةـ الـخـاصـةـ بـيـنـ إـسـرـائـيلـ وـبـيـنـ الدـعـوةـ إـلـىـ النـاسـ كـافـةـ كـمـاـ وـرـدـتـ فـيـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ بـذـلـكـ الـوـضـوحـ الـذـىـ فـهـمـ الـكـاتـبـ وـلـمـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـتـجـاهـلـهـ فـيـ جـوابـهـ عـلـىـ اـعـتـراـضـ الـإـسـتـاذـ الشـرـيفـ .ـ

فـهـنـهـ هـىـ الشـفـرةـ التـىـ نـفـذـ مـنـهـاـ خـطـاـ الـقـيـاسـ إـلـىـ رـأـيـ الـإـسـتـاذـ الـنـيـوزـيـلـانـدىـ مـعـ تـقـدـيرـ حـسـنـ النـبـةـ فـيـماـ قـرـرـهـ مـنـ حـصـرـ الدـعـوةـ إـلـاـسـلـامـيـةـ بـيـنـ أـبـنـاءـ الـجـزـيرـةـ الـعـرـبـيـةـ .ـ

ولـسـنـاـ فـرـىـ دـلـيـلـاـ عـلـىـ التـحـرـزـ -ـ وـلـاـ عـلـىـ الـجـدـ -ـ فـيـ اـسـتـنـادـ الـكـاتـبـ إـلـىـ تـزـوـلـ الـقـرـآنـ بـالـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ لـتـعـزـيزـ حـجـجـتـهـ عـلـىـ تـخـصـيـصـ الـإـسـلـامـ بـنـ يـتـكـلـمـونـ اللـغـةـ الـعـرـبـيـةـ إـذـ كـيـفـ كـانـ يـرـيدـ أـنـ تـكـوـنـ الدـعـوةـ أـنـ كـانـتـ عـالـمـيـةـ إـنـسـانـيـةـ وـلـمـ تـكـنـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ الـمـتـكـلـمـيـنـ بـلـغـةـ الرـسـولـ؟ـ إـنـهـ يـمـنـعـ بـذـلـكـ أـنـ تـوـجـدـ فـيـ الـعـالـمـ دـعـوةـ عـالـمـيـةـ

إنسانية على الإطلاق أو يفترض فيمن كان يُرسل بهذه الدعوة أن ينطق بالسنة  
الناس أجمعين .

ولا نحسب قراء الأستاذ النيوزيلاندي قد استفادوا شيئاً من اليقين أو الترجيح  
بما استشهد به من أقوال الخالفين على عموم الرسالة الحمدية أو خصوصها بين  
زملائه المستشرقين ، بل كل ما يستفيده القارئ المطلع من وقوع هذا الخلاف أن  
أناساً غير قليلين بين «جهاز المستشرقين» يقرأون الكتاب المبين ولا يستفيرون منه  
أظهر معانيه ، بل أظهراً كلاماته ، التي لا تحتاج إلى مراجعة من أخبار الإسلام أو  
أخبار التواريخ .

فإذا كانت كلمة الناس كافة تحتمل اللبس في أذهان هؤلاء المستشرقين لسبب  
من أسباب التأويل في اللغة أو في المتنق فما هو اللبس في وصف العباد الذين  
تكرر الخطاب بإذارهم ودعوتهم إلى الدين؟

إننا نذكر من وصف هؤلاء العباد في الكتاب العربي مثلاً واحداً وهو قوله في  
خطاب النبي بالعربية :

﴿قُلْ لِعَبْدِي الَّذِينَ آمَنُوا يَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفَقُوا مَا رَزَقْنَاهُمْ سِرًا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ  
أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبْعِيْعُ فِيهِ وَلَا خَلَالٌ . إِنَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ  
السَّمَاءِ مَا يَأْتِي بِهِ مِنَ الشَّمْرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ  
بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الظَّلَلَ  
وَالنَّهَارَ﴾ .

فمن يقرأ وصف هؤلاء العباد الذين سخر لهم البحر وسخر لهم الأنهر وسخر  
لهم الليل والنهر لا يخطر له لحظة أنهم أبناء الجزرية العربية دون غيرهم من بني  
الإنسان في جميع البلدان .

وإذا كان عرب الجاهلية قوماً لم يأتهم تذير من قبل فالدين الذي جاء به  
صاحب الدعوة الحمسدية يعم المقادير الذين سبقت إليهم الرسول ويقوم النبي  
العربي بالدعوة إليه ليظهره على الدين كله : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ  
الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الْدِينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

وأياً كان القول في اللغة التي تكلم بها النبي ، وفي صلاح هذه اللغة للدعوة

العالمية ، فإن النوع الإنساني يشمل أم القرى وما حولها ولا تعتبر هداية أهلها عزلاً لهم عن عدتهم من الناس ، إذ كان خطاب الناس كافة يمنع أن يكون الخطاب مقصوراً على أم القرى ومن حولها ولكن خطاب أم القرى ومن حولها لا يمنع أن يعم الناس أجمعين .

وبعد ، فكيف يسيغ العقل أن يكون صاحب الدعوة الحمدية خاتم النبيين إذا كانت رسالته مقصورة على قوم لم يأتهم من قبل نذير؟ !!

إن طائفة من المستشرقين تسيغ مالاً يسيغه العقل في أمر القرآن وأمر الإسلام ، ولا نحب أن يشيع لأحد من هؤلاء قول مسموع في مصر الحاضر ، لأننا نقرأ لغيرهم من فضلاء الأوروبيين المسلمين صفة من الآراء السليمة في الإسلام ونبيه ﷺ ، ينزعونها عن هوئ الاستعمار والتبيشير ما استطاعوا ويحسنون بها إلى قرائهم وقراء العربية غاية إحسان العالم الأمين على علمه ، وليس من هؤلاء - ولا رب - من يذكر الخليفة الفاروق اليوم فلا يعرف له صفة إلا أنه مستعمروقدام .

## الإسلام في تاريخ العالم<sup>(١)</sup>

من موضوعات التأليف التي كادت أن تصبح لها في اللغة الإنجليزية «دورة» كالدورة الصحفية ، موضوع الكتابة عن تاريخ العالم في مجلد واحد ، يختصر أو يطبع في الطبعات الدقيقة التي تسمى عندهم بكتبة الجيب .

ومن الواضح أن الدورة في هذه المؤلفات تحسب بعشرين السنين : كل عشرين سنة هجرية ، أو كل ثلاثين سنة ، أو كل جيل من الأجيال البشرية المتعاقبة ، إذا حسبنا للجيل ثلث قرن على العرف الشائع ، لأن السنين الثلاث والثلاثين يلتقي فيها على الدوام جيل قديم ، وجيل مقبل ، وجيل قائم في أيامه .

وقد ظهر في الجيل الأخير باللغة الإنجليزية ثلاثة تواريχ عالمية من مطبوعات المجلد الواحد ، وهي : تاريخ «ولز» المصلح الاجتماعي والكاتب القصصي ، وتاريخ نان لون الناقد الفني والكاتب الأديب ، ثم هذا التاريخ الذي بين أيدينا مؤلفه جون باول Bowie المشرف على تأليف الموسوعة الجامعية لتاريخ العالم ، وله من مؤهلات الإحاطة بالتواريχ الإنسانية ، والتواريχ الشرقية على الخصوص ما لم يكن لزميليه السابقين ، وإن لم يبلغ مبلغهما من الملكة العقلية واستقلال الرأي أمام التقليد .

والخاصة التي تميز بها التواريχ العالمية في مجلد واحد أنها تكتب من وجهة نظر مقدورة في موارين مؤلفيها ، فليست هي مجموعة من المترافقات لا تربط بينها رابطة غير الاجتماع على خريطة الكرة الأرضية ، ولنست هي مجموعة من الواقع مجردة من المغزى والدلالة على طريقة المؤرخين المسجلين للمحوادث العامة في كتب المطولات ، ولكنها أشبه بقصة متناسقة يعرضها شارح واحد يقدم للناظرة شريطاً من الصور المتحركة ، ويدرك لكل مرحلة منه مناسبة ملحوظة تلحقه بالمراحل التي سبقته وتصل بينه وبين المراحل التي تليه .

---

(١) الأزهر بونية ١٩٦٣ .

ولقد كان «ولز» كفتأً لهذا التنسيق على أساس النظرة الواسعة إلى الوحدة الإنسانية في إطار التقدم الاجتماعي والانتقال من نظام «معيش» إلى نظام يختلفه ويحل في أكثر الشعوب محله ، وكذلك نظر إلى دور الصيد ودور المرعى ودور الصناعة ، ثم دور التوسيع في العلاقات الاجتماعية والأخلاقية التي تقوم عليها دعائم المجتمعات والهيئات الحاكمة .

وكان فان لون مقتدرًا على تنسيق التاريخ العالمي في نطاق الحركة الفكرية والدلائل الفنية ، كأنما ينظر إلى الإنسانية في مراحلها المتتابعة لظرفه إلى بعثة ثقافية تشغله بالتموين إلى جانب اشتغالها بالبحث والتحصيل .

أما المؤلف الأخير - وقد ظهر كتابه في أواخر السنة الماضية - فالمرجع الأكبر أمامه هو مرجع الجغرافي الذي استوفى أساليب الإحصاء وأنباء الصحف والإذاعة ، وأأخذ ينقل الأبعاد الزمانية إلى خريطة مكانية يعرض فيها موقع الماضي كأنها تحصل في الوقت الحاضر ، ولم يتخد له في هذا العرض موقفاً مستقلًا غير الموقف «التقليدي» الذي يصطنعه «المسجل المعاصر» حين يدين نفسه بظاهرة «الاستارة» على حسب اصطلاح العرب الحديث .

فك كل تعليقاته على الحوادث التاريخية الكبرى هي تعليقات مسبوقة من بقایا القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر ، مضافاً إليها علم الرجل العصري كما يستعمله من مراجع الإحصاء والإذاعة وبخاصة في القسم المفرد أو الأقسام الموزعة التي عرض فيها تاريخ الإسلام .

يبدأ بتقرير الواقع المشهور عن دور الإسلام بين أدوار الديانات العالمية ، ويفصله عن ديانات روما وأثينا والصين والهند بأنه هو الديانة الثالثة الكبرى بين الأمم السامية ، أولاهما اليهودية ثم المسيحية .

ويقارن بين النبي ﷺ وبين السيد المسيح صاحب الديانة السامية الأخرى وبين «يوردا» صاحب الآرية الهندية ، فيقول : إنه مثلهما يملك العبرية الدينية ولكنه يمتاز عنهما بالكياسة السياسية مع القدرة العسكرية .

فإذا تكلم عن العوامل الاجتماعية ، والنفسية ، التي ينسب إليها تمكן الإسلام في وطنه ثم انتشاره في سائر الأوطان على نحو لا نظير له من قبله ولا من بعده ،

فهناك تغلب عليه تلك الفكرة «التقليدية» عن عقيدة السيف والغنية ، ويفوته التعليل التاريخي الأول الذي ينبغي أن يسبق كل تعليل : وهو انتشار الإسلام لأنه وافق في العالم كله حاجة عامة ، بعد أن حان أوانها وتمهدت الأسباب للمواجهة بها في عالم الفكر والضمير .

فكل ما أعد القدرة السياسية والعسكرية في نبي الإسلام فهو قابل للتفسير بحماسة «التعصب» العنيف وبالرغبة في كسب الغنائم ، وبالطبيعة البدوية التي بنيت على تعدد الرحلات والغارات .

ويتبين قصور هذا المؤلف خاصة عن تعليل الحوادث العظمى كلما ذكرنا أنه أعرف من زميليه بتاريخ الشرق في كل من الهند والصين والبلاد الملاوية ، وهي البلاد التي يوجد فيها اليوم قرابة ثلاثة مليين مسلم دخلوا في الديانة الإسلامية بعد عصر الفتح بعده قرون ، وبغير عامل من تلك العوامل التي تفسرها غارات البدو أو طمع الفقراء من أبناء البداية في كسب الغنائم وأغتصاب الديار .

ويتبين هذا القصور من وجهة النظر العصرية قبل كل شيء ، لأنهم تعودوا في هذا العصر أن يعلموا كل مجاهٍ كبير بمقدار الحاجة له والمواقفة بينه وبين أشواق التفوس ومطالب المعيشة وضرورات الحياة . فماذا يفعل الطمع في الغنائم لو لم تكن للإسلام منية إنسانية يتطلّبها العالم ويستعد لها قبل أوانها؟ ولماذا لم يفعل هذا الطمع فعله في تاريخ انتشار الديانة اليهودية وهي ديانة قبائل بادية ومتطرّفتها في الغنائم وأغتصاب الديار تحمل عندها محل الشريعة المقررة في مواعيد الآلهة؟

وينتقل المؤلف من هذه النظرة التقليدية إلى نظرة تقليدية أخرى عند الكلام على الحضارة الإسلامية بعد انتشارها بين الشعوب السامية والأرية ، فهو يعيد هنا تلك الدعوى المحفوظة عن استعارة الثقافة العربية خاصة والإسلامية عامة من الثقافة الإغريقية ، ولا يكلف نفسه مؤونة المقابلة بين ذخائر التراث العربي الإسلامي في الحكم والطب والكميات والجغرافية والتاريخ والأدب وبين الذخائر التي تختلف باللغة اليونانية في جميع هذه الموضوعات ، بل لا يكلف نفسه مؤونة البحث في المسائل المقلولة والمسائل المتكررة التي تحتوي فيما احتوته ردوداً على حكماء اليونان وعلمائهم وز堰ادات مستقلة في دراسات الحكم والطب لم تؤثر عن

مرجع يوناني وصل إلى العرب أو بقى له أثر في القارة الأوربية ، وقد كان أولى من ذلك كله وأقرب إلى التحقيق العلمي أن يسأل المؤلف نفسه : لماذا حوربت الثقافة الإغريقية عند نقلها إلى الأوروبيين ولم تحارب هذه الثقافة . بمثل هذه الشلة - بين شعوب الإسلام على اختلاف الأجناس ؟ وربما كان أولى من ذلك أيضاً أن ينظر المؤلف إلى الفن العربي الإسلامي في البناء ليعلم مبلغ استقلال الذوق العربي عن اليونان في ناحية ثقافية من الصدق النواحي بهم وهي ناحية الفنون الجميلة ، وتعلم كذلك أن الذوق العربي قد استقل بفنه بين أم شرقية كثيرة سبقت أبناء الجزيرة العربية إلى تشييد العمائر وأبتكار أساليب البناء .

ولكن المؤلف يشهد للحضارة العربية الإسلامية شهادة تشفع له في هذه الزلة التقليدية ، لأنه يقرر بعد إسهاب الكلام عنها أنها لم تستتبع في التاريخ دوراً من أدوار الظلمات كما حدث بعد الحضارة الرومانية اليونانية بين أبناء القارة الأوربية .

ومن النظيرات التقليدية التي سيق إليها المؤلف تلك المقارنة بين العقيدة الإسرائيلية والعقيدة الإسلامية كما وردت في كتب الديانتين ، ويدرك من هذه المقارنات أن القرآن يسأل الإنسان : « أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشَرِّبُونَ . أَنَّمَا أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَرْأَةِ أَمْ تَخْنُونَ الْمُتَزَرِّعَوْنَ » وعندئذ أن هذا السؤال الإلهي كسؤال الله للنبي أيوب « أَلَنْتَ اللَّهَ الَّذِي زَيَّنَتْ جَنَاحِي الطَّاوُوسَ ؟ » وأن العقيدة الإلهية متقاربة . إذن - بين الديانتين !!

وفي هذه المقارنة أكثر من خطأ واحد لأنها مجموعة من الأخطاء لا ينفصلها صواب واحد في جهات الموازنة بين الجانبين .

فالخطأ الأول أن سفر أيوب ليس من الأسفار الإسرائيلية ، لأنه خلا من كل إشارة إلى الفداء أو إلى المسيح المنتظر خلاص بنى إسرائيل ، ولم يكتبه نبي من اليهود .

ويائمه في الخطأ أن الإله في سفر أيوب إله الكتب الإسرائيلية « يهوه » الذي يدين عباده بميزان محدود ويدين سائر العباد بميزان آخر غير ذلك الميزان .

ويأتي بعد ذلك خطأ المقارنة بين عبارة عارضة في سفر أيوب وبين العبارات

القرائية التي تنتظم الكتاب كله ، ولا تدع في الأرض أو السماء صورة من صور الخلق لا يقام بها الدليل على وجود الخالق وعلى رحمته وعلمه واستغفاره بدليل العقل عن أدلة الخوارق والمعجزات .

وشفيع المؤلف في هذه الأسطورة التقليدية أن خص الإسلام بالقوة الصالحة لتوثيق الوحدة «الأخوية» بين المؤمنين وإن لم ينظر إلى فارق من فوارق الجنس واللون أو فوارق الغنى والفقير كانه فارق حائل دون جامعية الإخاء بين أبناء آدم وحواء ، ولكنه على هذا التقدير منه لدعوة الأخوة الإنسانية في الإسلام لم يذكر لهذا الدين حسنة «الإنسانية» الأولى في إنقاذه لبيات حواء من ملة العبودية ، ومن ملة الحرمان من الروح ، ذلك الحرمان الذي أوشك أن يلحقها بالخلائق .

وقد لازمه خطأ الفهم إلى النهاية حين ختم فصله الخاص بانتشار الدين معيناً قوله في الفصل كله : إن الصبغة «الحربية» قد لازمت حضارة الإسلام في كل صفحة من صفحاتها التي مثلتها عواصم دمشق وبغداد والقاهرة والقدسية ، وإن سر هذه الصبغة كامن في الدفعة «الديناميكية» الباقية منذ قيامه على «عصبية الصحراء» وينسى في هذا الختام الموجز كل ما قرره عن خاصة «الأخوة الإنسانية» التي اختص بها هذا الدين «السمح» الكريم .

## مُراجَعات إِسْلَامِيَّة<sup>(١)</sup>

هذه سلسلة من الكتب المستقلة تصدر باللغة الإنجليزية من مطبعة جامعة «أدنبرة» في موضوعات متعددة من مباحث التاريخ والشريعة ، تشمل فيما تشمله أجزاؤها التي ظهرت حتى الآن والتي ستظهر في المستقبل أبواباً من الدراسة العلمية عن وجهات الإسلام في العصر الحاضر وعن الإسلام في البلاد الأفريقية وراء الصحراء الكبيرى ، وعن الإسلام في الصين ، وعن صفحات التاريخ الإسلامي في دولة بني عثمان ودولة المسلمين بالأندلس ، مع الإحاطة بأبواب البحث في المذاهب الفكرية التي ذهب إليها علماء الإسلام ودعاته ، بين المتصوفة والمتكلمين والمعتزلة والخوارج والظاهيرية وغيرهم من أهل السنة والمعتزلة والتشيع ، في العصور المتتابعة .

ولا تخفي عندي القائمين على تأليف هذه السلسلة بالتحقيق العلمي والدقة التاريخية ، ولكنها تدل من جديد على الصلة الوثيقة بين سياسة الدولة في الغرب وبين دراسات العلماء للمباحث الإسلامية ، ولو كانت خلواً من مقاصد التبشير ومآرب الاستعمار الظاهر ، فلا تزال دراسة الإسلام غرضاً من أغراض الدول الكبرى التي تستطيع الإنفاق عليها كلما احتاجت إلى كلفة تقصير عنها مقدرة المؤلفين والناشرين طلاب المنفعة التجارية ، ولا يزال الموضوع من موضوعات الدولة في الغرب على مقدار اتصالها بالسياسة العالمية في البلاد الشرقية ، ولكنه قد يختلف بالأسلوب والمنهج مع اختلاف أطوار السياسة من جيل إلى جيل .

جاء في مقدمة الكتاب الأول من هذه السلسلة : «إن نذر الحرب التي كانت في سنة ١٩٢٩ وشيكة أن تغير إليها شعوباً آسيوية كثيرة قد نبهت المسؤولين في بريطانيا العظمى فجأة إلى قلة المختصين عندنا لدراسة اللغات الآسيوية ولثقافاتها ، ومن هنا كان تأليف لجنة «سكاريرو» التي كان لتقريرها أثر في توسيع نطاق الدراسات

(١) الأزهر أكتوبر ١٩٦٣ .

الشرقية والأفريقية بعد الحرب العالمية في بريطانيا العظمى ، وتبين من مجرى الحوادث في العقد الثالث بعد الحرب العالمية أن أفق الاطلاع الذي لا يزال في اتساع مع الزمن يكشف لنا عن ضرورة العلم بنصيب من المعرفة يزيد على تلك المعرفة السطحية بما وراء الثقافة الأوربية ، وفي مقدمة ذلك ما حدث من ازدهار بلاد كثيرة نحو الاستقلال بالقارة الأفريقية . وبينها أم إسلامية أو أم يحكمها رؤساء مسلمون ، تدل مواقفها على ازدياد نصيب العالم الإسلامي من العلاقة بالسياسة الدولية » .

فاهتمام السياسيين بالدراسات الإسلامية باق على عهده منذ نشأت هذه الدراسات في القارة الأوربية قبل بضعة قرون ولكنها تتغير بين جيل وجيل ويجوز لنا أن نعتبر هذا التغير نفسه علامة من علامات الزمن في تطور السياسة العالمية .

فالعناية بتمحيص البحث العلمي تدل على انقضاء عهد الاستشراق لنشر دعایات التبشير أو الاستعمار بين شعوب البلاد المحكومة على العموم ، ثم تدل على حاجة الساسة المستعمرين إلى فهم الحقيقة عن المسلمين ، لأنهم لا يسيطرون عليهم اليوم بسلطان القوة التي يتساوى فيها حسن الفهم وسوءه عند من يقبض على زمام القوة الحاكمة بيده ، وإنما يحاولون التفاذ إليهم عن علم صحيح بما يشعرون به ويفكرون فيه ، ويضيرهم أن يجهلوا الحقيقة على جليتها قبل أن يضرر المسلمين ، بما يمس تاريخهم الصحيح أو شعائرهم المعتقة .

والكتاب الأول من هذه السلسلة مقصور على البحث العلمي في الفلسفة الإسلامية وما يسميه الأوربيون بعلم اللاهوت عند المسلمين ومؤلفه هو الأستاذ « مونتغومري وات » مدرس اللغة العربية بجامعة أدبره ، وله مشاركات كثيرة في بحوث التاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية غير اللغة وأدابها .

ولا يغيب عن الناظر إلى بحوث الكتاب فرط العناية بتمحيص الواقع من مصادرها المتشعبة ، فقلما يفوت مؤلفه مصدر من المصادر الشرقية أو الغربية عن علاقة الفلسفة واللاهوت بذاهب الفرق من قديمها في صدور الإسلام إلى حدتها في هذا القرن الرابع عشر للهجرة . وقد عرض - بهذه الاطلاع الواسع - المذاهب المتكلمين والفقهاء والصوفية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم من المجتهدين والمقلدين

جهد ما اتسعت له صفحاته المحدودة في كل جزء من أجزاء السلسلة ، وهي في هذا الجزء لا تزيد على مائتين ، واقتصرت تحقيقاته للمذاهب والفرق بتحقيقات مثلها لأراء المجتهدين والأئمة الفقهاء ، ولا سيما الأئمة الذين تبعتهم فرق حديثة كان لها شأن في حكومات البلاد الإسلامية ، كابن تيمية وأبن قيم الجوزية ، وبعض فقهاء الشيعة والظاهريه .

وقد يدل على منهج الكتاب كله موضوع واحد من موضوعاته عن المعتزلة ، وهو أوفى الفرق الإسلامية حظاً من دراسته واجتهاده .

فالاهتمام بالجانب السياسي ظاهر من سؤاله عن العلاقة السياسية بين آراء المعتزلة وقيام الدولة العباسية بعد الدولة الأموية ، هل كان للسياسة شأن في تكوين آراء المعتزلة وتحديد موقفهم بين الدولتين؟ وما مبلغ هذا الشأن من الأثر في أحداث السياسة وفي تدوين التاريخ .

إن خلفاء العباسيين كانوا يختارون لمناصب القضاء أناساً من علماء المعتزلة ، وكان لي بعض هؤلاء العلماء علاقة يائس مسلم الخرساني قبل التشكيل به على أيدي بني العباس .

ولكن هذه الخطوة على كثرة ظواهرها لا تدل في رأي المؤلف على اصطباغ مبادئ المعتزلة بصبغة الدعاية العباسية ولا بصبغة الدعاية لفرق التشيع ، وكل ما يثبت منها أن الدولة الأموية قد جمعت على مقاومتها كل داع إلى التجديد في مسائل الدين والمذاهب الفكرية ، وهذه الجامدة الواسعة هي التي قربت في دولة العباسيين بين دعوة التشيع ودعوة الاعتزاز ودعاة الاجتهاد في الفقه والشريعة ، ولو كان المجتهدون من أئمة السنة الذين لم يتخذوا لهم منهجاً غير منهج الجماعة .

ويصحح المؤلف أنخطاء الأوروبيين الذين سبق إلى أوهامهم أن المعتزلة هم فلاسفة الإسلام ، عندما اتصلت بهم جملة أخبارهم في مطلع القرن التاسع عشر .

ويأس المؤلف أن يطلق على المعتزلة لقب فلاسفة الإسلام على الخصوص بمعنى الذي يقابل عند الأوروبيين لقب «أحرار الفكر» وهو قريب في مفهومهم من لقب الزندقة .

فالمعتزل لا ينشر مذهبة ليصبح الإسلام بصبغة الفلسفة اليونانية أوليداري

ميله الفلسفية بصورة من صور الشعائر الإسلامية ، ولكنـه - على تقدير ذلك - يدفع بالعقل حجة الفلسفة النطقية ، ويأخذ السبيل على منافذ الطعن في قواعد الفكر الإسلامي بحجـة من حجـج النطق أو الفلسفة ، ولقد يكون المعتزل في تحرجه من التصرف في عقـيـدـته على حـسـب تـفـكـيرـه أـشـدـ مـحـافـظـةـ وأـصـعبـ مـرـاسـاـ منـ السنـىـ الـذـىـ لـمـ يـعـتـزـلـ الجـمـاعـةـ ، وـرـبـماـ كـانـ خـصـومـ الـفـلـسـفـةـ الـأـجـنبـيـةـ الـمـعـتـزـلـةـ أـكـثـرـ عـنـدـأـ وـأـمـضـىـ سـلـاحـاـ مـنـ خـصـومـ هـذـهـ الـفـلـسـفـةـ بـيـنـ الـخـافـظـينـ الـشـنـدـدـينـ .

وقد كان المعتزلة يحتكمون إلى العقل في الرد على خصومهم التقليديـنـ كما يـحـتـكـمـونـ إـلـيـهـ فـيـ الرـدـ عـلـىـ أـشـيـاءـ الـفـلـسـفـةـ الـأـجـنبـيـةـ وـلـكـنـهـ كـانـواـ دـيـنـيـنـ فـيـ تـفـكـيرـهـ وـلـمـ يـكـوـنـواـ فـلـسـفـيـنـ مـتـصـرـفـيـنـ ، وـأـكـثـرـ مـاـ يـبـلـوـ ثـلـثـةـ عـلـىـ طـبـيـعـةـ تـفـكـيرـهـ حـيـنـ يـعـرـضـونـ لـسـأـلـةـ الصـفـاتـ وـدـلـالـتـهـاـ عـلـىـ وـحدـةـ الـذـاتـ ، فـإـنـهـ عـالـجـوـهـاـ بـالـنـظـرـ الـتـقـلـيدـيـةـ إـلـىـ الـأـلـفـاظـ وـمـعـانـيـهـاـ وـلـمـ يـعـالـجـوـهـاـ بـتـفـكـيرـ الـفـلـسـفـوـفـ وـلـاـ بـتـصـرـفـ النـاظـرـ فـيـمـاـ وـرـاءـ الـطـبـيـعـةـ .

ويشكـ المؤـلـفـ فـيـ سـبـبـ إـطـلاقـ اـسـمـ الـمـعـتـزـلـةـ عـلـىـ هـذـهـ الطـائـفـةـ مـنـ مـفـكـريـ الـإـسـلـامـ فـالـشـهـورـ أـنـ الـإـمـامـ الـحـسـنـ الـبـصـرـيـ قـالـ عـنـ وـاـصـلـ بـنـ عـطـاءـ : (إـنـهـ اـعـتـزـلـنـاـ) فـلـصـقـتـ كـلـمـةـ (الـأـعـتـزـالـ) بـوـاـصـلـ مـنـذـ ذـلـكـ الـحـينـ وـلـكـنـ الـمـؤـلـفـ يـذـكـرـ قـصـةـ كـهـنـهـ رـوـيـتـ عـنـ قـتـادـ وـعـمـرـوـ بـنـ عـبـيدـ ، وـلـاـ يـرـىـ وـجـهـاـ لـتـرـجـيـعـ إـحـدـىـ الـقـصـصـيـنـ عـلـىـ الـأـخـرـىـ فـرـبـماـ أـطـلـقـ وـصـفـ الـأـعـتـزـالـ عـلـىـ الـعـابـدـ الـذـىـ يـعـتـزـلـ الصـفـوـفـ أـوـ عـلـىـ (الـخـاـيـدـ) الـذـىـ يـعـتـزـلـ الـقـتـالـ وـيـنـفـرـ بـيـنـ الصـفـيـنـ ، وـلـيـسـ مـنـ الـلـازـمـ أـنـ يـكـوـنـ الـأـعـتـزـالـ خـرـوجـاـ عـلـىـ عـقـيـدـةـ الـجـمـاعـةـ أـوـ اـعـتـزـالـاـ لـتـقـالـيدـ الـدـينـ .

ويقسم المؤـلـفـ جـمـاعـةـ الـمـعـتـزـلـةـ إـلـىـ مـدـرـسـتـيـنـ كـبـيـرـتـيـنـ تـتـفـرـعـ عـلـيـهـمـ مـائـةـ الـمـدارـسـ الصـغـيرـةـ فـيـ الـبـلـادـ الـإـسـلـامـيـةـ :

أـحـدـاهـمـاـ مـدـرـسـةـ بـغـدـادـ الـتـىـ تـدـيـنـ بـالـإـمامـةـ لـبـشـرـ بـنـ الـمـعـتـمـرـ ، وـأشـهـرـ ماـ اـشـتـهـرـتـ بـهـ فـيـ مـسـأـلـةـ الـقـدـرـ وـالـاخـتـيـارـ قـولـهـاـ بـتـولـدـ الـأـعـمـالـ لـلـعـبـدـ الـمـكـلـفـ ، وـمـنـهـ ، عـلـىـ رـأـيـ الـمـؤـلـفـ ، يـقـتـبـسـ الـأـشـعـرـيـوـنـ قـولـهـمـ بـالـكـسـبـ مـعـ التـقـدـيرـ .

وـالـمـدـرـسـةـ الـأـخـرـىـ - مـدـرـسـةـ الـبـصـرـةـ - يـقـودـهـاـ أـبـوـ الـهـذـيلـ وـيـبـرـزـ فـيـهـ اـسـمـ تـلـمـيـذـهـ وـيـتـوـارـدـ فـيـ أـقـولـهـاـ بـعـضـ مـصـطـلـحـاتـ الـفـلـسـفـةـ الـيـونـانـيـةـ كـالـجـوـهـرـ وـالـعـرـضـ وـعـلـاقـةـ الـجـوـهـرـ الـفـرـدـ بـتـرـكـيـبـ الـمـادـةـ .

وكلا المدرستين لم يكن لهما أثر فيما يسميه المؤلف باللامهوت الإسلامي ، ولم يبق منها بقية في غير مجال الدراسة «الأكاديمية» وإنما ظهر من المسؤولين إليهم نخبة من كبار الفقهاء كالقاضي عبد الجبار والزمخشري وهو خاتمة الفقهاء الكبار في تاريخ هذه المدرسة التي كان أثراها الأكبر مقصوراً على القدرة العلمية في احتکام المسلم إلى عقله واجتهاده بعلمه ودراساته للخلاص من ريبة التقليد .

وقد توسع مؤلف الكتاب في شرح تاريخ الخلاف على مسألة خلق القرآن ، وربط بينها وبين مسألة الصفات ومسألة الكلام القديم في نسبته إلى الله ، ولم يغفل قول القائلين : إن القرآن معرفة الله وإن قديم أزلى أبيدى لأن الله لم يكن ولا يكون بغير معرفة ، ولم يغفل كذلك تفرقة القائلين بالخلق بين كلام الله في أزليته وكلام الإنسان فيما يلفظه بشفتيه ، أو يسمعه من المتحدث إليه ، ولم يتخدله طرفاً من الطرفين يجتهد فيه أو يميزه برجحان الحجة وصححة التفسير ، ولكنه لزم بين الطرفين خطوة الأمانة في النقل ولم يزد عليها . فإذا كان قد زاد من عنده شيئاً فهو سرعة الإصغاء إلى الأقاويل التي لا تستحق الرواية إلا لصرفها بما هي أهل له من الإهمال . ومن ذلك قوله ما كان يشاع عن محمد بن المقفع لبلاغة القرآن ، وافتراضه أن القائلين بخلق القرآن قد أرادوا بذلك أن يهونوا أمر الاستقلال بالتشريع عنه ، وأن يجعلوا له منزلة دون منزلة القدسية الأبدية التي تقرنها في القدم بالصفة الإلهية ، فما من مسلم قال بخلق القرآن وهو يدعو بذلك إلى الشك في كلام الله وأنه مستحق للطاعة كما يستحقها كل كلام يأتي من عند الله .

## **دراسة للإسلام المعاصر<sup>(١)</sup> على الساحل الغربي للقارية الأفريقية<sup>(٢)</sup>**

دراسة للإسلام المعاصر على الساحل الغربي للقارية الأفريقية ، موضوع كتاب ألفه الأستاذ هموري فيشر ، وخص الكلام فيه بالطائفة الأحمدية ، التي يظهر من تناول الكتاب أنه على خبرة وافرة بشئونها حيث يقيم المنتسبون إلى هذه الطائفة في الهند وفي الديار الأفريقية .

وقد بدأ الكتاب بفصل عن خصائص الإسلام وخصوصيات الوثنية التي تساكنه على رقعة واحدة من القارة الأفريقية ، وأدار مباحثه على أربعة أبواب : الباب الأول منها يشرح فيه العقائد الإسلامية عامة ويتناول بالشرح نواحيها الخاصة حيث تتصل بالشعوب الوثنية مؤثرة فيها أو متاثرة بها ، على نحو يختلف بعض المخالفه مراسيم العبادة وأشكالها في الأقطار الأخرى والباب الثاني يجعل تاريخ الطائفة الأحمدية منذ نشأتها بالهند في أواخر القرن التاسع عشر ، ويتبع أدوار نشأتها إلى أن قام بالأمر في الطائفة « محمد أحمد » ابن صاحب الدعوة غلام أحمد القادياني ، فانقسمت الطائفة قسمين أحدهما المشهور باسم جماعة لاہور ، وهو يقترب شيئاً فشيئاً من عقائد أهل السنة ويفارق شيئاً فشيئاً بعض الدعوات التي خالفت عقائد أهل السنة عند نشأة الطائفة ، والقسم الآخر هو الذي تولى الدعوة بين الوثنين من أهل أفريقيا ، ورسم لتلك الدعوة خطة للتعدد إلى القبائل الوثنية ، وسماها بخطبة الجهاد السلمي ، محاولاً فيها أن يجتنب كل غرابة ظاهرة تضر الوثنين وتوقع في نفوسهم أن الدين الجديد يعاد لهم وينفصل عنهم كما ينفصلون عنه ، بغير أمل في التفاهم والتقارب بين الطرفين ، وذلك في حدود المحافظة على جوهر العقيدة الإسلامية والتخلص بعض الشيء في قشور المظاهر وأشكالها .

(١) الأزهر ديسمبر ١٩٦٣ .

(٢) A study in contemporary Islam on the west African coast (\*)

والبابان الثالث والرابع يشتملان على خلاصة تاريخية للأعمال التي قام بها المبشرون بدعة الطائفة ثم قام بها ولاة الأمر لتوطيد الحكم الإسلامي وتنظيم الحياة الاجتماعية بين القبائل التي تحولت عن الوثنية .

والمفهوم من جملة هذه الأبواب أن الدعوة تبحث في توحيد الشعائر الاجتماعية العامة ، وهي صلوات الجمعة والأعياد وصيام شهر رمضان وأداء فريضة الحج بالتعاون بين القادرين عليها والمعاجزين عنها .

فالصلوات الجماعية يشترك في أدائها جمهرة المسلمين من الدعاة أو المتحولين عن العبادات الوثنية ، وتزدحم المساجد الكبرى بالمصلين أحياناً حتى تتدفقونهم إلى الطرقات والأسواق حول تلك المساجد الكبرى .

وصلوات الأعياد .. خاصة - يذكر لها أثر بلغ في تهذيب الحكم واصلاح أداة الحكومة ، لأنها المناسبة التي يقف فيها الحاكم أمام الله وأمام الشعب ، ويجدد عهوده على البر والتقوى وتوثيق عرى المودة بين الرعاة والرعايا .

ويقول المؤلف نقاً عن مصادر التبشير التابعة للكنيسة الكاثوليكية : إن المبشرين الذين يقدمون إلى البلاد وهم لا يعرفون جانب القوة في الدعوة الإسلامية هناك كانوا يسألون زملاءهم : ما هو الجانب الحسن في هذه الدعوة؟ فيقال لهم : إنه الإيمان بالتوحيد ، وإقامة الصلوات العامة ، ورعاية الصيام في موعد من السنة .

ويذكر المؤلف أن رعاية شهر الصيام قد تغللت في تقاليد القوم حتى أصبح الوثنيون يتتجنبون القتال فيما بينهم خلال شهر رمضان ويعتبرونه شهراً حراماً لا يجوز فيه حمل السلاح ضد الأعداء ، ولو لإدراك الثأر ورد العدوان القديم بهته .

وفي المسائل التي تيسر التلاقي عليها بين الوثنين والدعاة إلى الدين الجديد مسألة التراتيل الدينية في الأذكار العامة فإن الأفريقي معروف بمحبته للمغانم وارتكابه إلى المحافل التي يتربّن فيها بالألحان والأهاريج ، فاستعان الدعاة بعادات القوم المطبوعة في عباداتهم الموروثة على اجتنابهم إلى محافل الذكر التي يرتلون فيها الأناشيد ويدركون فيها اسم الله وصلوات الحمد والدعاة بدلاً من عبارات السحر والطلاسم التي حفظوها من كهانهم عبدة الأصنام والأرواح والشياطين .

وترخص الدعاة مع أبناء القبائل في عادات التضحية والتقدم بالقرباني من الحيوان

والشمار إلى معابد الوثنية ، ولكنهم يجتهدون في تحويلها من شعائر الوثنية إلى شعائر التقرب بها إلى الله للإحسان والصدقة أو للاشتراك بالطعام في الولائم العامة .

وتعد رحلة الحج من أقدس المراسيم وأحبيها إلى المسلمين الأفريقيين ، ينتظرون موعدها ويرحبون بالعائدين من الديار المقدسة بين أهل القرية من أقارب الحجاج أو جنوده الغرباء عنهم ، ويحسبونها فريضة اجتماعية يتعاون المؤمنون على أدائها ، سهولة طلب القادرون من يستطيعون الإنفاق عليهم لزيارة بيت الله الحرام وأداء الفريضة في موعدها ، ويترى الأغنياء الدين يحال بينهم وبين السفر لمن يريد السفر من الفقراء ولا يقدر عليه ، ويعتقدون أن ثواب المسافرين كثواب المقيم الذي انخلص النية للحج ولم يقدر عليه لمرض أو مانع لا اختيار له فيه .

وما حرص عليه الدعاة الحداثون أن يجتهدوا غاية اجتهادهم في تبديد كل ما علق بأذهان الوثنين من الوهم عن معنى الجهاد في الإسلام وأن المسلم لا يستتبع قتل الوثن بالسيف في كل حال ، ولا يوجب عداوة الوثن لغير سبب مالم يقابله بالعداء ، ويحظر عليه الدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فلما كان ابتداء الجهاد بالسيف في تلك الأقطار بعد عودة أبي يكر بن عمر من المغرب للتوفيق بين أمراء الموحدين وتوحيد كلمتهم في صد العذوان من أمراء الوثنين الذين أغلقوا أبواب بلادهم في وجه الدعوة الإسلامية ، ولو لا أن الأمراء الوثنين حملوا السيف لصد الإسلام عن سبيله لما تصدى لهم أمراء المسلمين في ميادين القتال .

ولكن أصحاب السلطان في البلاد أثروا في روع أتباعهم أن الدعوة إلى الإسلام لا تعنى شيئاً غير القتال واستباحة الخالفين من المغاربة والمسلمين وجاء البشر ون بعد القرن السابع عشر فجعلوا همهم كلهم أن يؤكدوا هذا الوهم وأن يبالغوا في إظهار الفرق بين دعوة التبشير ودعوة «الجهاد» كما فهموه وتوارثوا فهمه منذ سنين .

فلمما ابتدأ «المجاهدون» الحداثون دعوتهم أعلناوا أنهم خرجوا للجهاد «السلمي» ولم يحملوا السيف ولا هم يعلمون بينهم وبين الوثنين موضعًا للخلاف يصعب التفاهم عليه بالمرة والإقناع ، وترخصوا في قبول العادات والتقاليد التي يأنفها الوطنيون ولا يسهل تحويلهم عنها دفعه واحدة ، ولا هي مما يبعدهم عن الإسلام في جوهره أو يتعلّق على العادة الجديدة أن تتحمل فيه محل العادة الموروثة ، لأنها قد تصطبغ بعصبية الإسلام .

مع بعض التعديل ، كما حدث في مسألة القرابين ومسألة الأذكار والتراتيل .

\*\*\*

ويرى المؤلف عن الباحث الحديث في تاريخ الإسلام «ترجمهام» أهم العقائد التي يشترك فيها جميع المسلمين في أفريقية الغربية من المسلمين أو الوثنيين الذين لم يصلوا إلى الإسلام ولكنهم ماضون في طريقهم إليه ، ومنها الإيمان بالحساب واليوم الآخر ، والإيمان بعالم الغيب في حياة أخرى غير الحياة الدنيا ، وربما فصلت عقيدة الحياة الأخرى عروة العلاقة في الأسرة التي جعلت الآباء والأسلاف آرآباً يعبدوها الوثنين وأرواحاً يتزلف إليها ويستقر المعنونة منها ، فإن عقيدة الحياة الأخرى قد تقيم القنطرة التي تيسر للأحياء العبور إلى الأموات وتيسّر للأموات العبور إلى الأحياء ، ولكنها لا توحد بين السماء والجحيم ، ولا تسمح بانتظار بعث الميت واللقاء بيته وبين ذريته قبل يوم النشور ، ولكن العقبة قد يتأنى تذليلها من طريقين : أحدهما أن الأسلاف لم يكونوا في جميع الأحوال عوناً صالحًا للأخلاق ولا كانوا على أهبة الإجابة والتلبية لدعاء الآباء والأحفاد ، فلا أسف على إقصاء الكثيرين منهم عن الحارب ، والطريق الآخر أن بعض الوثنيين سبق إلى خواطرهم أن تحويل الآب عن الوثنية جائز بعد انتهاء أجله ، فقد كان أحد الآباء ينهى ابنه عن دخول الإسلام وظل ينهاه حتى فارق الحياة ، فلما قضى نحبه دان الفتى بالإسلام وظهر له أبوه في المنام فلم يسمع منه زجرًا ولا تأنيبًا على مخالفته وصياغاته ، بل علم منه أنه هو نفسه قد اهتدى إلى الإسلام .

وهذه السلوى التي بحث إليها ضمير الفتى المسلم للتوفيق بين حقوق الأسلام في عقبيته الأولى وبين عقبيلة الإسلام في الروح بعد الموت مثل حس من أمثلة البقايا التي تختلف في ضمير الوثنى المهدى إلى الإسلام من شواتب دياته السلفية ، ولكنها مرحلة من مراحل الطريق لعلها قريبة الزوال ، ولعلها أهون من رفضه وارتداده وهو على أبواب المحظيرة الإسلامية .

على أننا نتساءل ونتفاجأ بعد الإمام بعاقبة الجهود في ذلك الجهد السلمي : إلا يجوز أن تصبح أفريقيا الغربية ميداناً لتوحيد الكلمة وتقرير المقاصد بين الدعوة إلى الإسلام على هدى الكتاب والسنّة ؟ غاية ما يرجى أن تظل تلك البلاد ميداناً للتقرير بين طائفة داعية وبين سائر الطوائف من المقربين على الإسلام .

## الإسلام والنظام العالمي الجديد<sup>(١)</sup>

- ١ -

في سنة ١٨٨٩ ، ظهر في بنجاب بالهند ، ميرزا غلام أحمد القادياني صاحب الطريقة القاديانية المشهورة وأخذ - وهو في الخمسين من عمره - ينشر الدعوة إلى تلك الطريقة التي تشتمل على عقائد كثيرة لا يقرها الإسلام ، ولا يقبلها دين من الأديان الكتابية ، ومن ذلك أنه هو نبي الله المرسل وأنه عيسى بن مريم قد بعث إلى الأرض في جسد جديدا

وفي سنة ١٩١٤ تطورت تلك الطريقة إلى حركة إسلامية تكفر نبوة القادياني ، وتشكر الحكم بالكفر على من يؤمن بالقرآن ورسالة محمد ﷺ كائناً ما كان الخلاف بينه وبين الشيعيَّة الأخرى ، وتحول إلى هذه الحركة كثير من أتباع القادياني وكثير من طلاب التجديد بين السنَّيين والشيعيين ، وظهرت لهم كتب كثيرة ، باللغة الأردية واللغة الإنجليزية في التبشير بالإسلام ، مع ترجمة خاصة للقرآن الكريم ، وتاريخ موجزة للنبي وخلفائه الراشدين .

وليست تفسيرات هذه الجماعة للكتاب والسنة بالمعنى تواافق مذاهب الفقهاء المتفق عليها ، لأنها تصرف معانٍ القرآن إلى تأييد أقوال لم تخطر للأولين على بال ، وليست من مقتضيات الدين في رأي الأقدمين أو المحدثين .

ولكن الحق الذي لا مراء فيه أن هذه الطائفة هي أوفر المسلمين نشاطاً ، وأشدُّهم دفاعاً عن العقائد الإسلامية ، وأكثرهم اجتهاداً في نشر فضائل الدين وأعرفهم بالأمساليب التي توجه بها الدعوة إلى العقول الأوروبية ، وإلى جماهير المتعلمين في الشرق والغرب على الإجمال .

وهم يحسرون انتهاز الفرص من الحركات العالمية والدعوات الثقافية حيثما ظهرت في قطر من قطر المعمورة ، فيدركونها في إيانها بكتاب يثبتون فيه أن

(١) الرسالة .

الإسلام أصبح من تلك الدعوة لعلاج المشكلة التي تتصدى لعلاجها ، ويقررون ذلك دائماً بالأيات القرآنية والأحداث النبوية والشواهد التاريخية ، وإن فسروها بعض الأحيان تفسيراً لا يقرهم عليه السلفيون أو المترمدون :

فلما دعا النازيون والشيوعيون إلى «نظام عالمي جديد» لإنقاذ العالم معضله الروحية والسياسية والاقتصادية بادر كاتب من أقدر كتاب هذه الجماعة إلى تفصيل موقف الإسلام من هذه النظم أو من مذاهب الفلسفة التي تعتمد عليها ، فصدر باللغة الأردنية مؤلف قيم لهذا الكاتب القدير ، وهو السيد محمد على مترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية ، ثم نقله حديثاً إلى اللغة الإنجليزية فوصل إلينا عن طريق العراق .

قرر السيد محمد على في الصفحات الأولى من كتابه أن خلاص النوع الإنساني لا يتأتى ولا يعقل أن يكون بغير عقيدة روحية عاطفية صالحة للتوجه الناس في نظام واحد ، يتكلل ب حاجات الضمائر والأجساد ، وأن تقسيم الأرزاق بالأسهم والمدواتق والمحاتوت قد ينشئ بين الناس - إذا تيسر - شركة من شركات التجارة وتوزيع الأرباح ، ولكنه لا يخلق في الإنسان تلك العواطف التبليطة التي تسمو به على مطالب الجسد ، وتكبح فيه نوازع الأثرة العمياء وهو مفتبيط قرير الفؤاد .

قال : ولم تفلح عقائد الغرب في إحياء هذه العاطفة الروحية ، لأن أوروبا قد انحرفت بال المسيحية عن سوانها ، ولأن المسيحية تعنى بخلاص روح الإنسان في حياته الأخروية ولا تعرض عليه حل من الحلول التي تقبل التطبيق في الحياة الدنيا بين وحدة عالمية من جميع العناصر والأقوام ، ولو كانت مسيحية الغرب علاجاً لمشكلات الإنسان في العصر الحاضر لعالجت تلك المادية الماركسية التي طفت على الروسيا الحديثة واقتلتتها من أحضان الدين والإيمان بالله .

أما الشيوعية فيقول السيد محمد على إنها شر من نظام رأس المال ، لأن شرور هذا النظام تتفاقم كلما قل أصحاب رؤوس الأموال ، ومن خطط الشيوعية أنها تمحصر رؤوس الأموال في يد واحدة هي يد الدولة ، وهي نهاية شر على الإنسان من حصر رؤوس الأموال في يد فرد واحد أو جملة أفراد ، لأن الدولة تصول بالقوة التي لا تقاوم ولا يملكها الأغنياء بالغاً ما بلغ نصيبهم من الشراء . وقصاري الأمر إذا

اجتمعت الأموال في أيدي الحكومة أن يصبح الحكم عصبة مستغلة تحمل مع الزمن محل الشركات والمصارف الكبرى ، وتحسول على الناس بقوة لا تملكها تلك المنشآت .

لكن الإسلام وسط بين نظام رأس المال ونظام الشيوعية ، ينفي المساوى عن النظاريين معاً ، ويأخذ بالمحاسن منها بالقدر الصالح للجماعات .

فهو يكره للمسلم أن يكتنز الذهب والفضة فناظير مقتطعة ، ويحرم عليه الربا الذي يتبع لأصحاب رؤوس الأموال أن يستغلوا جهود العاملين بغير جهد مفيد ، ثم هو يأمر بالزكاة ويسعى بالملك ، ويطلق السبيل للمنافسة المشروعة ، فلا يقتل في النفوس دواعي السعي والتحصيل .

وقواعده الخلقية صالحة لإنشاء الوحدة العالمية ، لأنه يسوى بين الأجناس ، ولا يرى للأبيض على الأسود فضلاً بغير التقوى ، ويعترف للأفراد بالمساوة والحرية ، و يجعل الحاكم «إماماً» يقتدى به ولا يجعله رباً متصرفاً بهشيمته في عباد الله .

ومن هنا يتقرر المستقبل في العالم الحديث لمبادئ الإسلام ، لأنه يقود العالم كله إلى الخلاص بعد فشل رأس المال ، وفشل الشيوعية ، وقصور العقائد الروحية الأخرى عن تدارك أحوال المعاش وتدير الحلول للجماعات الإنسانية في مشكلات الاجتماع والاقتصاد وما يتفرع عليها من مشكلات الأخلاق والأداب .

والإسلام يحول بين الإنسان وبين الاستغراق في شئون المعاش ومطالب الأجساد ، لأنه ينادي إلى حضرة الله العلي الأعلى خمس مرات في الليل والنهار ، فلا تطغى عليه النزعات المادية وهو يتعدد بين عالم الروح وعالم الجسد من الصباح الباكر إلى أن يضمه النوم بين جناحيه .

وقد دبر الإسلام مشكلة البيت ، كما دبر مشكلة السوق والسياسة ، لأنه فرض للمرأة حق الاكتساب ولم يجعلها سلعة تباع وتشترى لإشباع الشهوات ، ورما دبرت لها حكومات الغرب صناعات للرزق وأجوراً في حالات البطالة ، ولكنها لا تدبر لها «البيت» الذي هو ألزم لها من القوت والكساء .

وما يؤكده السيد محمد على أن الإسلام يذكر وحدة الزوجية ويفضل هذا الزوج على كل زواج إلا أن الشرائع لا توضع لحالة واحدة ، والدنيا كما نراها

عرضة لطوارئ الشنود والاختلال ، ومن هذه الطوارئ ما ينقص الذكور عدّة ملايين ويزيد الإناث بقدر هذا النقص في عدد الذكور ، فضلاً عن الزيادة التي تشاهد في عدد النساء من كل أمة على وجه التقرير في غير أوقات الحروب . وأن تعدد الزوجات في أمثال هذه الأحوال خير من البغاء المكشوف ، فقد قبلت المرأة الأوروبية مشاركة الخليلات المعترف بهن وقبلت مشاركتهن في الخفاء ، وأصبحت هذه المشاركة نظاماً اجتماعياً مقرراً لا معنى بعد قبوله وتقريره للاعتراض على تعدد الزوجات الشرعيات ، فهو على الأقل أصون للأداب ، وأكرم للنسل ، وأجمل بمنزلة المرأة من مهانة الابتدا ، وأصلح للاعتراف به في علاقات المجتمع وقوائمه الأخلاق .

والكتاب لطيف الحجم لا يتتجاوز مائة وخمسين صفحة من كتب اللغة الإنجليزية الصغيرة ولكنه واف ب موضوعه متقن في أدائه واستدلاله ، ولا نعلم من كتب التبشير التي تراد بها الدعوة بين الأمم الأوروبية وكفى ، فقد يحتاج المسلم لقراءته والتأمل في مراميه ، ليعلم أن المذاهب المادية والدعوات السياسية التي تسم شخص عنها أفكار المبشرين بالإصلاح في أوروبا وأمريكا لا تحتوى من آسانيد الإقناع ما هو أقوى وأجلر بالتأكد من هذه الآسانيد .

## من الدعوة الهندية<sup>(١)</sup>

أتلقى منذ كتبت بالرسالة مقال عن الإسلام والنظام العالمي الجديد كتاباً وسائل مطبوعة وغير مطبوعة ، يتكلم المطبع منها عن القادياني والجماعات التي تناصره أو تنفصل عنه ، وتفسر الرسائل الأخرى بعض ما يؤخذ على الدعوة القاديانية أو تُنْسَحِّي على هذه الدعوة باللائمة وتحاسبها على التفرقة بين المسلمين وأحداث البدع في عقائد الإسلام .

ومن أصعب هذه الرسائل رسالة مؤيدة للقادياني من زاوية الحصنى بدمشق طبعت في أعلاها الشهادتان والبسملة ، وأن الدين عند الله الإسلام ، ثم هذه العبارة : «نحمله ونصلح على رسوله الكريم وعلى عبده المسيح الموعود ، وقال كاتبها : «إن أَحَمَدْ عَلَيْهِ السَّلَامْ ادْعُ النَّبِيَّ حَقًا ، وَلَا يُنَسَّ فِي ادْعَاءِ النَّبِيَّ مُخَالَفَةً لِلْإِسْلَامِ أَوْ لِدِينِ مِنَ الْأَدِيَّنِ كَمَا تَقُولُون ، وَإِنَّ الْمُسْكِيَّيَّةَ تَكُرُّ مَجْرِيَّهُ أَحَدُ بَعْدِ الْمُسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَوْيَ رَجُوعِهِ إِلَيْهَا بِالرَّغْمِ مِنْ وُجُودِ ذَكْرِ النَّبِيِّ بَعْدِ الْمُسِيحِ فِي أَوَّلِ إِصْحَاحٍ مِنْ إِنجِيلِ يَوْحَنَّا . وَأَمَّا الْقُرْآنُ الْجَيْدُ فَأَيَّاهُ بَيِّنَاتٌ وَاضْحَاطَاتٌ فِي بَقَاءِ الْوَحْيِ وَبَقَاءِ النَّبِيَّ غَيْرِ التَّشْرِيعِيَّةِ ، وَلَا يُوجَدُ غَيْرَ آيَةٍ وَاحِدَةٍ تَخَالُفٌ حَسْبُ تَفْسِيرِ الشِّيُوخِ الْأَيَّاتِ الْكَثِيرَةِ الْمُفَسَّرَةِ بِعَصْبَانِهِ لِبَعْضِهَا وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّنِ» . وَلَمْ يَتَفَقَّدُ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى مَعْنَى لَفْظِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ بِمَعْنَى أَخْرَهُمْ زَمَانًا ، وَهُمْ لَوْ اتَّفَقُوا لِنَجْمٍ عَنْ اتِّفَاقِهِمْ تَكْذِيبٌ لِلْمَقْولِ يَجْرِيُ الْمُسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . فَإِنْ لَفْظَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ لَا يَفِيدُ انْقِطَاعَ النَّبِيَّ بَلْ عَلَى الْعَكْسِ يَفِيدُ ضَرُورَةَ عَرْضِ كُلِّ دُعْوَى مِنْ دُعَاوَى النَّبِيَّ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ أَجْمَعِينَ مُحَمَّدٌ ~~بِنِي~~ لِيَخْتَمْ وَيَصْلُقَ عَلَى صَحْتَهَا سَوَاءً أَكَانَتْ تَلْكُ الدُّعَوَى قَبْلَهُ أَمْ بَعْدَهُ . . . إِلَى آخرِ مَا قَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى .

على أن البريد قد حمل إلينا رسائل أخرى تتفى عن القادياني أنه ادعى النبوة

(١) الرسالة ١٣/٥/١٩٦٦.

معنى من معاينتها في الأديان الكتابية ، ومن تلك الرسائل رسالة مطبوعة في لاهور أذاعتتها «الجماعة الأحمدية لأشاعة الإسلام» وذكرت في مصدر البيان عن هذه الجماعة أن مقاصدتها هي خدمة الإسلام وتوحيد المسلمين والدفاع عن الدين ونشر الدعوة إليه ، وأن أعمالها لخدمة هذه المقاصد هي تأليف بعوث للتثليل في أنحاء العالم وتدريب المبشرين على هذا العمل ، وترجمة القرآن الكريم إلى لغات مختلفة ، واستخدام الإذاعة في تعميم الآداب الإسلامية . ثم شفعت ذلك بتلخيص عقائدها وهي :

- ١ - إننا نعتقد باختتام النبوّات بمحمد ، كما قال مؤسس الجماعة : إنه لا نبي من الأولين أو الآخرين يعقب نبينا العظيم ، وإن الذي ينكر ختام النبوّات يعتبر خارجاً عن حقيقة الإسلام وليس له عقيدة فيه .
  - ٢ - وإننا نؤمن بأن القرآن الكريم كتاب الله الكامل والآخر ، وأنه باق لم ينسخ منه جزء إلى آخر الزمان .
  - ٣ - إننا نحسب من المسلمين كل من يشهد بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله كاتباً ما كان المذهب الإسلامي الذي ينتسب إليه .
  - ٤ - وإننا نعد حضرة مرزا غلام أحمد القادياني مؤسس الحركة الأحمدية مجدد القرن الرابع عشر ، ونشتب أنه ما أدعى النبوة قط كما قال بكلامه : إنني لا أدعى النبوة ... وكل ما أدعوه أنتي محدث ، وأن معنى الحديث هو الذي يسمع كلام الله ... كلا ، ما أنا مدح للنبوة وما مدحني النبوة عندي إلا خارج على الدين ، وإنما يكتب على الذين يحسبونني من أولئك المدعين » .
- وأياً كان الصدق فيما يقال عن دعوى النبوة هذه من إثباتها أو إنكارها ومن قبولها أو رفضها فإن الصدق الذي لانشك فيه هو أن أتباع القادياني يخسرون بادعاء النبوة له ولا يكسبون ، وأن حركة التجديد في الإسلام يقوم بها الداعون إليها دون حاجة منهم إلى أمثال هذه الدعاوى التي تفضي الانصار وتفرق المتفقين ، ولا تستميل إليها أحداً من المؤمنين بالأديان في المشرق أو المغرب ، إن لم تجمعهم كلهم على محاربتها وتکفير المبشرين بعقائدها .
- ونعود فنقول إننا قرأت شيئاً من الكتب التي ألفها المجددون المسلمين في الهند

من لا يقولون بنبوة القاديانى ولا يقولون بأنه هو المسيح الموعود أو مهدي آخر الزمان ، فلم ترقى أقوالهم ما يمس عقائد الإسلام وإن كانت لهم تفسيرات وتحريمات لا يقرها جميع الفقهاء ، وشأنهم في التفسير والتخرير شأن الفرق الإسلامية التي تحتجد في الدين ولا تنقض أصوله ، فهي في حظيرة الإسلام لاقتضي بها حرية البحث التي كفلتها للباحثين هذه الديانة السمححة في مختلف العصور والأقطار .

وما تتميز به هذه الجماعات الجديدة أمران :

أحدهما فرط النشاط في التبشير بالدعوة الخمودية وترجمة الكتب النافعة في هذا المسعي إلى اللغة الإنجليزية على النصوص مع المثابرة على نشرها وترويجهما في أمريكا ، وأوربة والجزر البريطانية ، واستاد هذا العمل إلى فئة من الشبان المثقفين المستعدين لدفع الاعتراض العقلى أو النقلى بالمعقولات التي يفهمها الغربيون ، أو بالنصوص التي يتسع أولئك الشبان في تفسيرها على نحو كفيل بالإصلاح والاقناع . وقد يتصرفون في تفسيراتهم كما قلنا ولكتهم يقتربون بها من عقول المتعلمين والتعلمات هناك فلا يعرضون عنهم كما يعرضون عن الجامدين المتحجرين في فهم الكلمات والحرف .

والامر الآخر طرائفهم العجيبة في تطبيق النصوص القرآنية على الأحوال الزمانية ، لأنهم يعلمون أن أحوال الزمان لا تخرج على مللول تلك النصوص إذا اهتدى ذو البصيرة إلى فهمها وحسن تطبيقها ، وما دام القرآن كتاباً باقياً لا يختص به عصر دون عصر ولا قبيل دون قبيل ، فهو يحتوى في مضامينه كل ما يشغل المؤمنين به في العصور الحديثة كما احتوى في مضامينه كل ما شغل المؤمنين به منذ نزوله في عصر النبي ﷺ .

وهذا مثل من أمثلة كثيرة من طرائف هذه التطبيقات العصرية التي ينشرونها باللغة الإنجليزية ، وهو رسالة عنوانها : «تسليم أوربة وأمريكا» أى تحويلهم إلى عقيدة الإسلام *Islamigation of Europe and America* لمؤلفها السيد محمد على مترجم القرآن إلى الإنجليزية ومؤلف الرسالة التي لخصناها عن نظام العالم الجديد .

فالسيد محمد على يستشهد في صدر هذه الرسالة بكلمة للكاتب المشهور

برناردشو في «الزواج» يتتبأ فيها بأن الإمبراطورية البريطانية كلها ستدين ببداية إسلامية منقحة قبل نهاية القرن العشرين».

ويقول السيد محمد على إن هذه النبوة قدية في القرآن والتوراة ، ولكن الذين يقرأون الكتب السماوية لا يفطرون لمعانيها ولا يفسرونها على وفاق مدلولها فإن ظهور المهدى أو المسيح بين المسلمين مقروء بظهور المسيح الدجال ، وسيادة بعض الأمم التي سميت بياجوج وأaggioج

والقرآن الكريم يقول عن ياجوج وأaggioج إنهم سينطلقون في اليوم الموعود (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض وتفخ في الصور فجمعتهم جمعاً) وأنهم كانوا محبوسين محجوزين (حتى إذا نفتحت ياجوج وأaggioج وهم من كل حدب يتسلون).

قال السيد محمد على : وقد ذكرتهم التوراة في سفر حزقيال حيث جاء فيه : «يا ابن آدم اجعل وجهك على جوج أرض ماجوج رئيس روش ماشك وتتبأ عليه وقل : هكذا قال السيد الرب . ها أنذا عليك ياجوج رئيس روش ماشك وتويا ، وأرجعك وأضع شركاتم في فكي وأخرجك أنت وكل جيشك خيلاً وفرساناً كلهم لا يسِن أفندر لباس ، جماعة عظيمة مع أتراس ومجان كلهم مسكن السيف : فارس وكوش وفوظ معهم كلهم يهجن وخودة ، وجومز وكل جيوشة وبيت توجرمه من أناصي الشمال مع كل جيشه شعوباً كثيرين معلك».

أو حيث جاء فيه : «ها أنذا عليك ياجوج رئيس روش ماشك وتويا ، وأردك وأقودك وأصلدك من أناصي الشمال .

نهل يدرك القاريء ، من هم ياجوج وأaggioج هؤلاء في رأي السيد محمد على ورأي القادياني من قبله؟

إنهم هم الروس والإنجليز ، أو السلاف والتبيتون في الشمال ، ومصداق ذلك أن الماشك قريبة من الموسكو ، وأن الروش قريبة من الروس ، وأن ميشك وتويا نهران في روسيا تنسب إليهما موسكو وتوپلس العاصمتان المعروفتان الآن ، وأن الروس والإنجليز معاً قد جمعوا شعوب الأرض للتغلب على ملك الدنيا ، وسينقلب بعضهم على بعض ويوج بعضهم في بعض ، قبل أن يجمعهم داعي السماء إلى كلمة الحق والسلام .

وهذا مثل من أمثلة التفسيرات والتطبيقات التي قلنا إنهم يتزخرصون فيها ويكتدون بها إلى حوادث الزمان الحاضر وما يليه ، ويعتقدون أنها وما سيعقبها من الحوادث العالمية مكتنونة في آيات الكتب السماوية تنتظر من يفتح الله عليه بفهمها وإدراك مغزاها فيتولى تبصير الأم بما أنذرتهم به السماء وما ساقته إليهم من البشر ، وهم لا يفقهون .

أما الفتح أو الإلهام فقد جاء في كتاب من تأليف ميرزا أحمد القادياني نفسه عنوانه «تعاليم الإسلام» و موضوعه حل المشكلات الدينية من وجهة النظر الإسلامية . وفيه أن العقل والتعليم مصدران من مصادر المعرفة الإلهية ولكنهما في مرتبة دون مرتبة الإلهام . وأن الإلهام درجات تبدأ بالخلس الصادق وتنتهي «بعين اليقين» وهو أعلى مراتب الملهمين ، وأنه من الخطأ أن يخلط بين الإلهام الفنى والإلهام الديني ، لأن الإلهام الفنى قد يكون في الشر كما يكون في الخير . وقد يقال إن اللص وهو يحاول سرقة المكان سمح له خاطرة ملهمة لتسخير السرقة ، ثم تسخير الهرب من الحراس ، وليس هذا من الإلهام الرباني في شيء ، وإنما يكون إلهام الله في سبيل الحقائق العليا والكشف عن الأسرار الروحية والنفاذ إلى لباب الخلق وبواطن الحكمة الإلهية ، وهذه منزلة يرتقي إليها طلاب الوصول إلى الله ومنهم ميرزا أحمد القادياني في رأيه وأراء مریديه .

وبعد فإن الأمر الجدير بالعناية من حركة هؤلاء الدعاة أنهم يذيعون محسنون الإسلام ويجهدون في نشره وتفسير الاعتراضات الغربية التي تتوجه إليه ، وفي هذه الحركة نفع مشكور ، وإن لم تبلغ مرمها المقصود من «تسليم الأوروبيين» والأمريكيين لأنها تزيل الشبهات ، وتدرج الأكاذيب ، وتقرب بين الشعوب ، وترفع المسلمين في أنظار الأمم التي كانت تظن بهم الظنو .

أما التفسيرات التي ذكرنا أتفاً مثل من أمثلتها فلا ضمير فيها ما دامت تصون الإيمان ولا تفسد العقل بما ينافق التفكير المستقيم . ونعود فنقول إن الغيورين على الدعوات المجيدة على اختلافها يخسرون بالغلو في تعظيم أئمتهم ، ويكسبون لعقائهم ولأولئك الأئمة كلما وقفوا على حد الاعتدال .

## الإسلام والنظام العالمي الجديد<sup>(١)</sup>

-٤-

هذه هي الدعوة الثانية من الهند في هذا الموضوع ، وهو موضوع الإسلام وأحكامه التي تكفل للعالم بنظام شامل يحل معضلاته ويتوصل الروابط بين أمه ويسهل فيه الطمأنينة والسلام .

وقد كتبت في الرسالة عن الدعوة الأولى لصاحبها المولى محمد على الكاتب الهندي المشهور ومترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية .

وهذه الدعوة الثانية هي خطاب القاء ميرزا بشير الدين محمود أحمد في الاجتماع السنوي للجامعة الأحمدية بقاديان سنة ١٩٤٢ ، ثم ترجم إلى اللغة الإنجليزية وعنيت الجماعة بنشره قبل بضعة شهور .

ويبدو من مطالعة هذا الخطاب أن صاحبه يوجه النظام العالمي إلى حل مشكلة الفقر أو مشكلة الشروق وتوزيعها بين أم العالم وأفراده ، وأنه بغير شك على اطلاع واسع محاط بالأنظمة الحديثة التي عوّلحت بها هذه المشكلة ، وهي نظام الفاشية ونظام النازية ونظام الشيوعية ، وبعض النظم الديموقراطية .

ولكنه يعتقد بحق أن المشكلة لا تحل على أيدي السياسة وزعماء الأحزاب والحكومات ، وأنه لامناص من القوة الروحية في حل أمثل هذه المشكلات ، لأن الحل الشامل لكل مشكلة إنسانية عامة يتناول الإنسان كله ولا يهمل فيه الباعث الأكبر على الطمأنينة والحماسة للخير والصلاح ، وهو باعث العقيدة والإيمان .

وقد عَرَضَ للأديان الكبرى القائمة في الهند خاصة - والعالم عامة - من حيث علاقتها بهذه المشكلة وتدبير الحلول التي تزود العالم بنظام جديد أفضل من نظامه المفضوب عليه ، فأدى بالأدلة الكثيرة على انفراد الإسلام بينها بجزية الإصلاح وعميمه بين جميع الأجناس والطبقات فيما مضى وفي هذا الزمن الحديث .

<sup>(١)</sup> الرسالة ١٩٤٢/١١/٢٥

فالديانات الهندية تعلم الإنسان أن تفاوت الطبقات قضاء من الأزل لا نجاة منه خلوق ، لأن الأرواح تنتقل من جسد إلى جسد جزاء لها على ما جنت في حياتها السابقة من السيئات والذنوب ، فهي تخرج إلى الدنيا بتصنيف محظوم لا يقبل التبديل ولا يحسن تبديله إذا استطاع - وإن استطاع - لأنه هو سبيل التكفير والارتفاع من حياة إلى حياة . وقد جاء في قوانين مانو : «إن الفرد من طبقة السودرا لا يجمع الشراء ولو قدر عليه ، لأن قراءه يؤلم نفوس البرهميين» . فإذا دخل بعض المال لحاجاته التي تزيد على القوت والكساء حق للحكومة أن تجرده من ماله وتركه للفاقه والكافاف ، وهكذا تقوم الفواصل بين الطبقات المختلفة ، وهي طبقات البرهمان والكتشاتريا والفاشيا والسودرا وهم أنسنة الطبقات .

وتقضي القوانين البرهمية بسداد الديون بالعمل إذا كان الدائن والمدين من طبقة واحدة . فاما إذا كان المدين من طبقة أعلى من طبقة الدائن فلا سداد إلا بالنقد أو العين متى تيسر ، ولا إلزم بالسداد قبل التيسير .

وتحجب التفرقة بين الإخوة في حقوق الميراث إذا اختلفت أمهاتهم في الطبقة الاجتماعية . فيقسم الميراث كله إلى عشر حصص متساوية ، ويعطى ابن البرهمانية أربعاً وأبن الكشاتيرية ثلاثة وأبن الفاشية اثنين وأبن السودرا حصة واحدة على قدر ما يجوز له من الشراء .

ومن حق البرهمان أن يستولى على ملك خادمه من السودرا لأنه وما ملك في طاعة مولاه .

فإذا كان الإصلاح العالمي محتاجاً إلى حماسة العقيدة ، وكانت هذه عقيدة المؤمنين بالديانات الهندية فلا رجاء فيها للعلاج مشكلة الفقر وإنصاف الطبقات المظلومة والتقريب بين الناس في حظوظ الحياة .

أما الإسرائيلية فهي بأحكامها المنصوص عليها في كتاب العهد القديم تخصل اليهود ولا تعم الأم جميعاً بالمساواة ، فحرام على اليهودي أن يقرض يهودياً بالربا ولا يحرم عليه أن يتناقض الربا المضاعف من أبناء الأم الأخرى . ولا يجوز استرافق اليهودي طول حياته ولا تزيد مدة فسق على سبع سنوات ، ولكن استرافق العبيد في الأم الأخرى جائز في كل حال ولا حرج عليه . وفي الإصلاح العشرين

من سفر التثنية يقول العهد القديم لشعب إسرائيل : « حين تقرب من مدينة لكى تغاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجبتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تساملك بل عملت معك حرفاً فمحاصرها ، وإذا دفعها رب إلهك إلى يدك فأخوب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها لنفسك ... وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك رب إلهك نصبياً فلا تستق منها نسمة ما ... . »

هذه هي حدود المعاملة بين المؤمنين بالعهد القديم وسائر بني الإنسان ، فإذا سادت هذه المبادئ فالألم كلها عبيد مسخرة وأبناء إسرائيل وحدهم هم أصحاب السيادة والثراه .

واليسجحية كما هو معلوم لم تعرض لمسائل القانون وسائل السياسة أو الاجتماع ، ولهذا كانت دعوتها إلى السلام من الدعوات التي تصطدم بالواقع وتتخض عن حروب لا تتقطع وحزارات بين الطبقات لا يهدأ لها أوار كما نرى في تاريخ أوروبا الحديث والقديم .

لكن الإسلام يتناول مسائل الاجتماع وسائل العلاقات بين المغاربين والمغاربين . فال المسلم يقاتل إذا ظلم وأنحرج من دياره ، ويأمره كتابه إذا ملك الأرض أن يقسم الصلاة ويؤتي الزكاة وأمر بالمعروف ونبه عن المنكر : ﴿فَإِذَا لَدُنْ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>(٣٩)</sup> الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم بعض لهدمت صوامع وبع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصر الله من ينصره إن الله القوي عزيز<sup>(٤٠)</sup> الذين إن مكثاًهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور .

ولا يجوز الإسلام للنبي أن يكون له أسرى : ﴿مَا كَانَ لَنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

ثم هو يستحب لل المسلم أمن أو الفداء : ﴿فَإِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرِبُوا الرِّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَلْخَتَمُوهُمْ فَشَدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَا يَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرَبُ أَوْ زَارَهَا﴾ .

ومن بقي في الأسر وطلب المكاتبة فقبول طلبه واجب على مولاه : ﴿وَالَّذِينَ يَتَغَيَّرُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمُ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتُوْهُمْ مِّنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ .

ولا مطمع في معاملة بين الشعوب المتعادية أعدل من هذه المعاملة وأقرب منها إلى إزالة العداء والبغضاء . فاما المعاملة بين المسلمين فهي كفيلة بانصاف جميع الطبقات ، لأن الناس يتضادون بالأعمال الصالحة ولا يتضادون بالظاهر والأنساب ، وينكر الإسلام الجور في توزيع الثروة فلا يجوز لأحد أن يكتنز الذهب والفضة قنطرة مقتصرة ، ومن جمع مالاً وجب عليه أن يؤدى زكاته للفقراء والمساكين ومصالح الجماعة بأسرها ، وعليه أن يعين من يطلب منه العون قريضاً حسناً لا مضاعفة فيه للربا ولا تجاوز فيه لتكاسب البيع والشراء ، فلا تطفيف للكيل ولا مغالاة بالربح ولا عالسة ولا خداع ، وكل يجزى بعمله وسعيه دون اىشار لأحد على أحد في خيرات الأرض جميعاً : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ فلا يزعن إنسان أو جموع من الناس أنه أحق بالأرض من سواه .

فالنظام العالمي لا يعتمد على عقيدة أصلح لتعيممه وحسن التفوس عليه من العقيدة الإسلامية ، وقد أجاز الإسلام التوصية وندب لها المسلمين في بعض الحالات . فإن قصرت موارد الزكاة فموارد التوصية لا تضيق بما يطلب منها ، لأنها تشمل جميع الأموال والعروض ، وقد حدث «الميرزا أحمد القادياني» أتباعه على التوصية بقدر من ثرواتهم يتراوح بين عشرها وثلثها ، لإنفاق منها على الدعوة والإصلاح .

ولم يقصر المؤلف - أو صاحب الخطاب - مقابله ومقارنته على العقائد الدينية التي أجملنا الإشارة إليها فيما أسلفناه ، ولكنه خصها بالعناية لأن العقيدة كما قال

هي أمل الإصلاح الوحيد ، ونظر معها إلى النظم السياسية أو الاجتماعية فإذا هي فاقدة عن بغيتها من الوجهة العملية والوجهة الروحية على السواء .

فالفاشية - ومثلها النازية - لا توسم نظاماً عالمياً مكافئ الدوام لأنها تقوم على تفضيل الجنس والعصبية القومية ، فلا مكان فيها لأم العالم غير الخضوع والتسليم للجنس الذي يزعمون له حق السيادة والرجحان .

والشيوعية تعطل البواعث الفردية ، وتسلب النفس حواجز الاجتهاد وتجعل الحياة مادة في مادة لا يتخاللها قبس من عالم الروح ، وتأخذ للدولة كل ما زاد من ثمرات الأفراد ، ولم تفلح مع هذا في إنصاف العاملين ، لأن السادة في روسيا الشيوعية طبقات فوق طبقات في الترف والمتعة . وقد روى الصحفيون أن وليمة الدولة للمستر ويلكى مدت فيها ستون صحفة من ألوان الطعام ، فهل يجعلون هذه المائدة مثلاً يقتدى به المقتدون؟ أو هي بذلك مقصورة على فريق من الضيوف دون فريق؟

\*\*\*

والترجمة الإنجليزية التي اشتغلت على تفصيل هذه الخلاصة تقع في مائة صفحة من القطع المتوسط وبعض صفحات ، وتحسبها صحيحة لا تذهب في الهواء إذا انتشرت بين قراء الإنجليزية الأوروبيين والأمريكيين ، بل الهنديين والشرقيين ، ولكننا نقرأ فيها أن مؤلفها يُلقب بأمير المؤمنين وأنه الخليفة الثاني للمسيح الموعود ، ومعنى ذلك أنه من فريق القاديانيي الذين يدربون برسالة «مسيحية» أو مهدية للقادياني ولا يكتفون له بوصف الاجتهاد كما اكتفى المولى محمد على وأصحابه من الهند المسلمين . فنعجب لهذه الألقاب التي تحيط الدعوة بين المسلمين أنفسهم بأسباب الخطوط والإشكال ، ونسأله : ما هو موضع هذه المسيحية الجديدة أو هذه الخلافة إذا كانت الحجج التي ساقها المؤلف كلها من المراجع الإسلامية الأولى ، ولا زيادة عليها من وحي جديد؟

فخير للدعوة أن تقصى عنها هذه الألقاب التي لا تزيد لها قوة وتأخذ منها كثيراً من قوتها بين المسلمين أنفسهم ، فضلاً عن غير المسلمين .

## عقيدة الذات الإلهية في الإسلام<sup>(١)</sup>

ورد البحث في عقيدة الذات الإلهية عند أم العالم خلال كتاب مطول ألفه الأستاذ نورثروب Northrop وجعل عنوانه ملتقى الشرق والغرب The meeting of East and West متطرحاً فيه تقرير وجهات النظر في المسائل الجوهرية المختلفة عليها بين أم الحضارة العصرية وأم الحضارات الموروثة.

ويرى من عنوان الكتاب أنه مقصور على الملاقاۃ بين الشرق والغرب جملة واحدة من وجهة عامة ، ولكنه عند تفرع البحث يتتحقق من صعوبة هذه الملاقاۃ قبل الملاقاۃ بين أم المغرب على جهة ، وأم المشرق على جهة في أمور كثيرة تتزوج بتلك المسائل الجوهرية . فلابد قبل الملاقاۃ بين الشرق والغرب من التوفيق بين الحضارتين اللاتينية والسكنونية في القارة الأوربية ، ولابد بعد ذلك من التوفيق بين قوى التفكير الديقراطي وقواعد التفكير المطلق بين أم تلك القارة ، ولا غنى في هذه الحالة عن التوفيق بين وجهات الاعتقاد والتفكير منذ القرون القدمة ، وبين هذه الوجهات منذ أوائل العصر الحديث ، مع التناقض بينهما من بعض جوانبها والتشابه بينهما من الجوانب الأخرى .

ولكن هذه الفوارق جميعاً تنتهي عند المؤلف إلى فارق أساس واحد : وهو فارق الإيمان بالربوبية في ذات إلهية والإيمان بها في معنى بغير ذات ، كالمعنى الذي يقول إنه متمثل في العقائد البرهمية الأولى .

ويحسب المؤلف أن الإيمان بالربوبية في ذات إلهية من شأنه أن يدفع الأم إلى طلب الغلبة على غيرها ، وأن طلب الغلبة ليس بالشعور الأصيل عند المؤمنين بالربوبية في معنى ليست له ذات قائمة تزيد وتتفرد بالسلطان المطلق في الوجود كله منذ القلم ، فإن تزعمت الأم إلى طلب الغلبة لم يكن منزعها هذا من قبل العقيدة الدينية ، بل يعرض لها من قبل الدوافع الحيوية الأخرى أو البواعث السياسية .

---

(١) الأزهر أكتوبر ١٩٦٠ .

والآم التي تؤمن بالذات الإلهية هي عند المؤلف مجتمعة في أتباع الديانات الأربع الكبيرة ، وهي الموسوية والسيحية والإسلامية والشنتية Shintoism ديانة اليابان .

ويكاد المؤلف أن يجعل الإسلام قبل غيره مثلاً للديانات التي تؤمن بالريوية في ذات إلهية ، لأن إيمان المسلم لم يتم فيه الملاقة بالروح العلمية التي تولدت مع الزمن من انخضاع الحقائق التجارب الحسية كما حدث في معظم الأمم الغربية ، ولا بد من تعديل هذه النظرة ليؤمن المسلم بالله على ضوء الأصول العلمية ولا يحتفظ بيها كما كان في عهد النبي محمد صلوات الله عليه .

ويتساءل قائلاً : هل من المعقول أن يتضرر من ثمانين مليون مسلم في الهند على هذه العقيدة أن يلاقوا جيروانهم على وفاق يطول أمه ، مجرد استقلال الهند عن سلطان الدولة البريطانية؟ ..

نقول : إن ضلال التفكير عند هذا المؤلف على سعة اطلاعه وكثرة شواهده يتراهى من ملاحظة واحدة يخرج بها القارئ من كتابه ولا يحتاج إلى سند غير الأسانيد التي اعتمد عليها .

فلو أن المؤلف حجب النتيجة التي وصل إليها عن القارئ ولم يصرح بها في بحوثه المتتابعة مرة بعد مرة لجأ للمقارئ أن يفهم أن صاحبنا ألف كتابه ليثبت أن العقيدة الإسلامية هي أصلح العقائد لإيمان الإنسان بالله في عصر التجارب الحسية والقوانين التي يسمونها أحياناً بالقوانين العلمية .

فلا نعرف ضلالاً في التفكير يذهب بالإنسان من مقدماته إلى نقيضها المقابل لها في الطرف الآخر ، كما ذهب هذا المؤلف من مقدماته الطويلة إلى نتائجه المعموسة .

وأول ما يؤخذ عليه أنه ظن أن الإيمان بالريوية معنى بغير ذات فكرة مستطاعة في الضمائر الإنسانية أيًّا كان تغييرها عن تلك الفكرة بكلمات العبادة أو مصطلحات الفلسفة ..

فربما قال الفلسفه الأقدمون من البراهمة إن الإله فكرة مجردة بغير ذات تقوم بها ، ولكنهم لا يبدأون الكلام في الخلق إلا ظهر من كلامهم أن هذا الإله ذات

تريد وتقدر وتقبل الأرواح الطيبة وترفض الأرواح العاصية ، وتسجل تارة على مثال الرب الخالق وتارة على مثال الرب الحافظ ، وتارة على مثال الرب المهلك أو المبيد ، وقد نقل عنهم أبو الريحان البيروني الذي اطلع على كتبهم بلغتها القديمة تفصيلات عقائدهم في الريوبية فأحسن نقلها كما ظهر بعد ذلك من ترجماتها إلى اللغات الأوربية الحديثة بأقلام الثقات من علماء تلك اللغات هنوداً وأوريبيين ، وما نقله عنهم أنهم يؤمنون بالإله برهمن ويعتقدون أنه المطلق الذي لا يوصف ولكنه يتجلى على أشكال من الآلهة والخلوقات ، وإن فيشن Vishun جعل نفسه أرضاً يجعل نفسه ماء وجعلها ناراً وجعلها قلوباً تتپس في صدور الأحياء .

فليس هناك من فارق بين أصحاب العبادات في تحقيق الذات للمعنى الإلهي إلا أن الإسلام واضح متفرد العقائد وأن القائلين بالمعنى الإلهي الذي لا تقوم به ذات مريدة يقررون بالرأي ما ينتصرون بالشرح والتفصيل .

فيما انتهينا من الإيمان بالذات الإلهية إلى الاختلاف على صفاتها فالإسلام يعطيها الصفات التي توافق حاجة الضمير إلى الدين في جميع العصور ، وأنصها عصر القوانين العلمية ، بل عصر القوانين العلمية كما انتهت إليه عند أحدث المحدثين .

إن الضمير الإنساني لا يطلب الإيمان ليتحول به مع كل تجربة علمية إلى معنى من المعانى الإلهية ملتف على قياسه ومتواله .

فليس من شيء يملأ العقل والضمير بالخير والاضطراب كما تملؤه تلك المقررات التي يلغى بعضها بعضاً أو تتوقف صحة بعضها على صحة سواه ، فكلها من المعارف المضادة أو المعرف النسبية التي لا يقوم عليها ركن ثابت من أركان الإيمان والثقة بالوجود المطلق والحياة المرمدية .

إن الضمير لم يذهب في طريقه الطويل إلى الثقة بمعنى الوجود ليفسرها تارة بذهب داروين وتارة بذهب كوبرنيكوس وحيثما يذهب كارل ماركس وحيثما آخر يذهب برجسون وسوادهم عن يتفلسفون أو يستخلصون القوانين العلمية والتوصيات الطبيعية .

وفي هذا العصر - على التخصيص - قد ثبت للعلماء أن التجربة العلمية لا تستطيع أن تقرر قانوناً ينبعنا عن تصرف الكهرب كيف يكون في اللحظة التالية .

فهذا الجزء الصغير الذي تتألف منه المادة كلها وترتبط حركاتها جمِيعاً على حركة داخل النة وخارجها مجهول الحركة كل الجهل ولا يمكن الحكم عليه إلا على وجه التقرير قياساً على إحصاء المصادفات ، وليس هناك من قانون علمي معروف غير المقابلة بين هذه المصادفات ، وأخذتها بالظن جداً كما أخذنها بالظن أمس وقبل أمس إلى نهاية الرصد المعلوم .

والعلماء القائلون بذلك أمثال إيستر وهائزبرج وشروعنجر وغيرهم وغيرهم يصررون الأمثال لهذه القوانين الإحصائية ببعض المشاهدات اليومية التي تصور لنا كيف تتفق المصادفة مع التحقيق .

يقولون مثلاً : إن شركة التأمين تستطيع أن تبني حسابها وتنظم عملها وتجنب أرباحها من تقدير نسبة البيوت التي مستعرض للحرق يواحد في الألف من جملة البيوت ، ويصدق حسابها على وجه التقرير فيحترق أثناء السنة مائة بيت أو نحو ذلك ، ولكن هذه الشركة لو سئلت عن بيت واحد معين بين هذه البيوت لم تستطع أن تدل عليه قبل احتراقه ، وهكذا يفعل العالم الطبيعي حين يقرر نسبة الكهارب التي مستحوذ من جسم معلوم مع المؤثرات الطبيعية الخاضعة للرصد والإحصاء ، فإن ذلك الجسم يحتوى ملايين الملايين من الكهارب التي ترصد حركاتها على ذلك المثال فتعرف بالنتيجة النسبية ولا تعرف على التعين والتحقيق في كل واحد منها ، وتلك هي القوانين الطبيعية كما يفهمها أساطير العلوم الطبيعية في هذا العصر الذى يظن الأستاذ نورثروب أنه جاء بالقوانين المصححة للدين .

مصادفات تسجلها بوقائعات الإحصاء على حسب العادة ، وليس فيها حقيقة واحدة تقييم الإيمان على قرار مكين ، وأين من طبيعة الإيمان قضية تقوم على مصادفات شركات التأمين؟ .

وندع القوانين الطبيعية وننظر إلى القوانين الاجتماعية التى يدعى لها أصحابها أنها محور التقدم والحمدود في حياة الشعوب .

منذ خمسين سنة كان الأكثرون بين أصحاب هذه القوانين يتعون على الإسلام أنه دين جمود لأنه يعوق المعاملات الاقتصادية ولا يسمح بتنظيم المصادر

والشركات لتجريه قروض الربا وإنكاره لكل ربا الجاهلية على كل صورة من صوره  
البيئة أو الخفية .

فلم يضر جيل على هذه الصيحة حتى سمعنا أصحاب قوانين أخرى يصيرون  
بأن رأس المال كله نكبة على الإنسانية وعائق من عائق الحرية الكريمة والعمل النافع .  
فماذا ينفع الناس بين هذه القوانين من إله «ناري» يتتحول مع التجارب الحسية  
والفروض التي يسمونها بقوانين الطبيعة؟

إذا كان للناس أن يحسوا بال الحاجة الخاصة إلى الإيمان بالريوبية في ذات إلهية لها  
كمالها المطلق ومشيئتها الباقية فمحاجتهم في هذا العصر إلى تلك العقيدة أمن  
وأقوى من حاجتهم إليها في عصر الدخوة الخدمية ، لأن تزعزع الأساس الذي يسند  
قوانين العلوم الطبيعية لم يثبت - علمياً - كما ثبت في عصرنا هذا المرسوم بسمة  
التحقيق والتقرير .

هنا يشعر الضمير الإنساني بال الحاجة إلى الإيمان بالكمال المطلق والحكمة الخالدة  
بين أشتات من المعارف والفروض كلها مضاف إلى غيره وبعضها يتضمن بعضها في  
مدى عمر الإنسان .

والإسلام يأذن للمسلم أن يبذل فروضه الحسية كي فيما شاء وشاءت له تجارب  
الحسن وضرورات الحياة الموقنة ، ولكن لا يأذن له ولا يضطره إلى تبديل إلهه كلما  
خرجت له تجربة جديدة من هذا العمل أو ذاك وكلما قال قائل باسم العلم أنه  
يثبت هذا وينكر ذاك ، وليس وراء كل ثابت ومنكر إلا فلق الضمير ثم اعتماده على  
الوجود المطلق بين هذه النسب والإضافات .

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ .

﴿وَلَا إِلَهَ يَكُلُّ شَيْءٍ مُحِيطٌ بِهِ﴾ .

والله الذي يحيط بكل شئ ، وبكل زمان ، هو إله الإيمان ، وطلبة الإنسان .

## **العالم الإسلامي وأجغرافيّة الدينية<sup>(1)</sup>**

تتفرع من العلوم المعاصرة مباحث مستقلة ، يطلق عليها بعضهم اسم العلوم لاستقلاليتها ب موضوعاتها الخاصة ، ولكنها أخرى أن تسمى بالباحث كما سميناها ، أو تسمى بالدراسات العلمية ، لأنها أقرب إلى التطبيقات التي تبني على العلوم المتفرقة منها إلى العلم المنفرد بقواعد وتجاريه وأصوله .

وعلى سبيل المثال نذكر في هذه الدراسات ما يسمونه بعلم السياسة الجغرافية وهو غير الجغرافية السياسية ، وقد شاع شيئاً كثيراً بعد الحرب العالمية الأولى لأن هذه الحرب قد أظهرت بالأمثلة الجلية فعل الموقع الجغرافي في توجيه السياسة الدوليّة وتوحيد خططها وإن تبدلت حكوماتها بين إمبراطورية وجمهورية أو بين حكومة مطلقة وحكومة دستورية .

ولا يلتبس موضوع الجغرافية السياسية وموضوع السياسة الجغرافية Geopolitics فإن الجغرافية السياسية مبحث قديم يعلم الناس موضوعه الفصل منذ زمن بعيد ، وينتظرون منه ما هو من باقه بغیر الشناس بين أبواب المباحث المتعددة ، وكل ما ينتظره الناس من مباحث الجغرافية السياسية أن تزودهم بالمعلومات عن يقان الأرض من جانب أحوال الدولة ونظم الحكم وعلاقات البلد بما حوله وسائر بلدان العالم المعمور .

أما السياسة الجغرافية فالذين يدرسونها يهتمون قبل كل شيء بموقع البلد وما يفرض هذا الموقع على سكانه من خطط الدفاع والهجوم ومن أساليب الإدارة والحكومة ، ويريدون أن يثبتوا بدراسة هذا الموقع الجغرافي أنه هو الذي يملأ على الدولة سياستها في جميع أطوارها . فلا تستطيع ألمانيا - مثلاً - أن تغير قواعد سياستها ما دامت في موقعها من أوروبا الوسطى وما دامت محاطة في البر والبحر بحدودها المعروفة ، ولا تستطيع روسيا من عهد الخانات إلى عهد بطرس الأكبر إلى

<sup>(1)</sup> الأزهر سبتمبر ١٩٥٩ .

عهد الثورة الشيوعية أن تسلك في علاقاتها بالشرق والغرب مسلكاً يخالف مسلكها المرسوم في جوهره ، وإن اختلفت التراث و الأسماء .

وقياساً على هذا البحث الذي نسوقه على سبيل المثال شأناً في العهد الأخير مبحث طريف خطير يسمونه بالجغرافية الدينية أو بجغرافية الدين Geography of Religion ويدل اسمه على موضوعه بغير حاجة إلى الإسهاب في شرحه . فإن هذا الاسم يوحى بالعلاقة بين الدين وموقع البلاد ، ويدل على اعتقاد الباحثين في هذا الموضوع أن الموضع شأناً في انتشار دين من الأديان أو في إعراض السكان عنه ، أو حاجتهم إلى وسائل الإقناع أو وسائل الإكراه في قبوله ، وإن الموضع شأناً في تقديم بعض هذه الوسائل على بعضها وتغلب الإقناع أحياناً على الإكراه أو تغلب الإكراه أحياناً أخرى على الإقناع .

وقد تأخر ظهور هذا البحث إلى الفترة الأخيرة من القرن العشرين ولم يكن من المستطاع أن يتقدم بالظهور قبل ذلك ولو بزمن قصير ، إذ كان من اللازم قبل ظهوره أن تستوفى المعلومات الجغرافية عن يقان الأرض وعن سكانها وعن عقائدهم من قديم عصورهم إلى حديثها ، وكان من اللازم أن تتعقد المقارنات الفصلية على حسب الإحصاءات الدقيقة بين أدوار التاريخ وأطوار العقائد ودرجات الزيادة والنقص في عدد المتندين بالدين الواحد مع تقلب الأدوار والأطوار .

ولم يكن علم ذلك كله ميسوراً قبل هذا القرن العشرين ، وإن كان بعض هذا العلم قد عرف في العهود الماضية ، وقيل على أساسه ما قبل من أن أديان التوحيد تناسب البلاد التي يقل فيها اختلاط العناصر الطبيعية ، وأن قوى الطبيعة إذا تعددت في بعض الأقاليم كان لها أثرها في اعتقاد أهلها ان القوى الإلهية متعددة من ورائها .

بل على أساس البحث في الجغرافية الدينية جرى الحوار - بين السيد جمال الدين ، وأرنست رينان - في أثر الإسلام وأثر المسيحية بين الصحراء وبلاد الخصب والعمران .

إلا أن المعروف من هذا البحث قبل القرن العشرين لم يكن ليزيد على المعروف يومئذ من تفاصيل الجغرافيا والتاريخ وإحصاءات الحوادث والسكان ، فلم يكن على

اوسعه وأعمه كافياً لاستقلال البحث ب موضوعه ذلك الاستقلال الذي سوّغ لبعضهم أن يحسبه علمًا بين سائر العلوم .

ولا نرى أن المعارف والإحصاءات التي تعتمد عليها دراسات الجغرافية الدينية قد ختمت اليوم أو أذلت بالختام ، ولكنها قد وصلت - ولا ريب - إلى الحد الذي يقنعنا بقيام موضوع البحث وارتقاء النتائج الصحيحة من تطبيقه ، ولو لم تثبت هذه النتائج حتى الآن كل الشروط .

وقد توسيع الباحثون في تطبيق هذه الدراسة على الديانات الكبرى وفي مقدمتها الديانة الإسلامية ، فكتب علماء الفرنسيين والألمان والاسبان والإنجليز وغيرهم كتاباً منوعة منها الإسلام والحياة المدنية ، وعن خصائص الإسلام وطبياع البلدان ، وعن الإدارة الإسلامية في القارات المختلفة ، وعن ثغر الإسلام في الشروق والمحكمة ، وعن الإسلام والبيت والحاضرة ، وعن الإسلام وتشمير التربية والزراعة ، وعن علاقة الواقع الجغرافية بكثرة الحجاج وقلتهم وأثر هذه القرىضة في الشعوب التي ينتسبون إليها ... إلى أشياء ذلك من مطابع البحث وزواياها المتشعبة ، ومن أسمائها في ذيل كل كتاب يلم بها تبين أنها مكتبة ضافية ، لم يصل إلينا في لغتنا العربية غير القليل منها .

\*\*\*

وآخر ما اطلعنا عليه من هذه الدراسة كتاب ألفه الاستاذ إكسافييه بلانهول Xavier planhol بالفرنسية منذ سنتين وترجم إلى الإنجليزية في هذه السنة ظهر فيها باسم عالم الإسلام The World Of Islam ودار البحث فيه على موضوعين من أهم موضوعات هذه الدراسة الحديثة ، أحدهما عن التجمع وأحوال المعيشة المستمدة من الدين في الأقطار الإسلامية ، والأخر عن العوامل الجغرافية التي ساعدت على انتشار الإسلام .

ونحن لا نكتب هذا المقال عن هذا الكتاب لنربط القول في آرائه وتقديراته فإنها - أولاً - أكثر من أن يشملها مقال واحد مع ارتباطها بقواعد البحث في جغرافية الدين كما وردت في الكتب الأخرى ، وهي - ثانياً - لا تمحى من العلوم المقررة التي بلغت نضجها وسررت بين الباحثين سريان المبادئ المتفق عليها ،

ومعظمها لا يزال في الواقع أقرب إلى التخمينات المحتملة التي قد يعدل عنها أصحابها ويعينون تخمينها على وجه آخر في مناسبات أخرى.

إنما نذكر الكتاب لنورد مثلاً من آرائه أو نظرياته ، ومثلاً من خطأه وفالطاته ، ومثلاً من عيوب هذه الدراسة الجديدة كي فيما كان تطبيقها على الإسلام أو على غيره من الأديان .

فمن أمثلة آرائه التي تستند إلى أصل صحيح في أحكام الإسلام : أن الإسلام يناسب الأمصار ويطلبها ويبحث عنها لأنه يقيم فيها الأحكام ويتم فيها فرضية الصلاة الجامعة ومراسم الدين التي يتولاها الأئمة ، فهو أدنى إلى طبيعة المدن وإن كان متبايناً في الصحراء .

ومن أمثلة آرائه عن الدين الإسلامي خاصة بين الأديان أنه ينتشر حيث تتواءن العوامل السياسية والعوامل الطبيعية ولا يحتاج الأمر إلى مجهد صناعي لتغليب أحدهما على الآخر ، وقد ينتشر بالوسائل السلمية في الأقاليم التي تتصل فيها المدن والمزارع والغابات كما حدث في الجزء الأندونيسية .

ولنا أن نتقبل هذه الآراء على أنها ملاحظات تاريخية تصف الواقع فيما مضى ولا تتعرض للأسباب والتعليلات ، ولكن مؤلف هذا الكتاب ومن يشارونه من الباحثين في هذه الدراسة الجديدة يخطئون كثيراً كلما انتقلوا من وصف الواقع إلى تعليله وتفسيره ، ثم ينقدون للخطأ طوعية على الرغم من قدرتهم على كشفه وتصحيحه لو كلفوا أنفسهم بعض الجهد في المقارنة ، والقابلة بين نظائر هذه الأحوال في ظل الدينان الأخرى .

يقولون مثلاً : إن الإسلام قد احتل في عصر من العصور شواطئ البحر الأبيض حول البحر كله من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب ، ولكنه تراجع عن الشواطئ الأوروبية لسبب يتعلق بطبعية الدين الإسلامي ولا ينحصر في أسباب السياسة ولا في المقاومة من جانب الأمم الأوروبية .

وهذا السبب الذي يتعلق في رأيهم بطبعية الدين الإسلامي هو أن الإسلام ينظر إلى الزراعة نظرة الترف والإهمال وينكر حق الزارع في بعض مذاهبه إلى جانب حق المالك أو حق الدولة ، وأن النبي ﷺ نشأ في بيضة تجارية بين قومه

من التجار ورويَت عنه أحاديث ينذر فيها بالذل من يستغلون بالسكة والمراث .

قالوا : وهذا هو سبب الفشل الذي منى به المسلمون في الشواطئ الأوروبية لأنها لا تستغني عن الزراعة ، ونجوا منها في الشواطئ الأفريقية لأن الزراعة فيها لا تحتاج إلى مجهد ولا تزال الصحراء من ورائها تعتمد على المطر والمراعي .

والعجب في هذا الرأي أن يتافق عليه جملة من الباحثين في الجغرافية الدينية مع سهولة الاهتداء إلى وجه الصواب فيه لو أنهم يشاؤون أن يلتقطوا إليه .

فالإسلام قد يبقى في وادي النيل وهو أرض زراعية يعمل فيها الفلاحون عملاً مجهداً يشق على الفلاحين في غيرها . ولهذا عرف عن زراعتها أنهم أقربوا الجماجم ، لطول تعرضهم لأشعة الشمس التي لا يقوى غيرهم على إطالة المكث تحتها ، وروى هيرودوت فيما رواه أنه زار ميدان المعركة بين الفرس والمصريين فوجد بقية الجماجم الفارسية تتفتت من اللمس اليسير ، ولا يتفتت شيء من الجماجم المصرية وإن اشتد الضغط عليها .

وقد اختلت الزراعة في الشواطئ الأوروبية بعد جلاء المسلمين عنها ، وكانت في عهدهم أصلح حالاً مما صارت إليه بعد ذلك في عهد أمراء الإقطاع ، ثم انقضى هذا العهد كله لاحتلال أمراء الزراعة وقلة المحاصيل الزراعية في أيامه ، ثم صلحت شؤون الفلاحين بعد ظهور الآلات الحديثة وتقدم الفنون الزراعية وانتظام الشروة على أسس الصناعة وتبادل الواردات وال الصادرات إلى البلاد الشرقية والغربية ، وقد زال أمراء الإقطاع وزالت دوله الإقطاع كله بعد مقاومة من أبناء وطنهم تهون جداً إلى جانب المقاومة التي لقيها المسلمون لأسبابها الدينية ، والوطنية ، والسياسية .

وشبيه بهذا الخطأ عن الإسلام والزراعة خطأ آخر من أخطاء هؤلاء الباحثين عن الإسلام والحضارة أو الإسلام وتنظيم المدينة .

فعدتهم أن المدينة الإسلامية في العصور الماضية ، قبل اتصال المسلمين بالحضارة الأوروبية ، قد خلت من «الإدارة البلدية» Municipal وكان خلوها هذا دليلاً على اخلو من الشعور بالبنية الواحدة والتركيب الاجتماعي ، ولم تخل المدن الأوروبية قط من المجالس البلدية وما يقوم بوظيفتها من الهيئات المعنية بأمر الحكومة أو الهيئات المنتخبة ، وهم لا يعرفون لذلك علة غير قيام المدن الإسلامية برعاية

الوالي دون غيره وقلة الشعور في نفوس السكان بالرابطة «المدنية» التي تربط أبناء المسكن الواحد كما يرتبط الأعضاء في «شخصية حية» مشتركة .

والعجب في هذا المخطأ أيضاً أنه من الأخطاء التي يسهل تصحيحها لولا اتجاه الرغبة إلى الاتهام وانصرافها عن الإنصاف .

فالمدنية الأوروبية وجدت فيها «الادارة البلدية» إلى جانب السلطة الدينية التي كانت تتولاها الكنيسة وتفرض بها مشيئتها على المجتمع في شئون الأعراس والائم والرقابة على المدارس والخلفات وشعائر «التطويب» عند عقد الزواج وعند الإذن بالدفن وعند الاعتراف وسماع الموعظ وإعطاء البركة وما إليها من مراسيم السلطة الدينية التي لا وجود لها في الإسلام .

وفيما عدا هذا الإشراف من السلطة الدينية لم يدخل البلد الإسلامي قط من التنظيم الذي يدل على الشعور بالرابطة المدنية في أضيق نطاق وأوسعه على السواء ، ومن العجب أن يتحدى الجغرافيون الدينيون عن زوال الرابطة المدنية في حاضر الإسلام وهم يذكرون من خصائص هذه الحاضر أنها تقيم لكل صناعة حياً مستقلاً تأوي إليه ، وإن أحباء المعاشرة تتعدد على حسب الروابط الدينية والعنصرية كما تتعدد على حسب الصناعات والنقابات ، وما كان لقوم يفقدون شعورهم بروابط المسكن أن يشعروا بروابط «الحي» الواحد حيث يقيمون .

وقد حفلت كتب الأدب العربي بفاحر المدن وعيوبها حتى بين الفلاسفة والحكماء فضلاً عن الهجائن من الشعراء والأدباء ، وحتى بين أبناء المدن الأندلسية التي يحسبها الجغرافيون الدينيون حجة من حجج الفشل في حضارة الإسلام وزراعة الإسلام ، وقد تناحر ابن رشد وابن زهر يوماً مديدة فيما في حضرة المنصور بن عبد المؤمن من خلفاء الموحدين فقال ابن رشد لزميه الفيلسوف : «ما أدرى ما تقول . غير أنه إذا مات عالم بأشباعه فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع كتبه حملت إلى أشباعه» .

ولا يقع هذا الفخر بالمدن بين فيلسوفين طبيعيين ثم يقال : إن الشعور «بالشخصية المثلية» مفقود في تلك المدن بين عامة الناس الذين تشغلهم هذه العصبيات .

بل نحن لا نحتاج إلى أكثر من نظرة سريعة في الأسماء المشهورة لنعلم أن النسبة إلى البلدة سابقاً لكل نسبة محلية في ديارنا الإسلامية ، فلم يمض زمان بعيد على اقتران كل علم من أعلام الناس بعلم من أعلام المدن ، ولا تزال بقية من تلك الأعلام تذكر ثم تذكرة نسبتها إلى الإسكندرية أو طنطا أو المنصورة أو أسipوط أو جرجا أو قنا أو أسوان ، وغيرها وغيرها من القرى والبلدان ، ولم ينس الناس عندنا هذه النسبة إلا في العصر الذي اتصلوا فيه بالأوربيين والغربيين خلافاً لما يزعمه الجغرافيون الدينيون .

والخطأ الذي نختتم به هذا المقال خطأ عام يتعرض له الباحثون في هذه الدراسة حيثما كان موضوع البحث وكيفما كان تصويره للعقل العامي التي لا يختصون بها الإسلام والمسلمين .

وذلك الخطأ العام أنهم يبالغون في الرجوع بالخصائص الروحية إلى أصول مزعومة من الخصائص الجغرافية وخصائص المدينة والبادية ، فكثيراً ما تكون الظاهرة الروحانية مناسبة للإقليمين التقسيمين في جميع الأوضاع وفي الأوضاع الجغرافية والسياسية على التفصوص .

إن اعتقاد «التوحيد» مثلاً يناسب أبناء البادية لأنهم يطمسون إلى الإله الواحد الذي يعتصمون به في كل مكان رحلوا إليه ، ولا يلقون كل اعتمادهم على إله محدود في بقعة من البقاع ينقولونه معهم إذا استطاعوا ، وهو لا يستطيعون .

والدولة الإمبراطورية أبعد شيء عن بادية الصحراء ، لأنها مجموعة من مدن عاصمة وأقطار متداخلة وشعوب متعددة ، ولكنها تنتهي آخر الأمر إلى الإيمان بـ«الله واحد» كما تدين بـ«سلطان واحد» يحيط بشعوب الحكم في جميع الشعوب .

ولذا تساوى الموقع ونقيسه في قبول العقيدة فليس المرجع كله إذن إلى الخصائص الجغرافية ولا إلى هذا المكان وذاك المكان ، وإنما المرجع وراء المرجع جمياً إلى مكان مكنون لا تراه العين .

المرجع إلى أعماق الصدور .



الفصل الخامس  
مبَلَّث  
خُرُونِ الْفُرَانِ الْكَرِيمِ

## قصص القرآن، دروس وعبر<sup>(١)</sup>

أكثر القصص التي وردت في القرآن الكريم من قصص الأنبياء في جهادهم لتبليغ رسالتهم ونشر دعوتهم ومقاومة خصومهم من ذوي السلطان الذين أنكروهم وحالوا بينهم وبين هداية أقوامهم ، وأكثر ما جاء فيه من أخبار الدول والملوك فإذا جاء في سياق أخبار الدعوة مع سائر أخبارها . إلا أن يكون الأنبياء ملوكاً كما اتفق لداود وابنه سليمان عليهما السلام ، ففي هذه الحالة تروي أخبارهم لآساليبها المذكورة في قصصهم لأنهم كانوا في سلطانهم في غنى عن مقاومة خصوم الدعوة كما قاومها الأنبياء الذين توجهوا بدعوتهم إلى الأم فحال بينهم وبينها ملكوها وأمراؤها ..

وإذا روجعت قصص القرآن الكريم مراجعة دقيقة تبين للناظر في مضامينها أن عبرتها الأولى دروس ينتفع بها الهداة ودعاة الإصلاح . إذ كان من فرائض الإسلام الاجتماعية أن يتذبذب من الأمة طائفة (يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) وكان من الأقوال الواردة في الأثر أن العلماء ورثة الأنبياء ، فلا يخلو مكان الدعوة في الأم بعد الأنبياء ، ولا يستغني هداتها عن الأسوة الماثلة آمامهم في جهاد الهدایة والإصلاح .

ولقد كملت دروس الدعوة في قصص الأنبياء حتى لا مزيد عليها ، فلا تستخلص من دروس الدعوة في التاريخ كله درساً واحداً ليس له نظير ، أو نظائر ، في قصص الأنبياء التي جاء بها القرآن الكريم .

من تلك الدروس أن الجهلاء ينقادون للأمس والسطوة ولا ينقادون للحججة والدليل ، ويريدون من صاحب الدعوة كما جاء في قصة نوح أن يكون ملوكاً أو تكون عنده خزانة الله ، ويقولون له : «قد جادلتنا فاكتشفت جدالنا فأتنا بما تعددنا ان كنت من الصادقين» .

(١) الهلال سبتمبر ١٩٥٦ .

ومن تلك الدروس أن أصحاب السيادة في الأمة يكرهون التغيير ويتشبثون بالقديم ، ويأخذون على النبي أن يتبعه من غير ذوى السيادة والجاه : «وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظمكم كاذبين» .

أو كما جاء في سورة سبا : **﴿فَوَمَا أَرْسَلْنَاٰ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا قَالَ مُتَّرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْنَاٰ يَٰ كَافِرُونَ﴾**.

ومن تلك الدروس أن الجمود على التقاليد الموروثة أكبر آفات العقل البشري لأنها تعطل تفكيره وتتركه في حكم الآلة التي تسير على نهج واحد في آثار الآباء والأجداد مع اختلاف الزمن وتبديل الأحوال .

ومنها أن العقائد تخاطلها أو شباب الزمن فلا تزال بحاجة إلى التهذيب والتطهير كلما ابتعد العهد بينها وبين مصادرها الأولى .

ومنها أن الإصلاح تضخمية وعناء وأن الأنبياء كانوا بين فريقين : فريق يكتبه قومه وفريق يقتلونه ، ولا مناص من القدوة على ما فيها من خطر ومحنة ، ولو لم يكن من دليل غير ذلك على أن الدعوة إلى الإصلاح رسالة إلهية لكنى به دليلاً يغنى عن كل دليل ، فلا مشيشة لصالح في عمله ، ولو شاء مصلح أن يعمل على ثقة من الأمان والنجاح لما قام في الأرض مصلحون .

وقد برزت بين قصص الأنبياء قضستان مسيهستان في أجزاء الكتاب لأنهما ترويان لنا نبأ الرسالة بين أعرق أم الحضارة الإنسانية ، وهما أمة وادي النهرین وأمة وادي النيل . وكانت قصة إبراهيم وموسى عليهما السلام من أجل ذلك أولى الفصوص بين جميع قصص الأنبياء ، وكانت الشورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامدة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم ، وهي ما يتلخص في عبادة الملوك وعبادة الأجرام السماوية وعبادة عناصر الطبيعة وعبادة الأوثان وتضليل الأ بصار والبصائر بالسحر والكهانة .

هذا هو الشطر الأكبر من القصص القرآنية ، يراد به تعليم المصلحين وتربيبة الهداة ، ولا يراد به سرد أخبار التاريخ إلا في عرض القصة حيث يقتضيه السياق .

وإن في القرآن الكريم لقصصاً شتى من غير قصص الدعوة أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة ، ولكنها تردد كذلك لغيرتها ولا تردد لأخبارها التاريخية ، ومنها قصة يوسف ، ويصح أن تحسب منها قصة إسماعيل عليهما السلام .

قصة يوسف قصة إنسان قد غرس من طفولته بأفانات الطياب العبرية ، من حسد الأختوة إلى غواية المرأة إلى ظلم السجن إلى تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إيان الشدة والمجاعة .

قصة إسماعيل تختاللها هذه التجارب الإنسانية في عهد الطفولة كذلك ، فيصيّبه نظام الأسرة باختلاف مكانة الزوجة السيدة والزوجة المستعبدة ، وتصيّبه الغربة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد والماء ، وتكتسب عليه ضرورة الفداء وهي في مفترق الطريق بين الهمجية التي كانت لا تروع عن الذبائح البشرية وبين الإنسانية المهدبة التي لا تأبه الفداء بالحياة ولكنها تروع عن ذبح الإنسان ، ثم يكتب لهذا الغلام الطريد الوحيد أن ينبع إلهي أمة ذات شعوب وقبائل تتحوال على يديها توارييخ العالم على مدى الأيام .

ويشمل القرآن على قصص غير قصص الأنبياء في دعواتهم وغير قصص الأنبياء في تجاربهم الإنسانية ومنها قصص الملائكة والفتية من أهل الكهف وما جاءه على آية النمل والنحل والطير ، وما ختمت به قصص الرسالة في دعوة نبي الإسلام ﷺ .

وكلها ينبغي أن تقرأ كما تقرأ عظات الهدایة وأمثال العبر ، وكلها مع ذلك مما يحتاج إلى الفهم والبديهة من المؤرخ الأمين قبل التهجم عليه بقياس التاريخ الناقص الذي لا يصلح لقياس الحقائق الوجدانية وأولها حقائق الأديان .

ومصلحة التاريخ ينبغي أن ينظر المؤرخ إلى القصص الدينية في أناة وروية وعلم باختلاف النسق بين العقائد والأخبار .

فالمورخون الذين تهجّموا في هذا المقام على غير وعي ، وبغير حلر ، لم يلبثوا أن عرروا الخطأ منهم في حق التاريخ وفي حق العقيدة مجتمعين .

فقد أكروا الطوفان ثم ظهر أنه كان من ثابت الأحداث في أنباء جميع الأمم ، وإنكرروا غواishi الرجوم والزلزال فظهور أنها كانت في أماكنها وفي أزمنتها حيث وصفتها كتب الأديان .

ومن دواعي التفسير الوجданى للحوادث أننا نعلم من الدين وحدة الأصل بين أبناء إبراهيم قبل أن يعرف العلم الحديث شيئاً عن وحدة اللغات السامية ووحدة اللغات الهندية الجرمانية ، فلو لم تكن هناك حقيقة وراء أسانيد الأديان يتهم من ينكرها ، لما أمكننا أن نفهم كيف عرف الأقدمون أن العربية والعبرية والأرامية والأدومية من أصل واحد ، وأن أبناء إسماعيل وأبناء إسحاق ينتسبون قبلهم إلى جذم كبير .

ويعجبنا قول بعض العلماء المحدثين في الغرب عن كتاب الوحي الديني أنه «صوت حي» ولا يصح أن يقرأ على غير هذا الاعتبار .  
والصوت الحي الذي تستجاوب به عصور الزمن وتستجاوب به حنابلا النفس البشرية - أولى بالأصغراء إليه من قصص التاريخ أو قصص الخيال .

## القصص الدينى بين العلم والتاريخ

تغير موقف العلماء كثيراً بين القرن الماضي والقرن الحاضر من القصص التي وردت في الكتب الدينية .

كان ورود قصة في كتاب من الكتب الدينية كافياً عند طائفة من العلماء لإنكارها أو للشك فيها ، وكانوا ينكرون الأخبار أو يشكون فيها لأنهم لا يصدقون الأسباب التي تسبّب إليها ، فكانوا يخالفون التحقيق العلمي في صحيحة وهم يزعمون أنهم يستندون إلى العلم لتمحیص تلك الأخبار .

ولنضرب لذلك مثلاً ، إنساناً يقال أنه مات لأنه شرير أبغضه قومه واستغاثوا بساحر قدير ليقضى عليه فأهلاكه الساحر بما سلطه عليه من الرقى والعراشم ، ونفرض أنك لا تصدق السحر ولا تومن بقدرة الساحر على إهلاك من يشاء ، فهذا لا يجوز لك - علمياً - أن تذكر موت الرجل ولا أن تذكر أنه شرير ولا أن تذكر أن أهله قد استغاثوا بالساحر ليهلكه ، وكل ما يجوز لك أن تفديه أن السحر لم يفعل في إهلاكه ذلك الفعل المنسب إليه .

والعلماء الذين استندوا إلى العلم لنفي الأخبار والقصص التي وردت في الكتب الدينية كانوا يصنعون شيئاً من هذا القبيل ، لأنهم كانوا ينكرون الطوفان أو الزلازل أو الفتنة التي ذهبت بالأمم الخالية ، لأنهم - أي العلماء - غير متدينين بالكتب التي جاءت فيها الأخبار والقصص وذكرت ما ذكرت عن وعيد الأنبياء والرسول وعصيان القبائل أو الجبابرة المتألهين !

ولم تنتقض على هذا الموقف من بعض العلماء فترة وجيزة حتى ثبت لهم هذا الخطأ في العلم فضلاً عن الخطأ في حق الدين ، فاصبحوا اليوم أقرب إلى الآناة والرصانة في تمحیص الحقائق وراحوا يعيدون النظر في كل ما قرروه آنفاً على ضوء حديث من أضواء الكشف العلمية ، ومنها كشف الأسفار وكشف الأرصاد الفلكية التي يسهل الرجوع إليها فيما حدث أو لم يحدث من مقارنات الكواكب وعوارض الكسوف .

أنكروا قصة الطوفان والسفينة ، فوجد العلماء المخفريون هذه القصة مكتوبة على حجارة قديمة من آثار وادي النهرين ، ووجدوها منقوطة متواترة على الألسنة والأثار بين أقوام كثيرة من أمّ المشرق والمغرب .

وأنكروا قصة سيل العرم وقصة أبرهة الحبشي وهلاك جيشه ، فلم يمض زمان حتى وجدوا آثار السد ووجدوا عليها اسم أبرهة ملقباً بالأمير « التابع لملك الحبše وسباً وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل » ووجدوا خبر الجندي الذي أهلك جيشه مكتوباً في تاريخ بروكوب مؤرخاً بالزمن الذي ابتدأ بعام الفيل .

وأنكروا قصة عاد وتمود وظنوا أن هذه القبائل لم يكن لها وجود تاريخي لأنها لم تذكر في أخبار العهد القديم ، فتبين لهم من مراجعة المؤرخين الأقدمين أنها مذكورة في تاريخ بطليموس وأن عاد إرم هي عادراميت اليونانية Adramitae وأن أخبارها محفورة على آثار هيكل « مدین » التي عشر عليها المؤرخ التشيكى موزيل .

وهو لاء العلماء العصريون المتشككون لم تسلم لهم دعوى الرأى الجدد ، فضلاً عن دعوى العلوم التجريبية التي يقيمون عليها هذه الشكوك . فإنهم مسبوقون إلى عادة الإنكار الجراف بعشرات السنين ، وقد جاء في رواية الانصارى عن الفيلسوف ابن رشد « إنه شاع في الشرق والأندلس على السنة المنجمة أن ريحًا عاتية تهب في يوم كلها وكذا في تلك المدة تهلك الناس ، واستفاض ذلك حتى اشتد جزع الناس منه واتخذوا الغيران والأنفاق تحت الأرض توقياً لهذه الريح ، ولما انتشر الحديث بها وطبقت البلاد استدعى إلى قرطبة إذ ذاك طلبتها ، وفأوضحهم في ذلك وفيهم ابن رشد ، وهو القاضى بقرطبة يومئذ وابن بنلود في شأن هذه الريح من جهة الطبيعة وتأثيرات الكواكب ، وقال شيخنا أبو محمد عبد الكبير ، وكانت حاضراً فقلت في أثناء المفاوضة : إن صح أمر هذه الريح فهو ثانية الريح التي أهلك الله بها قوم عاد إذ لم تعلم ريح بعدها يعم هلاكها ، فأنبه إلى ابن رشد ولم يتمالك أن قال : والله وجود قوم عاد ما كان حقاً ، فكيف سبب هلاكهم . . . .

وهذه الكلمة لم تشتبت نسبتها إلى ابن رشد لاته بقى بعدها قاضياً لم ينكِ ولم يعزل ، حتى أصابه الغضب من الأمير ، فنُكِبَ وعزَلَ ، ونُسِبتَ إليه أقوال

المتكلفة في زمانه ، ومنها الشك في التاريخ الدينية على هذا المثال ، فليس علماء القرن التاسع عشر أول من تجنبوا على العلم والدين بالإنكار الجراف والشك بغير دليل ، ولكن علماء القرن التاسع عشر كانوا أحق بالأنة والتبرير من سبقوهم إلى العجلة بثنت السنين ، لأنهم ما كادوا يعلون شكوكهم حتى باذتهم الكشف بالمعظة التي غفلوا عنها وكانت في غنى عنها لو أصطنعوا الحكمة «العلمية» .

ونحسب أن علماء القرن التاسع عشر إذا كانوا قد سبقوه من تقدمهم إلى لون من ألوان هذه النقيصة الفكرية فقد سبقوهم إلى الرعونة في التعجل لأنهم أوشكوا ان يحصروا العلم كله في إنكار كل شيء وفي القول بأن كل شيء مختلف للعقل والحقيقة ، فأنكروا وجود إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ، وأنكروا حوادث التي رويت عن أزمانهم وأنكروا التقارب بين الشعوب السامية لأن هذا التقارب منسوب إلى إبراهيم .

ثم ماضى جيل واحد ، فلا نقول إن الكشف التاريخية أثبتت كل ما أنكروه لأنها لا تزال في أول الطريق ولكننا نقول إن روایة الكتب الدينية لم تزل هي المرجع الوحيد في حوادث تلك الأزمنة ، وإن بعض الأحاديث التي اكتشفت حتى الآن تحقق تلك الأزمنة كلما أمكنت المقارنة بين المصنوعات الفخارية والأزياء المعروفة ، وإن الكتب الدينية قد سبقت المحدثين إلى القول بالقرابة بين اللغات السامية قبل أن يدرس العصريون شيئاً من مقارنة اللغات والأجناس .

ولعل هذه الأخطاء التي وقع فيها علماء القرن التاسع عشر تشجع الآن طائفة من الباحثين العلميين على استخدام العلوم وجديعاً في إثبات الروايات الكتابية ، ومن هؤلاء الباحثين من ألف الكتاب المطول في إثبات الخوارق وتلخيص ما رواه هيرودوت عن كهان المصريين حين أنبأوه أن الشمس تحولت من مجرها القديم ، واستطرد المؤلف من ذلك إلى وقوف الشمس ليوضع بن نون ، ثم قال إن الحوادث التي وردت في الكتاب الدينية إنما تحدث علمياً إذا أصطدرت الأرض بذنب كبير ، فتسقط الحجارة من الجو وتصطيخ الماء بلون كلون الدم وزرعت كل ما فيه من حيوان وبتحول موقع القطرين إلى غير ذلك من العوارض «العلمية» في رأيه وهي في رأي المنكرين مناقضة للعلم والتفكير السليم .

وليس من اللازم أن يكون هؤلاء العلماء قد أصابوا التطبيق بين الخوارق والعارضات العلمية ، فلحسن ما يستفاد من محاولاتهم أن الت怱ج إلى الإنكار شبيه بالتعجل إلى التصديق ، وكلاهما يرآه من دعوى العلم وأمانة العلماء .

وبعد قرن مضى في النفي والإنكار يشوب العلماء إلى موقف آخر من القصص الدينية ، فيقبلها فريق منهم على أنها عقارات صادقة ، ويقبلها آخرون على أنها من الحقائق التي تفهم بالتأويل ، ويقبلها غير هؤلاء وهؤلاء على أنها تاريخ قديم ينبغي أن يرشد الباحثين إلى مواضع البحث ومواضيعاته ، ولكن لا ينبغي بحال من الأحوال أن ترفض بحرة قلم أو يقال أن البحث فيها مفروغ منه لأنها من «أساطير الأولين» .

موقف العلماء اليوم أمام القصص الدينى يقترب من العلم ولا يقترب من الدين وحسب ، وأول علامات الاقتراب لا يتمتعون بالتعجل إلى النفي أو الشك بغير طبل ، وأن نفهم الحقيقة العلمية على نحوها فلا تخلط بينها وبين حقائق الغيب وحقائق الضمير .

## حَوْلِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ وَأَوْهَامِ الْمُسْتَشْرِقِينَ<sup>(١)</sup>

ذهب بعض الباحثين وفريق من المبشرين إلى أن من أسباب انتشار الإسلام في أفريقيا أنه لا يمنع تعدد الزوجات . وقالوا إن من أسباب انتشاره بين الهنود أنه سُوى بين الطوائف المنبوذة وطوائف الأشراف . ومن ثم أقبلوا عليه زرارات لأنه يسوى بينهم وبين السادة ، كذلك قالوا إنه دين بسيط في مبادئه ، سهل في أصوله وقواعده .

وفي رأينا أن هذه كلها أسباب موقوفة أو أنها أسباب محلية ، وهي تصلح ولا شئ لتعميل انتشار الدين في بيئته بعينها أو في زمن معين ، ولكنها أبداً لا تلازم انتشار هذا الدين في جميع البيئات والأزمان .

فالإسلام كانت له الغلة وكان بحق قوة غالبة بفضل العقيدة الإسلامية التي وصفت بالشمول لأنها تشمل الإنسانية جموعاً .

فليس الإسلام دين أمة واحدة بعينها ، ولا هو دين طبقة خاصة بذاتها ، ولكنه دين الإنسانية كلها ودين يبني البشر جميعاً من كل جنس .

والقرآن الكريم يقول :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافِلًا لِلنَّاسِ بِشَرِيعَةٍ وَنَذِيرًا﴾ .

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمْرَأُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهتَدُونَ﴾ .

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رِبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ .

(١) الشيان المسلمين بنابر ١٩٦٢ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عِنْهُ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .  
وهذا الشمول الذي يؤكده القرآن الكريم يشمل النفس أيضاً فيجمع النفس  
والضمير، ويخاطب الإنسان روحًا وجسداً وعقلاً وضميراً .  
والإسلام الحنيف يسوى بين الناس جميعاً، فلا تمييز بينهم في حقوق الإنعام  
والمعاملة .

ولا فضل لأحد منهم على الآخر بغير عمله وخلقه ، يقول القرآن الكريم :  
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأَنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شَعُورًا وَقَبَائِلَ تَعَارَفُوا إِنَّ  
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْهَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ﴾ .

فالقرآن الكريم هو الذي جعل من هذه العقيدة الإسلامية قوة غالبة وجعل من  
أمة الإسلام على مدار العصور واختلاف الأقوام والأزمان قوة شاملة . وقد أفرد  
ذلك الإسلام بعزيزته التي لم تعهد في أي دين آخر من الأديان الكتابية .

#### عداؤة مدسوسية:

وهناك أوهام كثيرة أشاعها المستشرقون بسبب تفسيراتهم الخاطئة لكثير من أمور  
اللغة والدين . ومنها ما كتبه بعض المستشرقين تفسيراً لاسم أبي بكر رضي الله  
عنـهـ منـ أنهـ «أبو العذراء» !!

ومنها ما قالوه في تفسير لمعنى «القصيد» من أنه المقصود ا  
ومنها أيضاً ما تورط فيه ذلك المستشرق من خطأ معيب في تفسيره لقوله تعالى :  
﴿وَقَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِنِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ .  
بقوله : «أى بدون أحذية» !!

ذلك أنهم على غير علم دقيق باللغة العربية ، وليس هذا غريباً فهم لا يفهمون  
أدب أمتهم ولا يجيدون معرفة هذا الأدب في لغتهم . فمن باب أولى لا يحسنوا  
فهم الأدب العربي ! وقد كانت لهم مكانة أكثر مما يستحقون حتى وقفنا أمامهم  
ووضعناهم في موضعهم !

وكما ينطئون في تفسير الكلمات والأيات ينطئون أيضاً في تفسير كثير من الروايات .

ومن ذلك ما كتبه الراهب المعروف «منير نزيو» عن «قصة زينب بنت جحش» وزواج النبي ﷺ منها بعد تطليقها من زوجها .

وقد قال في روايته أو على الأصح أكتنوبيته : إن «زينب» هذه كانت من أجمل نساء الأرض في زمانها ، وأن محمدأ عليه السلام قد سمع بجمالها الفاتن فشفق حباً بها .

وليس أسهل على كل باحث مدقق أو إنسان منصف أن يسقط هذه الأكتنوبية إذا عرف هذا المستشرق أن زوجة «زيد» كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ ، وأن النبي هو الذي زوجها من رببه وعتيقه «زيد» ليرفع الرسول الكريم عن «زيد» ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين أكرم أهله .

هذه حقيقة يعرفها كل باحث في الإسلام وكان أخرى أن يعرفها هذا المستشرق ولكنها العداوة المدسوسة ، فإن فكرة التبشير لا تزعزع من عقولهم .

### بلاغة القرآن

وقد كتب بعض هؤلاء الباحثين عن الإسلام منصفين ، ومنهم المستشرق «روم لاندو» . فقد كتب عن بلاغة القرآن معللاً حيرة الغربيين في فهم هذه البلاغة واستجلاثها .

وكانت خلاصة رأيه وتعليقه أن الغربيين يجهلون مناسبات النزول في القرآن وترتيب الآيات على حسب موقعها ، وقال إن ذلك من أسباب حيرة القارئ الغربي عند تلاوة القرآن الكريم .

وقال أيضاً : «إن السور المطلوبة تنزلت في أخريات أيام النبي ، وفيها بيان الأصول الشرعية وقواعد الحكم وتدير الشئون العامة بما يتبعه القارئ الغربي فلا ينشط لقراءاته ، وإنما يدرك هذا القارئ بلاغة الكتاب في قصار السور التي تنزلت بمكة واحتوت من حماسة الروح ما هو بجدير بالانتباه والتوقير .

## إعجاز القرآن

والحق أن موضوع إعجاز القرآن من الأمور الهامة التي شغلت الأذهان . وقد عنى الباحثون بموضوع البلاغة في القرآن ، وتشعبت الآراء وتعددت الغايات في هذه الدراسة .

وبعضها يقول : إن إعجاز القرآن يرجع إلى المعانى التى تتطوى عليها الآيات . فهل هذه البلاغة منفصلة عن المعنى الذى أنت به الآية ؟ أم أنها متصلة بالآية معناها ووقعها في ذهن القارئ ؟

إن المعنى لا يمكن أن ينفصله عن اللفظ ، ولا سبيل إلى التفرقة بين حدود الكلمات لأن حدود الكلمات متبلسة بالمعنى .

## وقع الآيات

ومن هذه البلاغة وقع الآيات في النفس ، ومن آياته من حيث هي لفظ ومعنى ، ومن حيث أنه قرآن مجيد مستجاب في النفس ، يأتى التأثير .

وقد روى أن الوليد بن المغيرة قال ذات مرة لرسول الله ﷺ : «اقرأ على ..» فلما قرأ النبي عليه آيات من القرآن الكريم قال له الوليد : «والله إن له حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن اعلاه لشمر ، وإن أسفله لمدق ، وما يقول هذا بشرا » .

وقال أيضاً : «إن هذا كلام له جذور في الروح لا يجتث بسهولة» .

## خلود الرسالة

إن هذه البلاغة وما انتظمت عليه من القوة البينانية ليست هي التي تقطع لنا وحدتها بإعجاز القرآن الكريم .

فتعتدى أن وجه الإعجاز في كتاب رب العالمين يرجع إلى خلود الرسالة التي جاء بها هذا الكتاب ، وما فيه من هدى ونور وصلاح وإصلاح للبشرية جمعاء في إسعاد الفرد والجماعة .

ووجه الإعجاز في هذا الكتاب الكريم يرجع أيضاً إلى ما أحدثه في حياة العرب

من رقى ورفعه والى ما أحدهه أيضاً في حياة المسلمين من ثورة ، وأنه لم يقف في سبيل العقل الإنساني بل حشه على النظر والفكر والتدبر واستجلاء الأسرار والعمل لما فيه الخير في الدنيا والآخرة . وهذا الإعجاز أيضاً يرجع إلى ما أوجده من ترق للآمة العربية على عهد الرسول والأمة الإسلامية في إثبات نشأتها وظهورها ، وعلى مدار العصور والأزمان .

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَبْغُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقُ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاحُوكُمْ بِهِ تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ .

﴿فَاسْتَمِسْكُ بِالَّذِي أُورْجِي إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

﴿وَإِنَّهُ لِذِكْرٍ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسُوفَ تَسْأَلُونَ﴾ ..

## معنى كلمة الأميين

نقلت صحف القاهرة عن صحيفة بيروتية أن باحثاً سمه باسمه ، قد عثر على وثيقة تاريخية ثبت لدنه أنها مكتوبة بخط النبي ﷺ ، وتعجل المتعجلون فاستخلصوا من هذا الخبر الذي لا سند له من الواقع ولا من التاريخ أنه - صلوات الله عليه - ليس بالأمن الذي يجهل القراءة والكتابة كما جاء في القرآن الكريم . ونکاد نجزم باستحالة وجود هذه الوثيقة بالصفة التي وصفها بها الباحث الذي ذكرته الصحف ، إن صبح ما نسبته إليه .

فإنما ثبت كتابة النبي - عليه الصلاة والسلام - لتلك الوثيقة بإحدى طرفيتين : أحدهما أن يكون لدينا كتاب مخطوط كتبه - عليه الصلاة والسلام - وثبتت كتابته له فثبتت نسبة الوثيقة التي اكتشفت أخيراً بالمقابلة بين الخطين . وظاهر من اللحظة الأولى أن إثبات ذلك مستحيل ، لأن الخط الذي تحصل المعارضة عليه ليس له وجود ، وليس هناك كتاب منسوب إليه - صلوات الله عليه - ثابت النسبة إليه أو غير ثابت ولو مع الخلاف .

والطريقة الأخرى لإثبات الوثيقة المزعومة أن يشهد الشهود العدول برؤيتهم للنبي - عليه الصلاة والسلام - وهو يكتبها بيده الشريفة ، وذلك أيضاً مستحيل ، لأن المجهولين من أولئك الشهود المفترضين لا سبيل إلى الثقة بهم وتوكيده روايتهم على حال من الأحوال ، فإن كان أولئك الشهود معلومين لنا فكل من يعلم الخبر اليقين عنهم يقررون أنه - صلوات الله عليه - لم يكتب قط كلاماً بيده ، وأنه كان يملئ الوحي والرسائل على كتابة المعروفين .

إلا أن المسألة هنا مسألة تحقيق كلمة الأميين التي وردت في القرآن الكريم لأنها كلمة من كلمات الكتاب يفرض علينا فهمها على صحتها ، ولأنها من الجهة الأخرى قد تفتح الأبواب لكثير من الشبهات وكثير من اللغط الباطل الذي يحسن بنا أن نغلق الأبواب عليه .

فالكلمة بضم الجمع قد وردت في سور المدنية خطاباً لأهل الكتاب أو رداً عليهم ، ومعظمهم من اليهود منكري الدعوة الحمدية من سكان المدينة التي ترددت فيها تلك الآيات .

والمهم في تفسير معنى الكلمة أن نرجع إلى معناها عند أهل الكتاب ، ولا سيما اليهود .

فالمحقق الذي لا شك فيه أن أهل الكتاب من اليهود والسيحيين أجمعين كانوا إلى ما بعد ظهور الدعوة الإسلامية يقسمون العالم إلى قسمين : بني إسرائيل ، والأم التي ليست منهم ، ويزعم اليهود - خاصة - أن بني إسرائيل وحدهم هم أهل النبوة والرسالة الذين اختصهم الله دون سواهم من العالمين بالكتب المنزلة والأنبياء المسلمين ، وأن من عداهم من الأم لا نبوة فيهم ولا كتاب لهم وليسوا من الموعودين بالهدى والرضاوان .

وفي كتب العهدين القديم والجديد عشرات من المatices وردت فيها كلمة «الأمين» بهذا المعنى ، وفيها كذلك عبارات شتى تذكر «الأمين» في مقابلة اليهود عند التحدث عن الأفراد من الرجال والنساء .

ومن أمثلة ذلك ما ورد بالإصحاح السابع من إنجيل مرقس ، وفيه :

«إن امرأة كان بابنتها روح نجس سمعت به فأتت وخررت عند قدميه ، وكانت المرأة أمينة وفي جسدها فينيقية سورية» .

وجاء في الإصحاح الثاني من رسالة بولس إلى أهل غلاطية :

«لكن لما رأيت أنهم لا يسلكون باستقامة حسب حق الإنجيل قلت لبطرس أمام الجميع : إن كنت وأنت يهودي تعيش أميناً لا يهودياً فلماذا تلزم الأم أن يتهردوا - نحن بالطبيعة يهود ولسنا من الأم خطأ» .

فلا خلاف في أن كلمة الأمين عند أهل الكتاب كانت تعنى غير اليهود في صفة الفرد أو الجماعة ، ولا خلاف في أن النسبة إلى الأم بالعربية تلحق بالاسم المفرد لا بالجمع ، وفاصلاً لقاعدة النسبة في اللغة العربية ، فيقال «الأميون» بحسب هذه القاعدة ولا يقال الأميون .

ومن كلام اليهود الذى لزموهم فيه حجـة القرآن الكريم قولهم أنهم ليس عليهم فى الأمرين سـبيل .

وذلك حيث جاء في سورة آل عمران:

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمِنَهُ بِقُطْبَارٍ يُؤْذِهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمِنَهُ بِدِينَارٍ لَا  
يُؤْذِهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَثْمِهِمْ قَالُوا لَئِسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ هُنَّ  
وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذَبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ هُنَّ

وأصل ذلك أن اليهود يفرقون في المعاملة بالقروض والأمانات وفوائد الربا بين بني إسرائيل وغير بني إسرائيل .

ومن ذلك ما جاء بالإصحاح الثالث والعشرين في سفر التثنية:

«لا تفرض أحكام بربا : ربنا فضة أو ربنا طعام أو ربنا شيء ما مما يفرض بالربا ، للأجنبى تفرض بربا ولكن لأنك لا تفرض بربا . . . .»

فليست التفرقة في المعاملة بين أنس يعرفون القراءة والكتابة وبين أنس يجهلونها ... لأن اليهود - ولا سيما الفقراء المتهي عن سوء معاملتهم - يجهلون القراءة والكتابة ولا يعرفهما من اليهود عامة غير الكهان والمتعلمين من أصحاب الأموال . ولكن التفرقة في المعاملة هي بين يهود إسرائيل وسائر الأمم الأجانب عنهم ، أو بين اليهود والأغبياء .

ذلك معنى واضح لا لبس فيه ، فلا موضع للشك على الإطلاق في معنى الأميين عند أهل الكتاب ، وعليهم يرد القرآن الكريم ويأخذهم بما يقولونه لا بما يقوله الآخرون . . . فما يعنيه هم هو موضع الرد والمحاجة وهو الذي توافر في كتبهم كما توافر على أسلوبهم وهذا هو ما يعنيه بغير خلاف .

وعلى سبيل الاستعارة والتغليب ترد كلمة «الأمى» بمعنى من يجهل الكتاب أولاً ومن يجهل الكتابة تبعاً لذلك .

فإذا كانت المقابلة أصلًاً بين اليهود والأميين على إطلاقهم ، فلما صارت المقابلة إلى أهل الكتاب وغير أهل الكتاب سرت الاستعارة بين من يقرأون الكتاب وغير المقارئين .  
ويجب أن ترى ثواب طويلاً عند قوله تعالى :

**﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظْهُرُونَ﴾.**

فاليهودية قد دخل فيها أناس من الأمم غير بني إسرائيل ، فهم بطبيعة الحال لا يقرأون العربية ولا الأرامية ، ولا يزيد علمهم بصلوات الكتاب على التأمين عند انتهاء الكاهن إليه «أمين أمين» .

أما التعليقات الكثيرة التي وردت في الأقوال الشائعة عن أصل كلمة «الأمي» فمصدرها الجهل بما في كتب اليهود وما في عباداتهم من الشعائر والصلوات .

فقد قيل إن «الأمي» منسوبة إلى أم القرى لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - ولد فيها . وهو قول يرافق القول «بالنبي المكتو» في صفتة - عليه الصلاة والسلام - وليس لهذا التخصيص بمدينة واحدة من مرجع بالقرينة ولا بالفهم الصراح ، فضلاً عن إطلاق صفة الأميين على ألف لم يولدوا بمكة .

وقيل إن «الأمي» منسوب إلى الأم لأنها يبقى كما ولدته أمه بغير تعليم ... ولم يرد فقط هذا الوصف بهذه المعنى في كلام عربين قبلبعثة المصطفى ، وإنما يفرق الناس هذه التفرقة بين من بقي جاهلاً ومن تعلم بعد مولده ، إذا وجد الكثيرون من المتعلمين والكثيرون من غير المتعلمين ، وذلك ما لم يحدث في الجاهلية .

وقيل إنه من الأمة من قولهم : فلان لا أمة له - أي لا ديانة له .. واستشهد معجم «لين الإنجليزي الكبير» بكلام شاعر لم يذكر اسمه يقول :

**«وَهُلْ يَسْتَوِي ذُو أُمَّةٍ وَكُفُورٌ؟ ..**

وهو قول يجعل اليهود منكرين للدين عندهم معترفين به عند غيرهم ، ولا يستقيم في الذهن على هذا الاعتبار .

وأغرب ما يقال : أن ينسب الأمي إلى الأمة أو إلى السواد الجاهل الذي لم يتتعلم ... وقد جاء في لسان العرب أن الأمي «هو العين الجلف الجافى القليل الكلام قال : ولا أعود بعدها كريا .

**أَمَارِسُ الْكَهْلَةِ وَالصَّبِيَا  
وَالْعَزِيزُ الْمُنْفَهُ الْأَمِيَا**

ثم عللته به مثل ما تقدم إذ قال : «قيل له أمي لأنه على ما ولدته أمه عليه من قلة الكلام وعجمة اللسان» .

ومعنى الله أن يكون هذا هو الأصل في وصف يطلق على أقصى العرب  
أجمعين .

فليس أصح في تفسير الكلمة من أنها وردت على الاستعارة والتغليب للمقابلة  
بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب .

وينبغي أن يتأنى المتعجلون فلا ينكروا أن أهل الكتاب كانوا يسمون العرب  
وغيرهم من الأجانب عنهم بالأمين ، فإن ثبوت هذه الحقيقة أمر وراء كل خلاف ،  
ومن الورز أن يحمل الباحث جهله على شيء يرد في القرآن الكريم .

فاليهود ، إذا قالوا كلمة «الأمين» فإنما يعنون بها غير بني إسرائيل ما في ذلك  
جدال ولا محال .

ولا يمنع ذلك أن تطلق كلمة «الأمن» على من يجهل القراءة والكتابة حيث  
تستعار للمقابلة بين قراء الكتاب وغير قرائه ، وبخاصة حين نبحث عن مرجع  
للمعنى فلا يستقيم لنا في نسبتها إلى الأم أو إلى السواد أو إلى أم القرى .

ولننقل عن يقين إن كلمة الأم أطلقت على من يجهل القراءة والكتابة ، ولكن  
لا نخطئ فنجعل ذلك موقوفاً على إنكار كلمة الأمين كما وردت في أقوال لا  
عداد لها قبل مولد النبي عليه الصلاة والسلام .

إن القرآن الكريم لا يترك دعوى اليهود الكبرى بغير تفتيذ لها وتوكيده ببطلانها ،  
ودعواهم الكبرى هي أنهم مختصون بالنبوة دون سائر الأم ، فأين هو جواب هذه  
الدعوى في كتاب الإسلام ، إن لم يكن جوابها في تلك الآيات .

وعلينا أن نفهم أن النبي العربي والنبي الأمي يعني واحد ، وأنه - عليه الصلاة  
والسلام - لم يكن يتلذ كتاباً قبل الكتاب المنزل عليه ولا كان يخطه بيديه :  
**﴿وَمَا كُنْتَ تَطْوِي مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطْهُ بِسِيمِينَكَ إِذَا لَأْرَتَابَ  
الْمُبْطَلُونَ﴾** صدق الله العظيم ... وصدق سبحانه إذ قال :  
**﴿إِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾** .

فليتدبر هذا الأمر بالتأملة من يتوهم أن التلاوة تنقض معنى «الأمية» على وجه  
من الوجوه .

## تفسيرُ الأَسْتاذِ الإِهَامِ<sup>(١)</sup>

لكلِّ مقامِ مقالٍ :

هي حكمةٌ بليغةٌ ، على هداها عرفَ الأقدمونَ البلاغةَ ووضعوا لها تعريفاً لها  
الصحيحُ :

وهو مراعاةٌ مقتضى الحالِ .  
ومقتضى الحالِ هو مقتضى المقامِ .

وإنَّ الذين يشغلون عقولهم بامتحان صحة البلاغةِ ، أو صحةِ فهم الكلامِ البليغِ ،  
ليبحثُون عن مسِيرٍ أَفْضَلَ من هذا المسِيرِ فيطولُ بهم البحثُ ولا ينتهيُون إلى خيرٍ  
من هذهِ الحقيقةِ .

وهي أننا نعرف أن القاتل قد فهمَ معنى ما يدرسه أو يفسره إذا عرفنا أنه فهمَ  
مقامَ القولِ ، وفهمَ من ثم مرادَ القاتلِ وأثرَ كلامِه في السامِعِ على حسبِ ذلك  
المقامِ .

فيإذا كان قد فهمَ مقامَ القولِ حقَّ فهمِه فذلك هو الأساسُ الذي يقومُ عليه  
البناءُ ، أيًّا كانَ نصيبُ هذا البناءِ من المثانةِ والجسمانِ ، ولا قيمةُ للبناءِ المتينِ الجميلِ  
إذا قامَ على أساسٍ غيرِ سليمٍ .

نقدمُ هذه الكلمة تمهيداً للتعليقِ الذي دعانا إليه المقالُ التفيسِ الذي كتبهُ العالمُ  
الفاضلُ الدكتورُ عثمانُ أمينُ في عدد شهرِ جمادى الأولى من «منبرِ الإسلام» .

وأدَارَ موضوعَه على طريقةِ الأستاذِ الإمامِ الشِّيخِ محمدِ عبدِه في تفسيرِ القرآنِ  
الكرِيمِ ، وهي فيما نرى أحدثُ أساليبِ التفسيرِ وأسدُها من الوجهتينِ الدينيةِ  
والبلاغيةِ ، وخلاصتها في كلماتٍ معلومَاتٍ ، إنَّ الأستاذَ الإمامَ كانَ أقدرَ المفسِّرينِ  
الحادِثينَ على فهمِ كلِّ مقامٍ من مقاماتِ الوحيِ الشَّرِيفِ ، وذلكَ مقصودٌ بعيدُ الأَمْدِ  
فيإذا يرجعُ إلى فهمِ الوحيِ الإلهيِ على التَّخَصِّصِ ، وإنَّما يعينُه عليه أنه يدركُ

(١) الأزهرُ نوفمبرُ ١٩٦٣ .

وحله الوحي في جملته ، كما يدرك مقاماته أو مناسباته فهما من موقعه من السامع وللحكمة المقصودة بتوجيه الخطاب إليه .

يقول الدكتور عثمان أمين عما توخاه الأستاذ الإمام من تفسير الكتاب : «إذا الفهم الذي يريد له هو ما يكون عن ذوق سليم وما يتبعه من لطف الوجودان ودقة الشعور اللذين هما مدار التعلق والتاثير والفهم والتدين ، ويقتضى ذلك النهاز إلى روح القرآن والوقوف على معانيه ... ومن أجل ذلك نراه ينصح بأن يؤخذ القرآن جملة ...» .

ثم يقول بعد توضيح لهذه الفكرة إن المفسر المصري «يتنهى إلى التصريح بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول في آيات الأحكام ، فإن معرفة الواقع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وإدراك حكمته وسره ...» .

وبحروى ذلك أن معرفة المقام أو المناسبة هي أساس الهدایة إلى مقصد الخطاب وعلى أثر هذا الخطاب في وجдан السامع ، على حسب المقام» .

وإن أحق الناس أن ينحو في تفسير الكتاب هذا التحي هم أولئك الذين يعملون في التعليم وتقتضى عليهم صناعتهم أن ينهجوا فيها على أحدث مناهجهم في افتتاح الدروس وتهيئة ذهن الطلاب لانتظارها وملائحة الأستاذ المعلم عند مناسباتها .

وقد كان الكاتب الحكيم مثلاً في منهج التعليم كييفما كان موضوع الخطاب وموضع المستمع إليه وعلى هذا المنهج يتعلم المفسر كيف يتعلم من القرآن الكريم وكيف يعلمه وبغضى على سنته في توجيه خطابه إلى مستمعيه ، ولم يغفل أحد عن هذه السنن من حاولوا فهم الكتاب بعد عهد الأستاذ الإمام إلا كان تفسيره جهلاً بالمقال وجهلاً بالمقام في آن .

والمثل المحدود أجدى من الخوض في شروح النظريات واختلاف الأقوال في التعليقات عليها ، فمن أيام قليلة أتيح لنا أن نستمع إلى هذا المثل محدوداً محسوساً في آيات من الكتاب تصدق لتفسيرها بعض المنقطعين للتعليم ، فوقعوا في أخطاء كأخطاء أولئك الأقدمين الذين فاتهم حظ العلم بصناعة التعليم على نهجها الأول وعلى نهجها الأخير ، ثم أضافوا إليها أخطاء من قبيلها تدل على ضيق الأفق الذي ينحصر فيه كل من يغفل عن حقيقة المقام وحقيقة المقال في تفسير الآيات القرآنية ، فإنه ينحصر في نفسه وينقل شعوره هو إلى مستمع الخطاب

لأنه خرج به عن مقامه بالنسبة إلى القاتل - جل من قاتل - وبالنسبة إلى المستمع للكلام الإلهي ، وقد يكون المستمع نبياً لا محل للشبه بينه وبين المتصل بـ التفسير ، وهو لا يفقه من مقتضيات المقام غير شعوره هو يعكسه على كل إنسان وفي كل مناسبة ، وعلى غير مناسبة .

لقد أكثر بعض المفسرين من التعقيب على جواب موسى عليه السلام على سؤال الإله آياته بما يسميه كما جاء في سورة طه: «وَمَا تَلَكَ بِيَعْمِلُكَ يَا مُوسَىٰ . قَالَ هِيَ عَصَایِي أَتُرَکُ أَعْلَمُ بِهَا عَلَىٰ غَنْمِي وَلَیْ فِيهَا مَأْرِبٌ أَخْرَىٰ » .

ومدار تلك التعقيبات جميعاً أن الجواب قد عرض لأشياء لم يتطلبهها السؤال ، وهو أمر إذا صدر من نبي جليل وجب أن يفسره المفسر بما ينفي عنه الغرابة ومخالفته المنتظر في جواب نبي مرسى خلقه الذي أسلم إليه الرسالة .

والخطأ كله إنما هو خطأ الغافلين عن مقام السؤال ومقام الجواب ، أو عن مناسبة القول التي تفهم منها «ما يناسبه» وما يعتبر اختلافاً بين غرض السؤال وغرض الجواب .

إن موسى عليه السلام قد فهم السؤال على الوجه الوحيد الذي يتقبل فهمه ولا يتقبل غيره .

إنه عليه السلام قد فهم قطعاً أن الله جل وعلا لم يسأله عما في بيته ليعلم شيئاً مجهولاً ، حاشا لله أن يقع ذلك منه ، أو أن يقع في خلد عبد من عباده - فضلاً عن نبيه من أنبيائه . إنه مما يجوز في حق الإله .

فلو أن موسى عليه السلام قال في الجواب : «إنها عصا» لكن هذا الجواب أبعد ما يكون عما ينبغي في هذا المقام .

ولكنه أجب كما يتبعى أن يجيب من هو أهل لاستماع الرسالة الإلهية وإبلاغها إلى عباده ، وعلم علم اليقين أن السؤال مقصود لتعليمه هو شيئاً يجهله ويزيد على ما يعلمه من حقيقة عصاء ، فوجب أن يقول كل ما يعلم من تلك الحقيقة في انتظار المزيد عليها ما يعلمه الله ويريد أن يعلمه إياه .

وهذا المنهج الإلهي في التعليم هو يعنيه ذلك المنهج الذي عاد المعلمون - على أحدث مثال - فقرروه «للتطبيق» في صناعتهم العصرية ، وهم آخرين عن لا يمارسون هذه الصناعة أن يلتفتوا إليها .

والطريف أن تشتري في هذه المساجلة سيدة معلمة فلا تعطى المقام حقه ولا تعمل الإطالة في جواب موسى بمقام التعليم الإلهي لنبيه في موضعه ، وإنما يخاطر لها ما يدل على انحصار النفس في النفس ولا سيما النفس الأنثوية ، فتقول إنما أطال موسى عليه السلام لأنه أراد أن يتذرع بالإطالة إلى طول الوقوف بين يدي الله ۱

وجائز أن يكون من أساليب المرأة الخفورة أن تتملأ الأسباب بجواب غير مطلوب للوقوف حيث ت يريد أن تطيل الوقف ، ولكن في «مقام» الاستعداد للنهوض بأعباء النذر وأخطار الوعيد وما زق الصدام بين دعوة الحق ورعبه السلطان شيء لا يقع في الحسبان .

وغير هذا وأمثاله كان فهم الإمام الرازى لوجه السؤال ووجه الجواب حيث قال في تفسيره لهذه الآية :

ها هنا سؤالان : الأول قوله : **(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ) سؤال .**

والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال ، فما الفائدة فيه؟ والجواب : فيه فوائد ، إحداها أن من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريعاً فإنه يأخذ له ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم : هذا ما هو ، ثم إنه بعد إظهار صفتة الفائدة يقول لهم : خلوا منه كذا وكذا ، فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآية الشريفة ، كانقلابها حبة وكضربه البحر حتى انتلق . وفي الحجر حتى انفجر منه الماء - عرضه أولاً على موسى ، فكانه قال : يا موسى أهل تعرف حقيقة هذا الذي بيده؟ وإنه خشبة لا تضر ولا تنفع ، ثم إنه قلبه ثعباناً عظيماً فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته . . .

والفارق بين هذه النظرة من أمثال الإمام الرازى وبين نظرات الناظرين من قبل من ذكرناهم هو في الواقع جملة الفوارق الكثيرة بين فهم البلاغة وفهم تراكيب الحروف والألفاظ ، ويجتمعها هذا الفارق الجوهرى الواحد وهو «مقام القول» .

فالফسر الذى يتتبه إلى مقام القول يفقه مدلول السؤال كيما كانت عبارته وتركيب ألفاظه وحرفوه ، ويفقه الجواب الذى يناسبه ويوجهه إلى مستمع القول على حسب إدراكه لمقامه .

ومفسر الذى يخطئ هذا المقام يغفل عن القول وعن غرض القائل والمستمع

وينحصر في ذات نفسه ويقصر به الفهم والتخيل عما وراء شعوره ، أو يحسب السؤال والجواب بعد الكلمات أياً كان المقام أو المناسبة .

وينقلب الفهم رأساً على عقب بين النظرتين فيصبح الجواب المستغرب هو الجواب الصحيح الذي لا غرابة فيه ، ويصبح الجواب المنتظر هو الجواب غير المنتظر في مقامه وهو الجواب الذي يحتاج إلى التعليل والبحث عن باطن غير الظاهر بين طوابيه .

فلو أن موسى عليه السلام قال لأسأله ربه عما في يمينه : هن عصا أو هن عصاى ،  
لكان هذا هو موضع العجب : كيف خفى على النبي المرسل أن الله سبحانه وتعالى  
يعلم ما يسميه ولا يسئله عن شيء يجهله ويطلب المعرفة به من جوابه .

فإذا فهم كما ينبغي له أن يفهم أن المقام مقام تعليم ، لا استطلاع ، لم يكن له جواب غير جوابه الذي يتطلب المزيد من العلم بما عند الله ما يهديه إليه ، وكان الجواب على قدر السؤال كلمة وحرفًا حرفًا ، ولم يكن بالمفسر حاجة إلى أن يتصور أن في الجواب إطالة غير مطلوبة ، وإنما هي ت محل لإطالة الحديث في غير غرض من أغراض الرسالة الإلهية .

ولابد من هذه النظرة إلى مقام القول في تفسير كل بلاحة «على حسب مقتضاه». ولكن للقرآن الكريم حكماً غير سائر الأحكام، لأنه يتطلب من المفسر أن يعرف له مقاماً واحداً في جملته يخالف به كل مقام: وهو مقام الرسالة الإلهية التي يرتبط بعضها ببعض وتنتهي ظواهرها كلها إلى باطن واحد توافقه جميع الأجزاء من السور والآيات متفرقات ومتصلات.

ولا ينسى المفسر هذا المقام الجمل على اختلاف المناسبات واختلاف مقام القول في كل آية وفي كل حكم من أحكام يتواتر في تفصيل آياته .

وذلك هو الذي عناء الدكتور عثمان أمين حيث يقول عن منهج الأستاذ الإمام في تفسيره : «إنه ينصح بأن يؤخذ القرآن جملة ، وينتهي إلى التصرير بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول في آيات الأحكام فإن معرفة الواقع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه» .

وهذا في لباه هو منهج كل مفسر يُستمع إليه في هذا المقام الجليل ، ولا يجوز  
لمن لا يستطيعه أن يتصدى لتفصير القول البليغ كيما كان ، وأجدر ألا يتصدى  
لتفصير أحسن القول وأحراء بالتبصر والوعي والمعرفة بمقام كل مقال .

## القرآن والنظريات العلمية<sup>(١)</sup>

«... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد ، إن الأستاذ مصطفى صادق الروانى رحمة الله ، يقول في الطبعة الثانية من كتابه «إعجاز القرآن» في هامش ص ١٣٢ تعليقاً على الآية القرآنية :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةِ مِنْ طِينٍ﴾ . فجاءت العبارة في الآية الكريمة كأنها سلالة من علم تتسع للذهب القائلين بالنشوة ، ولذهب القائلين بالخلق ، ولذهب القائلين باتتقال الحياة إلى هذه الأرض في سلالة من عالم آخر ... . فإن كانت نظرية دارون صحيحة فإني أريد أن أعرف رأيكم في الكيفية التي يقبل بها القرآن الكريم أن يكون الإنسان من سلالة القردة ، وأرجو أن أقرأ ردكم على صفحات الرسالة الغراء ، ولكم جزيل شكري والسلام» .

المخلص

\*\*\*

والذى نلاحظه أولاً أن رواية مذهب دارون على هذا الوجه غير صحيحة . فإن دارون لا يقول بتسلسل الإنسان من القرد ، ولا يلزم من مذهبة أن يكون كل إنسان مشحدراً من القردة في أصله القدم .

وكل ما يلزم من مذهبة أن الإنسان والقردة العليا تلتقي في جنر واحد ، وأن بين الإنسان والقردة العليا حلقة مفقودة لم توجد إلى الآن .

أما الآية القرآنية فهي لا تثبت المذهب ولا تنفيه ، ومن الخطأ البين في اعتقادنا أن نجعل تفسير القرآن تابعاً للنظريات العلمية التي تنقض اليوم ما ثبته بالأمس ، والتي يجري عليها الجدل بين المدارس العلمية - أو الفلسفية - على أساس شئون لم يتتفق عليها العلماء .

(١) الرسالة ٢٧ أكتوبر ١٩٤٧ .

ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه بعض المجهدين الخدشين في التوفيق بين القرآن الكريم ومبادئ مذهب النشوء والارتفاع ، فالنشويون يقولون بتنازع البقاء ، وهو مطابق للأية القرآنية :

﴿وَلَوْلَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بِعْضُهُمْ بِعْضًا لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ .

ويقولون ببقاء الأصلاح ، وهو مطابق للأية القرآنية : ﴿فَإِنَّمَا الرَّبِيدُ فِي الْذَّهَبِ جُفَاءٌ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ . ومن المشاهدات التي سجلها النشويون ما هو صحيح لا ريب فيه ، ولكن المذهب يشتمل على نتائج وتحريمات كما يشتمل على مبادئ ومشاهدات ، وكل ما جاء فيه من قبيل النتائج والتحريمات فهو في حكم القروض التي تحتمل النقض والإثبات ، ولا يصح أن نفسر القرآن الكريم وفقاً لها ، وهي لا تزال في طور التلليل والترجح .

والنظرية السديمية مثل آخر من هذه الأمثلة في محاولات التوفيق بين القرآن الكريم والفرضيات العلمية . فمن علماء الطبيعة - والفلك خاصة - من يرى أن المنظومات الفلكية نشأت كلها من السديم الملتهب . وأن هذا السديم تختلف فيه الحرارة فيتشقق ، أو ينفصل بعضه عن بعض من أثر التمدد فيه ، فتدور الأجرام الصغيرة من حول الأجرام الكبيرة ، وتنشأ المنظومات الشمسية وما شابها من هذا التشدق وهذا الدوران .

فإذا ببعض المجهدين المعاصرين يعتبر هذا القول فصل المخطاب في نشأة الأجرام السماوية ، ويقول إنه هو المقصود بالأية القرآنية : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الذِّينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَسَقَتَا هُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلُّ شَيْءٍ حَيْزَ أَفْلَأَ يُؤْمِنُونَ﴾ .

ولكن النظرية السديمية لم تنته بعد بين علماء الطبيعة إلى قرار متفق عليه فهل كان القضاء كله خلواً من الحرارة ، وكانت الحرارة الكونية كلها مركزة في السديم وما إليها؟

ومن أين جاءت الحرارة للسديم دون غيرها من موجودات في هذا القضاء؟ ألا

يجوز أن يظهر في المستقبل مذهب يرجع بالحرارة إلى الفضاء في حالة من حالاته؟ أليس خلو الفضاء من الحرارة - إن صع هذا الخلو - عجباً يحتاج إلى تفسير؟ أليس انحصر الحرارة في السدم دون غيرها أخرج من ذلك إلى التفسير؟

فالقول المأمون في تفسير الآية القرآنية أن السموات والأرضين كانت رتقة فانفقت في زمان من الأزمان . أما أن يكون المرجع في ذلك إلى النظرية السديعية فهو الجازفة بالرأي في غير علم وفي غير حيطة ، وبغير دليل .

وأظہر من هذا وذاك جدالهم القديم حول دوران الأرض وثبوتها ، أو حول استدارة الأرض وتسويتها .

فقد تفلسف بعضهم في تفسير آي القرآن الكريم فجزم بکفر القائلين باستدارتها ودورانها ، وجعل القول بشبوثها وتسويتها حكماً قاطعاً من أحكام الدين . فما قول هؤلاء الآن وقد أصبحت استدارة الأرض مشاهدة من مشاهدات العيان؟ وما قولهم وقد أصبح دورانها مسألة من مسائل الحساب الذي يحصى كل حركة لها كما تحصى حركات كل قطر؟

وهكذا يخطئون في النفي كما يخطئون في الإثبات كلما علقوا آيات القرآن بهذه النظريات العلمية ، أو الفروض الفلسفية ، التي تختلف الأقوال فيها باختلاف الأزمنة أو اختلاف الأفكار .

وقد تكون محاولات التوفيق مأمونة معقولة كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبد الله رحمه الله في تفسير الطير البابيل بجرائم الأمراض التي تسمى بالميكيروبات .

فالميكروبات موجودة لا شك فيها والإصابة بها محققة كذلك في مشاهدات مجرية لا تقبل الجدال . فإذا قال المفسر كما قال الأستاذ الإمام إن هزيمة أصحاب الفيل رعايا كانت من فعل هذه الجرائم فذلك قول مأمون على الجواز والترجيح ، ولكنه غير مأمون على الجزم والتوكيد ، لأن الحفريات التاريخية قد تكشف لنا غداً عن حجارة من سجيل أصيب بها أصحاب الفيل فجعلتهم كعصف مأكون .

ومهما يكن من فروض العلماء في مختلف الأزمنة فإن القرآن الكريم لا يطلب منه أن يتبع هذه الفروض كلما ظهر فيها فرض جديد ، وكل ما يطلب منه أن يفتح

باب البحث لمن يؤمنون به فلا يصلهم عن طلب الحقيقة حيثما ستحت لها بادرة مرجوة ، وقد توافر ذلك في آيات القرآن الكريم كما لم يتواتر قط في كتاب ديني تؤمن به الأمة ، فليس أكثر من الحث فيه على التفكير والاعتبار وطلب الحقائق في آيات خلق الله في الأرض والسماء : ﴿إِنَّهُ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ النَّهَارِ وَالنَّهَارِ لِآيَاتِ إِلَوْنِي الْأَنْبَابِ . الَّذِينَ يَذَكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعْدًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَكَبَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بِأَحْلَالٍ سَبَّحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ .

وحسب المسلم أن يعمل بما علمه كتابه في هذه الآية وما جرى مجرها ليعطي العلم حقه ، ويطلب الحقيقة من حيث يطلبها الفكر الإنساني في عجائب خلق الله بين الأرض والسماء .

أما مدلول الآية كما أشار إليه الرافعى فهو يتسع - كما قال - بجميع المذاهب في خلق الإنسان وسواء قطعنا الصلة بين الإنسان وسائر الأحياء العليا والدنيا أو ربطنها فذلك لا ينفي أنه في أصله من سلالة من طين . وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلُّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ . ولم يقل أحد إن خلق الأحياء جميعاً من الماء يمنع تسلسل الإنسان من مادة الطين ، فإن الأصل لا ينعدم إذا خرجت منه الفروع على التسلسل والتدرج ، أو خرجت منه دفعة واحدة بغير تسلسل ولا تدرج ، وحذر أن تقف في هذه المسألة كما وقف المجاذبون من قبل في مسألة الأرض واستدارتها ودورانها ، فإنهم يدعون لأنفسهم ما لا يجوز لأحد أن يدعوه باسم العلم أو باسم الدين ، وفوق كل ذي علم عليم .

## الطير الأبابيل في تفسير الأستاذ الإمام<sup>(١)</sup>

قلنا في كلامنا الذي نشر بالرسالة<sup>(٢)</sup> عن القرآن والنظريات العلمية إن محاولات التوفيق قد تكون مأمونة معقولة كقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبد الله رحمة الله في تفسير الطير الأبابيل بجرائم الأمراض التي تسمى بالميکروبات ، فالميکروبات موجودة لا شك فيها ، والإصابة بها محققة كذلك في مشاهدات مجرية لا تقبل الجدال ، فإذا قال المفسر كما قال الأستاذ الإمام إن هزعة أصحاب الفيل ربما كانت من فعل هذه الجرائم فذلك قول مأمون على الجواز والترجيح . وهذا الذي فعله الأستاذ الإمام حين أجاز أن تكون إصابة أحجار الفيل من قبيل الإصابة بجرائم الأمراض .

وقد كتب الأستاذ الفاضل الشيخ مصطفى أحمد الزرقا إلى الرسالة معبأً على مقالى فقال : «لعله اعتمد في قضية الطير الأبابيل على رواية أحد نسب ذلك الرأى إلى الشيخ محمد عبد الله أخذنا ما أشيع عنه واشتهر» .

ولكن الواقع أننا لم نعتمد على الرواية بل اعتمدنا على كلام الإمام نفسه ، ولم ننسب إليه غير ما جاء في نص تفسيره حيث قال في الصفحة الـ ١٥٨ «من تفسير جزء عم يتساءلون : «فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعض أو الذباب الذي يحمل جرائم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم التيابس الذي تحمله الرياح فيتعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القرح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه . وإن كثيراً من هذه الطيور الضميئة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يزيد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن باليکروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجهات لا يحسى عدده إلا بارثها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة

(١) الرسالة ١٧/١١/١٩٤٧.

(٢) انظر المقال السابق .

الله فن قهر العاغرين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال ..، فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدرى أو الخصبة فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة».

إلى أن قال رحمة الله : «هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة وما عدا ذلك فهو ما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته ، وما تعظم به القدرة أن يوْلَدَ من استعْزَ بالفَيْلِ وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسماً ويُهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يُدرك بالبصر» .

وفي هذا النص يرى الفاضل الأستاذ «الزرقا» أننا لم نعتمد على الرواية المنشورة ، ولم نتجاوز بالنص معناه حين قلنا إن الأستاذ الإمام أجاز تفسير الطير الأبابيل بجرائم الأمراض التي تسمى بالميكروبات ، وهو تفسير مقبول ولا شك - كما قلنا - على سبيل الجواز والترجح .

## مسألة القضاء والقدر<sup>(١)</sup>

قد رأسيت يا سيدى أن أقدم إليك مسألة واحدة حتى لا يشق على مجلة الرسالة ردك .. وهذه المسألة هي «القضاء والقدر» ، هل الإنسان مصير أم مخير؟ . وقد وجهت هذا السؤال من قبيل لاستاذى فرد على ردام أوفيه مقنعا . فتضاربت الآراء بعملى ، وأنى لأشنى على نفسى وعلى إيمانى ..

محمد على

طالب بعمل قنا

مسألة «القضاء والقدر» هي مسألة الحرية الإنسانية فى جميع تواجها ، فيها بهذه المثابة مسألة قضائية نفسية علمية ، وليس بالمسألة الدينية وكفى .

وليس من الميسور أن تحل هذه المسألة من جميع وجوهها حلا يدفع كل اعتراض ، ويوافق كل رأى ، ويكشف النقاب عن العلاقة بين حرية الإنسان وقوى الكون الذى يعيش فيه ، فإن العلم بحدود حريته يتوقف على الإحاطة بهذه العلاقة من جميع أطرافها ، وليس ذلك بالمستطاع فى عصرنا هذا ، ولا تحاله يستطيع كل الاستطاعة فى وقت من الأوقات .

لكن المستطاع الذى لا شك فيه أن مسألة القضاء والقدر هى نفسها حل معقول أسهل من جميع الحلول التى تذهب إليها العقول .

فبماذا يقول من ينكر القضاء والقدر كأنه شىء لا يواافق العقل ولا يساعف فى منطق التفكير؟

أيقول بأن الخلوقات يجب أن تختلف وأن تتساوى مع ذلك الاختلاف فى كل قدر وقضاء؟

ذلك حكم لا يسوع فى عقل عاقل ، لأن اختلاف التقدير لازم مع اختلاف الأقدار .

(١) الرسالة ٢ مارس ١٩٤٧ .

فإذا اختلفت أقدار المخلوقات وأوصافها فلا ينحضر على العقل أن تكون بعد ذلك سواء في الأعمال أو التقديرات .

وإذا هي لم تختلف فكيف يريد المعارضون أن تكون؟ وكيف يتوجهونها في الخيال فضلاً عن تقديرها في عالم الفكر أو عالم العيان؟  
أي يريدونه عالماً لا فرق فيه بين حي وحي ، ولا بين شيء وشيء ، ولا بين موجود وموارد؟

إذن هم يريدونه عالماً لا أشياء فيه ولا أحياه فيه ولا موجودات فيه .  
لأن الشيء لا يسمى شيئاً إلا إذا كان مختلفاً لشيء آخر في جوهره أو صفاته ،  
فإذا بطل الاختلاف بين الأشياء بطل قوام الأحياء والموجودات .  
فهل يريد المعارضون أنهم هربوا من مسألة القضاء والقدر إلى مسألة يقبلها العقل  
وترتضى بها النفس ، ويتصورها الخيال ؟

وأى الصورتين بعد هذا أقرب إلى عقول المفكرين : عالم فيه اختلاف في التقدير  
واختلاف في الأقدار؟ أو عالم لا توجد فيه الأشياء ولا توجد فيه الأحياء !  
مسألة القضاء والقدر على هذا أقرب إلى الفهم من كل مسألة تخطر على بال  
مفكر في هذا الموضوع .

وإذا كانت هي الوجه الذي يقبله العقل فالناحية المجهولة منه ينبغي أن تقام  
على الناحية المعلومة ، فيطمئن الفكر إلى موافقتها له ومطابقتها للدعاوى الإيمان .  
أما هذه الناحية المجهولة فهي ناحية التوفيق بين العدل الإلهي واختلاف الجزاء  
على الأعمال .

فإذا وجب أن تختلف الأشياء وينتشر في الأحياء وينتشر في الجزاء ، فقد وجب أن  
يكون الجزاء غير مناقص للعدل في نهاية المطاف . ونهاية المطاف هذه هي التي  
يعدها الإنسان ، ويقيسها على ما يعلم فتسري إليه الطمأنينة في هذا القياس  
الصحيح .

\*\*\*

ويتحدث الأديب صاحب الخطاب عن صديق له يستحر من تبليل خاطره في

هذه المسألة فيقول : «إنه أبىزلى آراء في هذه المسألة وقال إنها آراء أهل السنة وأخري قال إنها آراء المعتزلة» ... ولا يدرى أيها أحق بالاتباع ؟  
ولا فائدة من الإطالة في تفصيل هذه الآراء أو تلك الآراء .

ولكن كاتب الخطاب خليق أن يوقن أن آراء المعتزلة تؤدى إلى تبليل في الخواطر يعود على صاحبه بسخرية أمر أنكى ، لأنهم يحلون المشكلة مشكلات وينحرجون من تيه إلى أ天涯 ، ويقولون إن الإنسان ينبغي أن يكون حراً لأن الله يحاسبه ، وإن الله لا يحاسبه إلا لأنه حر في عمله و اختياره .

فهم لا يقررون أن الإنسان حر في عمله و اختياره بدليل من الواقع ، بل بفرض من الفرض ، فمن أين لهم أن حساب الله لا يوافق حالة التقدير ، وأنه لا بد أن ينافق العدل إذا وجب الإيمان بالتقدير ؟ ولماذا يمنعون على الله حساباً يتقابل فيه العدل والرحمة وصدق الجزاء والعقب ؟ وإذا وجب التسليم بأن الاختلاف في العالم المشهود هو الحالة التي يتحقق عليها الوجود ، فلماذا يجزمون بأن هذه الحالة الراجحة ستناقض ما يجب في مسألة العدل والتوفيق بين العمل والمصير ؟

لو كان المعتزلة ينكرون وجود الله لجائز أن يبطلوا الحكمة في الخلق كله ، وأن يبطلوا العدل والرحمة فيما هو ظاهر لنا وما هو محظوظ عنا ، ولكنهم يؤمنون بالله ويؤمنون بوجوب الاختلاف بين الأشياء والأحياء . فلماذا تضيق قدرة الله عندهم بما يواافق الحكمة فيما يجهلون ؟

وقد يصرى القول أن الخل الوحيد المستطاع لعقدة القضاء والقدر هو المقابلة بينها وبين العقد التي تنتهي إليها إذا انكرنا القضاء والقدر . وإن العدل يعني المساواة الشاملة هو العدم يعنيه ، لأن المساواة الشاملة تتفق قيام الأشياء والأحياء ، فلابد من معنى للعدل الإلهي غير هذا المعنى ، ولا تناقض إذن بين العدل والاختلاف في تركيب الموجودات ، إذا وجب أن نفهمه فيما غير فهم المساواة في الأقدار والمساواة هي التقدير .

ونحن نرى في حياتنا العملية أن الناس يرثون أخلاقهم من آبائهم وأمهاتهم ، وينشأون في عاداتهم على نشأة ينتهي وبيشات أسلافهم ، ولكننا مع هذا لا نبطل التكليف والجزاء ولا نرى أنه عبث في غير جدوى ، أو أن إلغاء القوانين والعقوبات

مساوٍ لبقائهما وسريرانها . فهناك تنصيب من الحرية يكفى لقيام التكليف في المسائل الدنيوية ، وهناك تنصيب من الحرية يكفى للتوفيق بين العمل والجزاء في هذه الحياة القصيرة ، فكيف بالحياة الأبدية التي تدبرها عنابة الله ولا يحيط بها علم الإنسان؟ إن مسألة القضاء والقدر عقدة ، ولكنها عقدة لا ينكرها المنكر إلا وقع فيما هو أعقد منها ، ولا سيما المنكر الذي يؤمن بوجود الخالق القديم .

أما الذين يبطلون وجوده فإنهم يعطّلون العقل جملة في هذه المسألة وفي غيرها من المسائل ، لأن تفسير العالم كله بالمصادفة العميم لا يدع مجالاً للإشكال ولا للسؤال ، وكل شيءٍ غير جائز ، فقد استوى الجائز وغير الجائز على كل حال .

## فهرست الكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٦	عيد سعيد	٣	تقديم
٦٢	عيد الفطر	<b>الفصل الأول</b>	
٦٦	العيد الكبير	٧	نبي الإسلام
٧٠	الضاحية في مقارنة الأديان	٨	محمد العربي الإنسان
٧٥	خواطر العيد بين لفاظه ومعانيه .	رأى في نبي الإسلام بين	
٨٠	خواطر في رأس السنة الهجرية -	١٢	الأنبياء
٨٤	شعبان ونصف شعبان	١٧	حكومة النبي وخلفائه
٨٩	في الحرم	٢٢	لو عاد محمد ﷺ
<b>الفصل الرابع</b>			
٩٥	الإسلام والمسلمون	٢٧	رمضان والصيام
٩٦	الإسلام والعرب	٢٨	ألوان من الصيام
١٠٣	فهم الإسلام	٣٣	رمضان وليلة القدر
١٠٨	الإسلام بين أديان الأمم	٣٨	ليلة القدر
١١٧	الإسلام دعوة عالمية	٤٢	شهر الصيام
١٢٢	الإسلام في تاريخ العالم	٤٦	فيلسوف وقديس
١٢٧	مراجعة إسلامية	٥١	الجمعة السعيدة
١٣٢	دراسة للإسلام المعاصر	<b>الفصل الثالث</b>	
١٣٦	الإسلام والنظم العالمي الجديد(١)	٥٥	الأعياد الدينية وحكمتها الحالية .

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	حول إعجاز القرآن وأوهام المستشرقين	١٤٠	من الدعوة الهندية
١٧٢	——	١٤٥	الإسلام والنظم العالمي الجديد(٢) -
١٧٧	معنى كلمة الأمين	١٥٠	عقيدة الذات الإلهية في الإسلام .
١٨٢	تفسير الأستاذ الإمام	١٥٥	العلم الإسلامي والبغرافيا الدينية .
١٨٧	القرآن والنظريات العلمية	<b>الفصل الخامس</b>	
	الطير الأبابيل في تفسير الأستاذ الإمام	١٦٣	مباحث في القرآن الكريم
١٩١	——	١٦٤	قصص القرآن ، دروس وعبر —
١٩٣	مسألة القضاء والقدر	١٦٨	القصص الديني بين العلم والتاريخ .

\*\*\*

## من مؤلفات عملاق الأدب العربي الكاتب الكبير

### عباس محمود العقاد

- ٣٦ - الثقافة العربية
- ٣٧ - اللغة الشاعرة
- ٣٨ - شعراء مصر ويتانهم
- ٣٩ - أشئرات مجتمعات
- ٤٠ - حياة قلم
- ٤١ - خلاصة اليومية والشذوذ
- ٤٢ - مذهب ذوى العاهات
- ٤٣ - لا شيوخية ولا استعمار
- ٤٤ - الشيوخية والإنسانية
- ٤٥ - الصهيونية العالمية
- ٤٦ - أسوان
- ٤٧ - أنا
- ٤٨ - عبقرية الصديق
- ٤٩ - الصديقة بنت الصديق
- ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية
- ٥١ - مجمع الأحياء
- ٥٢ - الحكم المطلق
- ٥٣ - يوميات جزء أول
- ٥٤ - يوميات جزء ثانى
- ٥٥ - عالم السدود والقيود
- ٥٦ - مع حاصل الجزيرة العربية
- ٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والسياسة
- ٥٨ - دراسات في المذاهب الأنبياء  
والاجتماعية
- ٥٩ - آراء في الأدب والفنون
- ٦٠ - بحوث في اللغة والأدب
- ٦١ - خواطر في الفن والقصة
- ٦٢ - دين وفن وفلسفة
- ٦٣ - فنون وشجون
- ٦٤ - قيم ومعايير
- ٦٥ - ديوان في الأدب والشقد
- ٦٦ - عبد القلم
- ٦٧ - ردود وحنود

- ١ - الله
- ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء
- ٣ - مطلع النور أو طالع البعثة الخمودية
- ٤ - عبقرية محمد
- ٥ - عبقرية عمر
- ٦ - عبقرية الإمام علي بن أبي طالب
- ٧ - عبقرية خالد
- ٨ - حياة المسيح
- ٩ - فو النورين عثمان بن عفان
- ١٠ - عمرو بن العاص
- ١١ - معاوية بن أبي سفيان
- ١٢ - داخص السماء يلال بن رياج
- ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي
- ١٤ - فاطمة الزهراء والفاتحين
- ١٥ - هذه الشجرة
- ١٦ - إيليس
- ١٧ - جحا الضاحك المضحك
- ١٨ - أبو نواس
- ١٩ - الإنسان في القرآن
- ٢٠ - المرأة في القرآن
- ٢١ - عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمد عليه
- ٢٢ - سعد زغلول رضمون الثورة
- ٢٣ - روح عظيم المهاجم خاندى
- ٢٤ - عبد الرحمن الكواكبى
- ٢٥ - رجمة أبي العلاء
- ٢٦ - رجال عرفتهم
- ٢٧ - سارة
- ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية
- ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين
- ٣٠ - ما يقال عن الإسلام
- ٣١ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
- ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية
- ٣٣ - الفلسفة القرآنية
- ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام
- ٣٥ - أمر العرب في الحضارة الأوروبية





رقم الإيداع : ٩٩/٩٦٩٦

I.S.B.N 977 - 01 - 6256

طبع بطباعة الهيئة المصرية العامة للكتاب





العرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود  
ولاموعد قيده أو تنتهي إليه . هكذا تواصل مكتبة الأسرة  
عامها السادس وتستمر في تقديم أزهار المعرفة للجميع . للطفل  
. للشاب . للأسرة كلها . تجربة مصرية خالصة يعم فسيفسها ويشع  
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية وما زال الحلم  
يخطو ويكبر ويتعاظم وما زالت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة  
لكل أسرة ... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد  
بأن مصر كانت وما زالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفن المبدع  
والحضارة المتتجددة .

مذکور مبارک



Digitized by srujanika@gmail.com

**1922**  
**Annual Catalogue**

**To: www.al-mostafa.com**